الأعراف جلاد وجياد

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١
هاتف : ٠١٠٠٠٣٢٨٨٥٩٦
بريد إلكتروني : gmail.com@yahoo.com@Dream.pen٩٢

الأعراف جلاد و جياد (رواية)

صفية الجبار
الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠ م
رسم الغلاف : هند حسني
تصميم غلاف : عمار جمال
تدقيق لغوي : الاء العزاوي
تنسيق : أحمد العدل
رقم الإيداع : ٢٠٢٠/٢٢١٩٣
I.S.B.N: ٣-٥٧-٦٧٩٤-٩٧٧-٩٧٨

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

الأعراف جلاد و جياد

رواية

صفية الجيار

تنـويه

أي تشـابه بالأسماء أو الأحـداث صدفـة غـير مقصـودة مـن مؤلفـة هـذا العمـل التي تكـن كل التقديـر والاحـترام للمجتمـع البـدوي، ومـا ذكـر بـين السـطور مـن سـبل تعذيـب جسـدي ونفسـي مأخـوذ عـن لسـان فتيـات تعرضـن لـه بالفعـل لكنـه يبقـى عملًا فرديًا صـدر عـن القلة القليلة ولا يمارسـه الأغلبيـة، وقـد قدمنـا لكـم حكايـات قصتهـا علينـا ألسـنة فتيـات يتطلعـن إلى المسـاواة، بمعاونـة أُنـاس يقطنـون في قلـب المجتمـع البـدوي.

شكر

هذا العمل كُتب بروحي ويدي لكن دون وجود الدعم الحقيقي ما كان ليصبح متاحًا بين أيديكم، لذا هناك من يتوجب عليَّ شكرهم على ما قدموه لتصبح كلماتي زهوة الأعراف.

أن تسير وحدك بيدٍ فارغة من رفيق يبتسم بوجهك متى أساءت لك الحياة، يخبرك أنه معك في كل خطوة حتى وإن كانت العتمة تسود طريقك، وأن يكون نافذتك نحو متنفسك على هذه الأرض، إنها لخسارة لا تعوض!

أستاذة منحة مصطفى حواش صديقتي الوفية، شكرًا لأنكِ معي! نسير يدًا بيد نحو متنفسي على هذه الأرض.

شكرًا د. عامر عثمان أبو الزعالة، أستاذ أصول الشريعة الإسلامية والقانون الجنائي في كلية الحقوق جامعة في الاسكندرية! الكلمات لا تكفي لوصف ما قمت به، لكن يكفي القول إن ما قُدم من معلومات عن عادات وتقاليد ومعارك تاريخية خاصة بالمجتمع البدوي كان بدعم من حضرتك. شكرًا على منحي فرصة توثيق حياة أشراف هذه الأرض! كان لي الشرف أن أتحدث عن مجتمع ثري بالعادات القيمة والتاريخ العظيم.

شكرًا بحجم السماوات والأرض! شكرًا لمن كان السبيل في الوصول إلى المجتمع البدوي، ولم يتوانَ عن تقديم الدعم والمساندة لأشهر! رفضت ذكر اسمكَ لكن ستبقى الأعراف شاهدة على ما فعلت! وما خطته يدي في هذا العمل هو إهدائي لكَ.

إِهْدَاء

هناك قلوب خُلقت الإهداءات كي يروا محبتهم بين حروفها، كالنسيم عندما يزيل غبار تراكمات بنات الدَّهر، فتتطلع أرواحنا لقربه.....

إلى من لونت روحي بلون الحياة، وسجلت اسمها في قلبي «ملاذي». من أهرب إليها متى أشاحت الأيام بوجهها عني. أخبريني، هل من الطبيعي أن نرى الأمومة في أبهى صورها في عيني صديقة؟

******

إليكَ....

الإهداءات لا يُكتب فيها اسم، كلماتها بوح من القلب لتستقر في الروح وأنتَ سُكن روحي. الروايات لا تنتهي، والإهداءات ستبقى خالدة وأنتَ إهدائي الذي لم يكتب بعد.

صفية الجيار

زهوة الأعراف

كلمات كُتبت لتوثق تاريخ أجدادنا، تاريخًا غفل عنه البعض عمدًا فكان لِزَامًاعلينا تدريسه وتوارثه بين الأجيال.

كلمات كُتبت من القلب، بعد أن خشي البعض بطش أيادي تمنع كل من يحاول رفع الستار عما يُرتكب بحق أصابع تموت خَنقًا كل ليلة. الأعراف كلمات قيلت لتسمعها آذان صُمّت عن صراخ شريفات هذه الأرض. الأعراف كلمات خطتها بدوية قالت «لا» للمرة الأولى لتصبح «زهوة الأعراف».

المنتقمة

المقدمة

الإعدام مع سبق الإصرار والترصد، جملة ليست في محلها ولم يُسمع بها من قبل، أعلم ذلك جيدًا لكن حمدًا لله! ستعد جريمة يُعترف بها من بعد الآن، طالما عَيَّن مرتكبوها أنفسهم قضاة وجلادين. سيُعترف بها فالإعدام عندما تنفذه الجهات المختصة بعد ثبوت الجرم إعدامًا شرعته الشريعة الاسلامية، وعندما يقرر المرء إنهاء حياة إنسان دون وجه حق يصبح إعدامًا مع سبق الإصرار والترصد خاصة إن كانت الحُجة «عُرف أجدادنا»، البريء مما ينسبونه إليه فالدستور الذي كفل للكلب حقه إن قُتل وخصص له مادة كاملة يقتص من خلالها مالكه من القاتل، لا يقبل أن يُهدر دم إنسان ظُلمًا وبهتانًا. الإعدام في هذه الحالة جرم بَيِّن، هو والقتل وجهان لعملةٍ واحدة. إنسان سيفقد روحه بغض النظر إن كان مذنبًا أم لا، القتل أحيانًا لا يليق به.

مع سبق الإصرار والترصد، مع سبق الإصرار والترصد. جملة وُجدت لتسبقها كلمة إعدام فتصبح جملة تحاكي جريمة أكبر من أن يقال عنها جريمة قتل فسبل سلب المرء حياته عديدة رغم نهايتها الموحدة، وإن تعمقنا بها إلى أن نصل لكيفيتها سيباغتنا أكثر الأسئلة ألمًا، ألا وهو (ما هي أكثر سبل الإعدام التي مارستها البشرية وحشية؟ هل رميًا بالرصاص أم حرقًا أم غرقًا أم حبلًا غليظًا يُلف حول العنق بلا هوادة؟).

لن يجيبنا على هذا السؤال سوى ضحية سلبت منها حياتها، وطالما هذا الأمر مستحيلًا استحالة عودة الأموات، سأجيب عليه من واقع معاصرتي جريمة إعدام مع سبق الإصرار والترصد لضحية بكت من أجلها رمال صحراء البادية.

***

الشعور بالألم لثواني أو بضع دقائق أو حتى أشهر عدة ومن ثم لفظ الأنفاس الأخيرة، ليس أكثر سبل الإعدام بشاعة! مؤكد أن هناك وسيلة للإعدام لها النصيب الأكبر من الوحشية والدناءة، وإن نظرنا إلى الطريقة المتعارف عليها في إعدام المذنب في مجتمعاتنا، سنجد حبلًا غليظًا يحيط بالعنق، أسفله طاقية سوداء اللون تغطي الوجه والرأس، ومذنب يقف على باب مسطح يُفتح فجأة فيتدلى الجسد للأسفل لتضيق العقدة حول العنق ويبدأ بالركل بقدميه للحظاتٍ تسمى «الفرفرة» لكن هل «الفرفرة» لعدة دقائق مؤلمة للحد الذي يجعل وسيلة الإعدام شنقًا تتفوق على مثيلاتها؟ بالطبع لا! بل فأحيانًا يرى الضحية أكثر سبل الإعدام وحشية وهي الشنق، راحة له ويُمني نفسه أن يعدم شنقًا يومًا ما فتنتهي معاناته.

برأيي أن أقسى سبل الإعدام التي مارستها البشرية على ضحاياها هي التي تُمارَس على الفتاة في مجتمعنا، وتصبح في أبشع صورها حين تتمثل بالحلقة المعدنية التي تُلَف حول إصبع فتاة لا حول لها ولا قوة فتموت بكل نفس تستنشقه خنقًا من إصبعها.

تُرى كيف يختنق المرء من إصبعه للحد الذي يصل إلى الموت؟ وهل لإجابة هذا السؤال قيمة بعد أن عَيَّن من لا يملك الحق بذلك نفسه قاضيًا وجلادًا في نفس التوقيت دون الالتفات إلى صاحبة الإصبع المختنق؟ إلى جرمها وحقها بالتنفس بحرية ومدى ملائمة حلقة معدنية دميمة لإصبعها النابض بالحياة؟ وهل يتوجب علينا البحث عن إجابة لهذه التساؤلات بعد أن أعدمت خنقًا من الإصبع والحجة حادت عما هو متعارف عليه، استنادًا إلى قانون كُتبت نصوصه في دستورٍ متوارث من أجدادنا، وباتت بعض هذه النصوص لا يتوافق مع ما وصل إليه الإنسان من تحضر فدنسته أيادي المتزمتين؟

ليتها بترت أصابعها العشر فَلَمْ يَجِدُوا مكانًا يعدمونها منه! ولم تصبح رمالنا الطاهرة مقبرة لفتياتٍ خنقتهن حلقاتٌ دميمة حول أصابعهن، وهواءٌ يتشاركنه مع جلادهن.

الحلقة المعدنية الدميمة ما هي إلا قطعة من الأحجية التي تكتمل بها صورة الإعدام الذي يمارس على الفتاة منذ صرختها الأولى على الأرض إلى أن تغادرها

بعد أن تختفي من الحياة رويدًا رويدًا، كقطرات الماء التي تتسرب من إناء مثقوب قطرة قطرة. القطرة الأولى تكون حرمان إصبعها من التنفس على الورق ثم إنهاك عاتقها بمسؤوليات تفوق قدرة استيعابها الجسمانية والفكرية، أي ارتكاب جريمة إنسانية بحق طفولتها، والثالثة صوتها الذي لا يسمع البتة، يليه أحلامها التي تُقتل بقول «لا» لكل رغبة تُفصح عنها حتى وإن أبى لسانها إطاعتها وخانتها عيناها حين تلمعان برغبةٍ مهلكة في حضرة ما تريد.

نظرتها العدوانية للرجل التي تُزرع بواسطة ممارسات خاطئة بحقها بتعنيفها في كل مرة تسير عكس اتجاه التيار، تعد قطرة أخرى تتسرب من إناء حياتها المثقوب، والطامة الكبرى تكون ارتداءها تلك الحلقة الدميمة التي تلازمها ولا تخلعها إلا لترتدي الكفن أو تعود لبيت أبيها وجبينها موصوم بلقب مطلقة دون وثيقة زواج أو طلاق، وساعدها يأن من حمل أطفال لا شهادة ميلاد لهم، وبعدها تتسارع وتيرة تسرب قطراتها إلى أن تقول أريد ما تركه أبي لي فيجف الإناء وتذهب عن الأرض بعد أن تعافها.

ظللت لعشر سنوات أتساءل، هل أجدادي راضون بأن تصبح رمالنا مقبرة لحفيداتهن دون أهل، دون أحبة، دون لوحة رخامية مكتوب عليها «هنا ترقد زهوة الأعراف»؟

تلك هي التساؤلات التي طُرحت من قِبَلي، أنا بدوية حاربَتها الأعراف إلى أن وقفتُ قبالتها، أتحداها بشموخ توارثته عن أجدادي «أشراف قبائل الساحل الغربي».

٢٠٠٠/١٢/١٥

وادي ماجد محافظة مرسى مطروح.

(١)

يجلس على مقعده الوثير، الذي لا يتجرأ أحد على الجلوس عليه في حضوره أو غيابه، واضعًا قدمًا فوق الأخرى، منتصب العنق، ممدود الكتفين اللذان يحملان عباءة سوداء اللون أسفلها جلباب أبيض لا يشبه قلبه، يضع نَظَّارة شمسية سوداء على عينيه.

ما باله متمسك بالسواد وكأن قلبه طفح على هيئته؟ بالتأكيد أخفت نَظَّارَتُهُ نظرات الندم التي باتت لا تنْفَكُّ تظهر في عينيه في كل مرة يقرر ماجد الحياد عنهم لأسبابٍ يعرفها جده سلطان حق المعرفة. ابتسم، يبدو أنه لاحظ الشبه الكبير بين سالم وولده.

سلطان هو من قام بتدريب سالم على الفروسية في صغره وطالما روى لنا أقصوصة تعليم سالم الفروسية، وها هو ذا يشهد على تدريب حفيده استعدادًا للاحتفال بالعيد القومي لمحافظتنا. أقسم أنني سأجعله عيدًا لن يُنسى! وسيجيئ اسم البدوية التي ثأرت لعرف أجدادها في خاطر كل من سيشهد ذلك الاحتفال بعد الآن.

إنه سيادة النائب سلطان الحمد هارون، عضو مجلس النواب وكبير العائلة بعد وفاة شقيقَيه خلف ومنصور الحمد هارون. ينتسبون إلى قبائل الأشراف، وهذا الأمر الوحيد الجيد فيهم.

أشار سلطان إلى سالم يستدعيه فحضر، وكيف لا يفعل؟ وهل يجرؤ أحد على رفض كلمة سلطان الحمد؟ جلس سالم بجانبه وهو يتابع ولده ماجد بعينين تخشيان عليه السقوط رغم كبر سنه. مثل هؤلاء الرجال ينظرون إلى أبنائهم خاصة الصبية كامتداد لهم، مشروع ما يعملون على تأسيسه بزرع نبتة زُرعت فيهم من قِبَلِ آباءهم، ليصبحوا رجالًا ترتسم المسؤولية على سِيمَاهُمْ، وهكذا يضمنون نشأة رجال ينتهجون نهجهم. الأب الصالح ينشئ رجلًا صالحًا، والأب القاتل يُنشئ سفاحًا، لكنني لن أجعل من ماجد سفاحًا، حتى وإن قُتلت على أيديهم!

***

– سليمة لن تتوقف! ما رأيكَ بأن نبرم هدنة مع عثمان؟

قال سلطان وهو يحك طرف ذقنه بقلقٍ ينم عما في داخله من مخاوف فأجابه سالم وهو ينظر له بعدم تصديق:

– هدنة مع عثمان؟!

«لم يرضخ سلطان من قبل فهل سيفعلها لامرأةٍ، حتى وإن كانت شقيقته أم أن الأمر هذه المرة سيعرقل مصالحه؟» هذا ما دار في خلدي أثناء متابعتي حديثهما عن كثب.

أجاب سلطان وهو غارق في الفراغ أمامه يبدو أنه يرسم مجرى الأحداث إن خسر هذه الجولة مع عثمان، فهو بالتأكيد لا يريد وصول النزاع إلى الحُكم العرفي وهذا ما يسعى إليه الشيخ عثمان كما أخبرني في الليلة الماضية، يتشوف أن يحكم العرف لامرأة بدوية بإرثها مرة وبعدها ما سيأتي سيكون سهلًا للغاية:

– عثمان لا يريد الأرض طمعًا بالمال..

قاطعه سالم في جرأة لا يقبلها سلطان من سواه:

– ونحن أيضًا لا نرفض إعطاءه إياها طمعًا في المال! عرضت عليه أضعاف أضعاف ما يستحق لكنه رفض! إنها العادات يا عماه. سنفتح جبهة النار علينا إن ملّكناه حفنة تراب من أرض أجدادي.

– عثمان يريد الأرض حتى يغير ما اعتدنا عليه يا بُني. يعتزم إكمال ما بدأه مع جدكَ، يريد إخراج صوت نسائنا يا سالم.

سار سلطان بعينيه خطوة بخطوة مع ماجد وفرسه، ثم خفض بصره وارتخت لهجته وتابع:

– ودستورنا لن ينصرنا! كما تعلم لنا سابقة لا أريد النبش فيها، لذا الهدنة أفضل ما يمكننا فعله الآن.

سأله سالم وقد بدا عليه عدم الفهم:

– كيف سنعقد هدنة معه، وفي نفس التوقيت لن يأخذ أرض جدي؟

اتشح وجه سلطان بالغضب. هذا الرجل طالما كان له نظرة مستقبلية للأمور، يسعى من أجل ما يريد بالتحايل وإن لم يحصل عليه ينهي الأمر من جذوره. أجابه:

– بالحيلة يا سالم، بالحيلة. يكفي أن تسيطر على أفعالكَ.

نهض سالم متجهًا نحو ولده وقال:

– أمرك يا عماه، لكن القدم التي ستطأ أرضي سأكسرها.

***

من قال إن الإرث أموال وأراض والكثير من رؤوس الماشية والأغنام؟ الإرث الحقيقي الذي يستحق خوض المعارك من أجله هو تاريخ تنتفخ أوداج المرء عند ذكره أو دستور يكفل حقه ويرد له كرامته إن تمت إهانته. محظوظة أنا وكل الشكر لأجدادي، لقد تركوا لي مالًا وعشرات الأفدنة وعادات وتقاليد ودستورًا يكفل حقي. تركوا لي كل شيء إلا أهم شيء، لم يتركوا لي من يعترف بأحقيتي بكل ذلك! لكن.. إنه الحكم العدل فبين ليلة وضحاها أصبح بين يدي إرث سيسمح لي أن أسترد حقي في كل ما تركه أجدادي (دفتر مزركش مبهج، غلافه مصنوع من الصوف. جماله الخارجي لا ينم على المعارك المدونة داخله، ولا الدماء التي تلطخت بها صفحاته) ليساعدني في تذكر ذكريات محفورة في جنبات قلبي وعقلي إن تناسيتها. ذكريات كتلك لا تُنسى ولكن تتناسى! فعلى مدار عشر سنوات جمعت ذكريات ليست حكرًا عليَّ وحدي بل شهدها الكثيرون مثلي لكن تناسوا!

تناسوها خوفًا من مواجهة المصير ذاته وحقنًا للدماء لكن أنا لم ولن أنسى، سأتذكر وسأُذكر، وقد حان وقت تذكيرهم! لقد تعلمت الدرس جيدًا. لن أعلن عن خبايا روحي الدفينة، واعتراضي سيبقى يقودني في الخفاء إلى أن أقتص من أولئك القتلة، وأبرأ دستور أجدادي مما ينسبونه إليه، في معركة حتمًا سأفوز بها فالفوز في المعارك ليس غريبًا عليّ! فعلها أجدادي من قبلي.

لم يكن سهلًا عليَّ أن أجد حليفًا يساندني في هذه الحرب لكن حمدًا لله، وجدته بعد أن مر بعدة اختبارات إلى أن أثبت صدق نواياه فتجرأت وعقدت معه اتفاقية إعادة الحق إلى ذويه، بعد بدء الاستعداد ووضع خطط الهجوم وتحديد نقاط ضعف الأعداء.

سلطان، سالم، عليا، دواس، دليلة، صافية، زهوة، خلف، بدر، علي، بدور، محبوبة، مكتوبة، بريكة، هلالة، سليمة، عثمان، ثريا، ماجد، بدون ألقاب إلى أن أسترد حقي، وبعدها سأضع من يستحق تاجًا على رأسي. جميعهم جنود معركتي مع الأعراف. معركة خسر فيها المنتصر في جولتها الأولى، وفي الثانية سيخلد اسمه بالتاريخ، والبداية ستكون بتذكير الطواغيت بجرمهم.

***

اقترب أحد العاملين في إسطبل الخيل من سلطان وهو يُمسك بورقةٍ ما. هتف بتهور لا يليق بحضرة النائب:

– سيدي!

فأجابه وهو يحدجه بغضبٍ:

– اخفض صوتكَ! ستشتت تركيز شيخ العرب، ماذا هناك؟

مد يده بورقة مطوية مكتوب عليها (سلطان الحمد هارون). لم يستطع العامل قراءة

الاسم لكن سلطان فعل، فأحدهما نال فرصة التعلم والآخر حرمته منها مَشَقّات الحياة. قرأ اسمه عندما حركها بين يده وسأله عن ماهيتها فأخبره بصوتٍ مرتبك أنه وجدها معلقة بلجام الفرس الخاص به.

لم يستطع سلطان إخفاء غضبه. لقد كتبت له جملة من شأنها أن تُحدث إعصارًا بهدوئهِ الذي يأجج نيران الحقد داخلي، فالرسالة كانت تشي عن دهاء المُرسل، وكأنني أقول له «لقد وصلنا إلى فرسكَ، ألن نصل إليكَ؟»

يبدو أنه أدرك ذلك فرمق فرج بنظراتٍ محذرة، يسأله إن كان فتحها. رفع العامل يده، ينفي التهمة التي لم يوجهها له سيده، إنه فقط يسأل، جميعنا نعلم ماذا يفعل سلطان هارون إن أغضبه أحدهم، خاصة أنا، أعرف ذلك حق المعرفة.

دافع العامل عن نفسه بصوت مرتجف وعينين زائغتين:

– أقسم لكَ يا سيدي، لم أفعل!

أشار له أن يذهب ثم هم بفك طيات الورقة وبدأ يقرأ ما كُتب فيها بهمس متهدج. جحظت عيناه من هول ما قرأ فوزع نظراته بين سالم والورقة وعندما أيقن ما تطرق إليه المكتوب بالورقة صرخ باسم سالم، أتاه راكضًا فناوله الورقة دون أن ينبس ببنت شفة. مرر سالم نظراته على ما هو مكتوب فيها ثم قال:

«لن تغير نظرات الندم التي في عينيكَ شيئًا! قُتل من قُتل، ويداكَ ستبقيان ملوثتان بالدماء إلى أن يسترد رب العالمين أمانته. أنتَ جعلت سالم يشبهكَ، وسالم كان السبب في أن يلقى ولده مصيره لكنني لن أجعله يشبهكما، هذا وعدي فتذكراه»

***

من دفتر زهوة الأعراف

(٢)

في صيف عام ١٩٩٠

– زهوة، يا زهوة! إن جاء سالم ووجدكِ هنا سيلقي بكِ من الأعلى، وسيتحطم رأسكِ السميك جلاب المصائب على رؤوسنا!

قالت عليا بغضبٍ حقيقي ناتج عن خوفها الذي يكبر داخلها يومًا بعد يوم كجنينها، بصوت مرتفع بعض الشيء ليلوث صوتها المزعج خلوتي الصافية كصفاء اللوحة التي أتأملها.

نظرت إلى الأسفل فابتسمت بتهكمٍ على ضيق أفقها. هل السقوط من ارتفاع طابق واحد سيحطم رأسي السميك؟ حمدًا لله أننا في العام التسعون بعد الألف وتسعمئة ميلادي، والمباني في قريتنا لا تتعدى الطابق الواحد، وأغلبية السكان يقطنون الخيام.

آه لو تسنح لي الفرصة للعيش في خيمةٍ مرة أخرى كما الأيام الخوالي! السماء من فوقي وأفترش الرمال والحوايا، والقمر يغازلني كل ليلة، حينها لن يستطيع سالم إلقائي من أعلى الخيمة. إن كنت أسكن خيمةً لن أصعد الى السطح هربًا من تحول الأكسجين من حولي إلى غاز سام يصيبني بالاختناق. رؤيتي لشمسي ستكون أسهل. عند وجود الخيمة لا داعي للسطح، وعند وجود السطح تتملكني أحلام يأبى الزمان تحقيقها ويئدها سالم قبل أن تترعرع في داخلي.

عليا تمتلك مُنَبِّها في عقلها ينذرها كل مساء بقرب موعد عودة أخي فتصعد لتذكرني بمجيئه، أي هبوب عاصفة هوجاء على أسباب ليس من شأنها أن تحرك ورقة من مكانها رغم علمها أنني لن أهبط إلا عندما تغيب صديقتي. صديقتي

التي أمكث أراقبها ما يقارب نصف الساعة، أحدق بها بعينين جاحظتين، أتحداها وكأنني أقول لها ها أنتِ قمتِ بمهمتكِ على أكمل وجه، كان لكِ الفضل لتسيير حياة الكون بأكمله. كنتِ حارقة، مُجهدة، مؤذية لمن ينظر إليكِ وعند المغيب تصبحين هادئة للغاية، صافية ليس بكِ أشعة تؤذي الناظر إليكِ. لِمَ كل هذه العجرفة إن كانت نهايتكِ بهذا اللُطف؟ ها أنتِ استكنتِ بعد أن أنهيتِ مهمتكِ وقررت المغيب بسلامٍ. دائمًا ما أشعر أن بيني وبين والشمس قاسم مشترك، لا جعل الله نهايتنا متشابهة رغم حدسي الذي يخبرني بذلك.

محظوظة هي الشمس، تقوم بواجبها على أكمل وجه تشرق، تفيد، تضر، حتى عندما تغيب تنير النصف الآخر من الكرة الأرضية لذا لا يجرؤ أحد على نعتها بمعدومة الفائدة.

تُرى كيف يكون شعور المرء إن كان وجوده يُحدث فرقًا ما بهذا الكون البائس؟ له صوت يستطيع من خلاله أن يقول «أنا هنا أترونني؟»

حطت المزعجة على تخيلاتي كغُرابِ البَيْنِ ففرقتني عن أحلام كم وددت أن أحققها عندما تابعت:

– زهوة! الشمس غابت وسالم على وشك المجيء، وأنتِ تتسمرين بمكانكِ. إن رآكِ أحد سيظن بكِ السوء.

إلتفتت إليها مكورة قبضة يدي إلى أن ابيضت مفاصلها، كي لا أقبض على عنقها وأتخلص من إزعاجها لكن أوقفني ما يوقف سالم عنها، جنينها فقلت:

– ليس هناك أسوء من إزعاجكِ لي! سالم، سالم. أنا لا أخافه! إن كنتِ تفعلين فهذه مشكلتكِ، لا شأن لي بها.

راحت تلكم فخذيها برفقٍ وقالت بلهجة أشبه بالعويل:

– يا ويلي! إن جاء ولم يجدنا بانتظاره سيقتلع عينيكِ من مكانهما لكن أنا لن يفعل بي شيئًا فولده بحوزتي.

البلهاء، تحتمي بجنينها من سالم. بالتأكيد سيقتلع عينيها هي الأخرى ما إن تلد! قررت أن أسألها قبل أن نخسر عينينا، عن شيء لم أجربه وعلى الأرجح لم تفعل هي أو أيّ من نساء قريتنا فقلصت المسافة بيننا. كادت مقلتاي أن تغادرا موضعيهما وأنا أحملق بها. همست بفحيحٍ مصطنع بما تفتق إليه ذهني:

– عليا، هل شعرتِ بالإنتشاء بعد أن عبرتِ عن رأيكِ ذات يوم؟

قالت ببلاهتها المعهودة:

– نعم! البارحة أنهيت العمل بالحوايا التي كنت أشتغل بها. كانت تعجبني كثيرًا والجدة صافية أرادتها لمحبوبة لكنني قلت «لا، والله لن يأخذها سوى دليلة! لن يستخدمها أحد سواها هي وزوجها إن شاء الله!»

تراقص كتفاها ولمعت عيناها بفرحةٍ كما لو أنها قالت «لا» لأعتى الرجال في قضية قومية! مالت نحوي أكثر واِسْتَطْرَدَت بهمسٍ:

– هذه أول مرة أقول فيها كلمة لا لفردٍ من أفراد هارون، أتصدقين؟

ابتسمت. يا لطيب قلبها! هل هذا أكثر طموحاتنا في إبداء آراءنا؟ من سيأخذ الحوايا[1] التي تكبدنا عناء صنعها لأشهر؟ قلت:

– إن لم تقولي لا لجور رجل على حقوقكِ فهذا لا يعد تعبيرًا عن الرأي!

ألقيت شرارة قادرة على إيقاد نيران الانتفاضة داخلها، وإن حدث فسنصبح قوة لا يستهان بها. تركتها ورحت أثب على درجات السلم إلى أن وصلت لمنتصفهِ فسمعتها تقول:

– إن قلت لسالم لا، ذات مرة فستربين أطفالي من بعدي يا زهوتي.

عليا ابنة عمي سلطان هارون كبير العائلة وزوجة أخي سالم، أخي غير الشقيق

١ - (الحوايا قطعة من الصوف بمزيج من الألوان المتجانسة الزاهية، تفرش على الأرض. تقوم المرأة البدوية بصنعها، من الممكن أن يمتد العمل به لأشهر)

فأمي هي الزوجة الثانية لأبي بعد وفاة زوجته «ثريا». أنجب سالم ثريا وماجد وينتظر مولوده الثالث، متزوج من عليا منذ ثماني سنوات، أنجبا خلالها ماجد ويبلغ من العمر سبع سنوات، وأخته ثريا التي تصغره بثلاث سنوات.

الغبية عليا تدعو أن يرزقها الله بصبي هذه المرة لتزيد محبتها في قلبه، معتقدة أنها بهذه الطريقة ستمنعه من الزواج مرة أخرى. لا تعلم أنه ما إن يقرر لن يوقفه أحد حتى سيادة النائب سلطان والدها لن يفعل! وإن عارضت ستصبح مطلقة بدون أوراق تثبت زواجها أو طلاقها لذا من المؤكد أن سالم سيفعلها ذات يوم.

عليا صديقتي المقربة، بلهاء تخاف سالم وكأنه وحش سيفترسها إن أغضبته، وفي حضرته تتطلع إليه بهيامٍ وولهٍ وكأنه أوسم رجال الأرض! لم أنعتها بالبله من فراغ فهي تكبرني ببضع سنوات لا أعرف عددها بالتحديد. ربما لو علمت عمري الحقيقي حينها سأعلم الفارق العمري بيننا لذا أُدَوِّن أعمار أبناء سالم وشقيقي الأصغر عليّ وابنة عمي بدور في دفتر ما، أخبئه بين ملابسي عن طريق رسم زهرة بالصوف ولكل منهم لون وورقة مختلفة عن الآخر، وفي نهاية كل صيف أزيد على أعمارهم عامًا برسم زهرة جديدة.

لقد لقي الجميع نفس المصير، طالما لا يوجد عقد زواج للأبوين لن يستخرج لنا شهادة ميلاد. كوني ساقطة قيد أمر سيء للغاية، سيء لدرجة أنني لا أستطيع معرفة عمري الحقيقي. كل ما أعرفه أنني ولدت يوم الخامس من شهر يناير، قبل ستة أو سبعة عشر عامًا في ليلة شديدة البرودة. تزامنت ولادتي مع هبوب عاصفة هوجاء. أغرقت المياه رمال قريتنا فطافت الخيام بما فيها على سطحها، ونفقت مئات الأغنام غرقًا. فخسرنا ثروتنا بين ليلة وضحاها، أي أن مجيئي كان شؤمًا على قريتي وقبيلتنا، ولولا جدتي صافية ما استطاعت أمي النجاة وما حللت على هذه الدنيا ضيفة شريفة.

حكت لي أمي ذلك ذات يوم، باستثناء كلمة «شؤم» التي لا يقوى على جرحي بها سوى سالم. أما الجدة صافية فدومًا ما تقول عني «انتفضت السماء لمجيئكِ وفرشت لكِ الأرض خيرها يا زهوة» ليت الجميع يرونني بعينيكِ يا جدة!

بلغت من العمر مبلغ الزواج فأصبح ممنوعا عليَّ الصعود إلى سطح المنزل أو التحرك بحرية بين منزلنا ومنزل عمي سلطان وعمي خلف رغم ارتدائي الشمبر والحطة[٢]. لو صادف مروري وجود أي من رجال عائلتي وشهد على ذلك سالم أو عمي سلطان ستُكسر قدمي.

نعيش في حوش محاط بسياج من الأعواد الحديدية والأسلاك الشائكة واسع يضم منزلين، منزل أعيش فيه أنا وأخوتي وأمي وجدتي صافية، والمنزل الآخر يتشاركه عمي سلطان مع عمي خلف.

أعلم جيدًا أن عليا محقة، إن علم سالم بصعودي لأعلى المنزل كل مساء سيظن بي السوء أو أنني أواعد أحدهم« وكأنني لا أفعل!» ابتسمت وأنا أتلفت من حولي كالسارقة، متجهة إلى الِمْحَرَمّ[٣] مجلس الجدة صافية. أدعو ربي ألا ينكشف أمري من قِبله وإلا صرت في خبر كان، قبل أن أعرف لِمَ تغيب الشمس بسكينة وسلام.

– جدة صافية، أين أنتِ؟

ناديت وأنا أسير نحو المجلس فلم تجب فاتجهت إلى تلك الغرفة كبيرة الحجم، كبيرة لتسع جلسات السمر الخاصة بنساء عائلتنا، وسيلة الترفيه الوحيدة المتاحة لنا، والتي تستغلها الجدة لتعلمنا الأشغال اليدوية الخاصة بتراثنا البدوي.

عندما لمحتها تجلس في صدر المجلس بين تاريخ أجدادي (بعض الصور الخاصة بمعركة وادي ماجد) وعلى ثغرها أجمل ابتسامة في الكون، ابتسامة لا تليق إلا بثغر صافية البدوية التي تحاول استراق السمع لتسمع ما أتممتم به، قلت قاصدة مشاكستها كعادتي وأنا أتمايل بجسدي:

– صافية لا تكف عن التغزل بوسامة جدي حمد بالصور، وتمنع عنا فتح النافذة حتى لا يغضب عزوتها وخيرة رجال البادية!

وصلت إلى تلك الرقعة المسماة بالمربوعة بمجلسنا فافترشت الأرض بجانبها. تركت

٢– غطاء للرأس خاص بالمرأة البدوية

٣ – مجلس النساء

لها عدة قبلات على جبينها ووجنتيها فقالت:

– عزوتنا نسل جدكِ هارون وخيرة رجال البادية، هل لديكِ اعتراض يا ابنة منصور؟

أخرجت لها ذلك الذي لا لجام عليه، أخرجه متى ابتغيت إفقاد من أمامي صبره وقلت وأنا ابتعد عنها قليلًا:

– إلا بدر!

(٣)

لكل منا نصيب من اسمه وأنا كاسمي أبية، لا أقبل أن يُجار عليَّ أو أُهان. ليس هناك لجام على لساني، متهورة على حدِ قول الجدة. أقول ما يجول بخاطري ولا أخشى لومة لائم. أفعل ما يستهويني، ولأنهم لن يسمحوا لي بذلك أفعل كل شيء خِلسة.

شيدت عالمي الخاص ولا أُطلع عليه أحدًا! شمسي، عشقي وحبي للبحر، وحلمي الذي يكبر داخلي يومًا بعد يوم، دخولي مياهه لتحملني إلى بلاد وعوالم لم تطئها قدمي بعد، وهل تعرف قدمي أرضًا سوى أرض منزلي؟ يا له من أمرٍ غريبٍ! هل إن قلت إنني لم أدخل مياه البحر من قبل وأنا من ساكني أم الرخم سيصدقني أحد؟

الجدة صافية أيضًا تحمل من اسمها الكثير، قلبها صافٍ روحها نقية. حكيمة ولديها الكثير، تحاول أن تُطلعنا عليه لذا تعقد أمسياتها النسائية الخاصة بنساء العائلة بالإضافة إلى عمتي سليمة وابنتها هلالة.

في صغري كنت أتساءل لِمَ يسمح جدي عثمان لهما بالمجيء إلى منزلنا متى أرادتا ذلك، رغم رفض أخي سالم خروجي أنا وأمي من المنزل؟ حتى أنه يسمح للأطفال بالذهاب إلى المدرسة التي تبعد عن زاوية أم الرخم عشرات الكيلو مترات! لكن بعد أن كبرت فهمت. جدي عثمان مختلف، يُقْدِمُ على فعل أشياء لم يتجرأ على فعلها غيره ويرفضها الجميع، أهمها أنه سمح لحفيداته بالتعلم حتى وإن كان عن طريق شيخ من شيوخ المسجد. إنه يحاول صنع طفرة جديدة في مجتمعنا.

أمسيات الجدة صافية تزيح ثقل الأيام عن قلوبنا المتعطشة للإحساس بوجودنا على هذه الأرض، كالمثلجات التي يحضرها دواس ابن عمي سلطان في نهار أغسطس حين تقف الأرض عاجزة أمام بطش حرارة الشمس الحارقة. مهمة جدًا نستعد لها كالأعياد، تحاول كل فتاة إنهاء القطع الصوفية التي تقوم بتطريزها حتى تعرضها على الجدة تحت ترقب أنظار البقية لتحصل على تَقْريظها على يدها التي تلف في

حرير، على حد قولها.

وها أنا ذا، أستعد للذهاب بصحبة عليا وثريا وأمي، مكتوبة هارون زوجة شيخ العرب منصور الحمد هارون. من تقول سمعًا وطاعة للجدة دون أن تعلم على ماذا أبدت موافقتها. جميلة لا يليق بها أن تكون أما لفتاة في السابعة عشر من عمرها. تملك من العمر خمس وثلاثون عامًا على الأكثر، أنا أكيدة من ذلك. آه لو تتخلى عن ملابس الحداد التي تتشح بها منذ سنوات، لأزهرت وجنتاها من جديد!

***

ساد الصمت المكان وتابعت الأعين بشغفٍ ردود أفعال الجدة وهي تتفحص ما قمنا بصنعه في الأيام الماضية. ضمت عليا حوايتها بين يديها كالكنز الثمين فبفضل تلك الحوايا قالت «لا» لأول مرة في حياتها.

كنت أعلم ما سيدور في جلستنا بعد قليل. ستعطيها للجدة وتقول بودٍ كعادتها مع عليا «جميلة كقلبكِ يا ابنة خلف» ثم ستستردها عليا مسرعة وتغتنم الفرصة حتى لا تضمها الجدة إلى حاجيات محبوبة ابنة عمي خلف وخطيبة دواس شقيق عليا.

تجلس محبوبة بترقبٍ، تنتظر جمع الغنيمة بسعادةٍ. دليلة تقف وبين يديها عدة مفارش صوفية وعددًا من قطع المحزم[٤]، وكأنها قامت باختراع لم يسبقها أحد بفعله! ستفوز بهذا السباق ما إن تقدم ما صنعته هدية لمحبوبةٍ. بدور وثريا تصنعان الكور الصوفية وتقذفانها علينا.

أما هلالة فتجلس بعزة نفس، ترتكز بمرفقها على طرف المربوعة واضعة كفها أسفل ذقنها، تتابع الجدة صافية بإعجابٍ. ابتسامتها تشي بثقتها التي لم أرَ لها مثيلًا في فتاة بمثل عمرها. بؤبؤا عينيها ثابتان لا يتحركان بلا هوادة من فرط التوتر

٤- «حزام منسوج من الصوف، مطرز بمزيج من الألوان الزاهية، بعرض ٢٥ سنتيمترًا يلف على خصر المرأة ويستخدم كمحفظة للنقود والأدوات الصغيرة المستعملة وغيرها»

كما هو الحال معنا. تشبه عمتي سليمة في ملامحها، ومؤخرًا في طباعها أو العمة هي التي باتت تشبهها في الآونة الأخيرة.

عمتي لم تكن هكذا من قبل! بتنا نلاحظ إضافة جديدة في شخصيتها في كل مرة نراها بها. ابتسامتها زاهرة خالية من شوائب القمع، تتسم بفصاحة اللسان ورجاحة العقل. هلالة وعمتي سليمة تنظران إلى أعيننا أثناء حديثهما لأنهما معتادتان على المواجهة، والشيء الذي أدهشنا أن جدي عثمان قام بتعليمها القراءة والكتابة بنفسه حتى أنها بدأت بحفظ القرآن مع ابنتها هلالة. مَنْ مِن رجال قبيلتنا يفعل هذا مع ابنته حتى يفعله الجد مع زوجة ابنه؟

لاحظت نظرات الدهشة في أعينهن. لم يكن بيدي ما أحمله لكنني أرتديت ما يبهرهن فكما قالت الجدة، أنا حفيدتها التي تجلب المصائب على رأسها دون تكلف أو عناء فكل ما أفعله يثير حنق من حولي، وإن كنت أريد الحصول على إعجاب وإطراء الجدة لابد وأن أكون مختلفة وأسرق انتباههن بطريقة عرض جديدة عليهن، هذا ما فكرت به وقتها فوقفت بينهن بكامل تأنقي.

مدت الجدة يدها لي وهي تحاول إخفاء ضحكتها. أطاعها ثغرها لكن عينيها لم تفعلا! لم أحاول إخفاء تعبيرات وجهي فضحكت بكل جوارحي، عينيّ وثغري، قلبي وروحي.

التفتت نحو محبوبة وأخرجت لها لساني، عادة قذرة كما تقول الجدة لكن لا أستطيع التخلي عنها! كبرت وكبرت معي بعض العادات التي تثير حنقها. كانت مصنوعاتي عبارة عن جمْجمة[٥] سوداء يعلو صدرها بعض النقوش المزركشة بالألوان الزاهية، كالموجودة في طرفي الكمّين ونهاية طرفها من الأسفل، يحمل المحزم نفس النقوشات والألوان.

تتباهي الجدة بجمالي قائلة «جسد زهوة عظيم كاسمها، نقية اللون والثغر، بيضاء وطفاء قمراء، أسيلة الخد جثيلة الشعر، عريضة الصدر، حسنة المعصم لطيفة الكف سبطة البنان، خميصة الخصر، عظيمة الركبة مفعمة الساق، مشبعة الخلخال

٥- جلباب

لطيفة الكعب والقدم، بضة المتجرد.

رفعت الكريشة[٦] عن جسدي ودرت حول نفسي عدة مرات وأنا أتذكر وصفها الذي لا تتوانى عن ذكره متى بدأت بمدحي. تطايرت خصلات شعري السوداء المجعدة وهذه المفاجأة التالية لهن، لقد قضيت الليلة الماضية وأنا أصنع الجدائل الصغيرة من شعري المبلل حتى يصبح مجعدًا في الصباح. جلبابي الأسود وألوانه المزركشة مع لون شعري، خلقا فارقًا شاسعًا مع جسدي البضّ، فارقًا يلفت الأنظار وهذا هو المطلوب، أن ألفت أنظارهن، أن أقول أنا هنا أترونني؟ وكأن مشكلتي الوحيدة أنني لا أُرى، شفافة كالهواء!

رفعت الجلباب قليلًا ليظهر خلخالي الذي ازداد جمالًا عندما أضفت إليه بعض الخرزات الفيروزية، وتعمدت أن أحرك قدمي حتى يصدر عنه صوته المحبب إلى قلبي.

قالت جدتي من قبل أن بدر ينزعج عندما أمر بالقرب من منزلهم

ويسمع صوت خلخالي، وقال إن رنة خلخالي تلفت النظر، لذا قررت أن تسبقني رنة خلخالي في الدلوف إلى أي مكان.

تنهدت بسعادةٍ واضحة وإرهاق مفتعل وقلت:

– أردت أن أجرب ما صنعته، إن لم يكن لائقًا لا تأخذه محبوبة، وإلا يراها دواس قبيحة ويحيد عنها.

جذبتني محبوبة من مرفقي فسقطت جالسة بجانبها وقالت وهي تخرج لسانها لي:

– لا! سآخذهم خاصة هذا الخلخال.

ألقت الجدة محرمة كانت بيدها بوجهها وقالت محذرة:

– لا تخرجي لسانكِ مرة أخرى!

٦- الكريشة شال تضعه المرأة البدوية على الجلباب فيغطي سائر الجسد

تقوست شفتا محبوبة وعاتبتها مستغلة فعلتي الشَنْعاء على حد قولهن:

– لكن زهوة تفعل!

– زهوة لن تكبر! ستبقى طفلة طوال عمرها ولن تصغى لي لذا لن أجهد نفسي معها.

محقة هي الجدة في هذا الأمر، لا أريد أن أكبر! لا أريد أن أعيش أشياء جديدة! لا أريد أن أصبح زوجة لرجل ألصقتني به العادات كما لو كُنت عَلَقة لا يمكن الخلاص منها! ماذا إن كنت أرفض زواجي منه؟ ماذا إن كان قلبه ينبض باسم أخرى؟ لا أريد أن أكون أمًا لطفلة لن تعرف كم عمرها! حتى اسمها لن تنال سعادة كتابته للمرة الأولى. لن أكون أمًا لطفلة ليس لها صوت! لا أريد أن أكون زوجة لرجل سيتزوج أخرى عاجلًا أم أجلًا! بدر لن يفعل، تقول الجدة ذلك، «رجل كبدرٍ لن يجلب لكِ عروسًا جديدة، بدر سيجعلكِ عروسًا طوال عمركِ» لكن رغم كل ما سبق لا أريد أن يتقدم بي العمر! لا يليق بي سوى أن أكون طفلة. لم أرَّ نفسي عجوزًا في مخيلتي من قبل ولم أتطلع لذلك!

قالت الجدة وهي ترمق محبوبة بسعادةٍ، فأدركت أنها ستزف علينا الخبر السعيد:

– أصبح جهازكِ كاملًا. جاء عمكِ سلطان ووالدكِ واتفقا على موعد الزفاف، سيكون بعد عشرة أيام. فلنستعد فالوقت يداهمنا!

خجلت العروس وأطرقت لكن لم تستطع إخفاء سعادتها. قالت العمة نعمة زوجة عمي خلف ووالدة محبوبة:

– إذًا أمامنا الكثير لنفعله!

أصبح الارتباك جَلِيّاً على وجه العمة بريكة زوجة عمي سلطان الأولى، فزوجته الثانية تدعى جميلة. يقولون جميلة كاسمها، تقطن البندر. سلبت لبه فور رؤيته لها. رفضت العيش بيننا. كانت تعيش في الوادي وقالت لا أقوى على حياة البدو، فنفذ لها عمي رغبتها وهذه المرة الأولى التي يفعلها مع امرأة.

ترقرقت عينا العمة بريكة بالعبرات، وراحت تفرك كفيّ يديها ببعضهما البعض؛ تحاول إخفاء رجفتهما، وكانت هذه النقطة السوداء التي عكرت صفو الأمسية. عبراتها جعلت محبوبة ترتبك وتتذكر خطأها أما أنا فذكرتني بحقارة الدنيا. طالما المرء موجود سيقتلع منها ما يريد أما إن ذهب عنها فيذهب ما له لغيره.

انهالت عبرات عمتي نعمة هي الأخرى دون توقف وتبدل حالها، وكيف لا تفعل والجرح نفسه؟

لاحظت الجدة حالتنا فصفقت بيديها وقالت بلهجةٍ محذرة:

– نحن في أيام عُرس، أعراسنا لا تُقام بالبكاء! ما حدث قد حدث، وليبارك ربي بالبقية. إن لم تنسيا الماضي سيكون لي حديث آخر مع رجُلَيكما.

قوية هي الجدة! قوية رغم أنها اغْتَمَّت مثلنا. لطالما بكت خفية في لياليا السوداء. كنت أسمعها وأشاركها البكاء دون أن تعلم، والآن تمنعه عنا، حتى البكاء حُرمنا منه! وجهت حديثها إلى العمة سليمة في إشارة منها لإنهاء هذا الحديث ورفضها التفكير فيما مضى:

– سليمة، أحتاج مساعدتكِ أنتِ وهلالة هذه الأيام. خذي الإذن من الشيخ عثمان، وإن وافق سأرسل دواس ليحضركما.

أومأت العمة مرات متتالية فتابعت الجدة:

– كما أنني سأبدأ بسردِ حكاية وادي ماجد منذ ليلة الغد. سأنقلها لكُنّ كما فعلت أمي.

غادرن الِمْحَرَمْ في صمتٍ مهيب، كلٌّ منهن مشغولة بِهمّها. عبرات العمة بريكة وشهقات العمة نعمة المكلومة كانت بمثابة إنذار لنا ألا نجهر بفرحتنا، فهناك أم ترى فتاة كانت تحسبها طوال عمرها زوجة لابنها تزف لشقيقه. هذا الذنب يحمله أخي وعمي.

تُرى هل يسمعان حسيسهما؟ متى سيسمع أخي بكاءهما؟ متى سيدرك أنه كان سببًا في إشعال نيران لن تنطفئ في قلوب أمهات لا صوت لهن، يشاهدن الحياة تسير وكأن شيئًا لم يحدث؟! وهل توقف الكون عن الدوران عند موت أحدهم؟

كان وقت المغيب قد حل وصديقتي استدعتني فشئت أن أتخلص من غبار تلك الجلسة، ولن يستطيع فعل ذلك سوى الشمس والبحر وهواء أم الرخم. دارت بذهني أسئلة فسعيت أن أحصل على إجاباتها. أين صوت عمتي بريكة؟ لِمَ لا تصرخ عمتي نعمة؟ أجيبيني يا شمس! لمَ لم يعتذر العم سلطان عما فعل؟ لِمَ لا تُخفي محبوبة سعادتها؟ هل سفيان يُنسى؟ إن لم تجبني الشمس سأذهب إلى محبوبة، أسألها كيف تفعل هذا بالعمة بريكة؟ سأسألها عن شعورها وهي تزف إلى دواس، وهل انتهوا رجال الأرض ولم يبق سواه؟ وإن لم تجب سأصفعها! وتكون هذه هدية أم سفيان لزواجها التي لن تستطع إعطاءها إياها.

الشمس على يساري، مياه البحر بألوانها المتدرجة التي تصطدم بالرمال وكأنها تقف أمامها كي لا تجرف قريتنا وتذهب بها إلى البعيد، وليتها تفعل! فلهذه المياه ذكرى دميمة في خاطري، أعشقها وكأنها لم تبتلع فرحتنا!

على ذكر الفرحة، تطلعت إلى السماء فوجدتني أهمس»سفيان، هل يحزنكَ ما يحدث؟ هل تغار؟ هل قتلتكَ عادتنا للمرة الثانية؟ هل أزالت عبرات أمكَ؟ هل ستعيدكَ لتصفع دواس على خيانته لكَ أم أنكَ ذهبت من أجل من لا يكترث لكَ؟

قطع تساؤلاتي صوت خفيض يرتجف، مغلف بالشهقات. التفتت إليه فور أن عرفت صاحبته:

– دواس لم يقم بخيانته!

قلتُ لمحبوبة بردة فعل هجومية على إنكارها ما فعلاه بحق سفيان:
– تزوجكِ، أليست هذه خيانة؟!

– لا، ليست خيانة! أنا لم أكن يومًا لسفيان! لم يقم باختياري زوجة له كما لم يفعل شقيقه دواس كما لم يختر سالم عليا. حتى بدر لم يشر إليكِ قائلًا هذه زوجتي! كأعمامي وجدي، كوالدكِ، كبقية رجال العائلة. إنها زيجات فُرضت علينا ونحن رضخنا. لا مجال للرفض يا ابنة العم! سفيان لم يكن زوجي أو خطيبي، فقط وقع الدور علينا لنكمل مخططًا يضع كل شيء في الحسبان سوى شيء واحد، هل هناك قبول أم لا؟ وعند غياب أحد الطرفين يحل مكانه من يحتل الدور الذي يليه. صدقيني يا زهوة، لو كنتِ مكاني لِما تساءلتِ كل هذه التساؤلات الظالمة.

قلصت المسافة بيننا بينما ما زالت تتمسك بجمودها وتابعت:

– أخبريني، هل لديكِ الجرأة لقول لا؟ طلب بدر يدكِ بات قريبًا للغاية، الدور عليكما يا ابنة العم. هيا، لننتظر ونراكِ كيف ستقولين لا بأعلى صوت عندكِ! قالت وركضت نحو الدرج فذهبت من خلفها، جذبتها من ذراعها فالتفتت نحوي، وهنا لاحظت عبراتها التي انصبت على وجنتيها بغزارةٍ فقلت:

– جميعنا ضحايا لتفكير ما عاد يواكب عصرنا، وما باليد حيلة! فقط أشعر أن العمة بريكة لم تتخط موت سفيان بعد. افهميني! زواجكِ من دواس أصبح كالملح على الجرح.

عاتبتني بنظرات لو كانت تتحدث لقالت «لا تقتلي البريء وتتركي المذنب حرّا طليقًا» ثم أفصحت عما يدور بخاطرها:

– كلنا تحت رهن رغبة أبي وعمي سلطان، قررا ذلك ويتوجب علينا التنفيذ لكن ليس لقبولي بدواس علاقة بالأمر (أشارت إلى خافقها وتابعت) وهذا قَبِل به وانتهى الأمر!

فصرخت بها وأنا أشير إلى خافقي:

– وهذا لم يتقبل بدر، ولم ينسَ سفيان! ما العمل بهذه العلة؟

(٤)

– عليا، أراكِ شاردة منذ الصباح، هل أنتِ بخير؟

قُلت أطمئن عليها وأنا أربت على كتفها بحبورٍ، هناك شعور في داخلي يحثني دومًا أن أكون حامي الحمى الخاص بها. عليا كتومة، لا تظهر مشاعرها لمن حولها حتى في أشد أيامها قسوة، تماسكت من أجل سالم. لم أعد أفهمها! هل تخشاه أم تعشقه؟ أجابتني وهي تدير وجهها نحوي مبتسمة:

– بخير يا زهوتي، لا تقلقي! فقط داهمنا الوقت. تحضيرات العُرس لا تنتهي واحتياجات سالم وأبنائه أيضًا.

عقبت غافلة عن قصد كونه شقيقي الأكبر:

– تقصدين أوامره.

تنهدت بحسرةٍ لم تستطع إخفاؤها، حسرة أدركت منها أن النيران التي تندلع داخلها سيتصاعد لهيبها بين الفينة والأخرى، ويجب أن نستعد لها جيدًا. نيران عليا ستحرق الأخضر واليابس حتى أنها أول المحترقين.

أنا وعليا نمكث في غرفة تحضير الطعام معظم ساعات النهار، وفي المساء نتسامر إلى أن يعود سالم، أي أنني أفضل من يعرفها! أفصحت عما تكنه لقدرها بقلبها:

– أوامر أم طلبات، هي واجبات لابد وأن أقوم بها فكما يقولون، لتكوني زوجة صالحة لابد وأن تكوني قطيعة اللسان!

قلت أحاول أن أسْتَشَف ما بها وأمتص غضبها:

– ما تفعلينه من أجل سالم لم يزعجكِ يومًا! أي شيء له علاقة بسالم لم يكن ثقيلًا على قلبكِ! ما الجديد الذي طرأ عليكِ وأظلم عينيكِ، وبُهتت روحكِ بفضلِهِ؟

تصنعت بالانشغالِ بإعدادِ الطعام وأجابت:

– لا شيء يا زهوة. قلبي يؤلمني وأشعر أن الأيام المقبلة لا تحمل الخير البَتَّة.

لم أستسلم، هذه الصفة ليست من شيمي! المرأة البدوية صبورة لا تعود عن طريق سلكتها، وأنا أعلم وجهتي جيدًا لذا لن أهنأ أو يرتاح بالي إلا عندما أطمئن على ابنة عمي فقلت:

– هل لزواج شقيقكِ دواس علاقة بالأمر؟

– هذا ما أقوله منذ الصباح، أين عقلكِ يا فتاة؟

قالت بضجرٍ تحاول مراوغتي، فرفعت حاجبيَّ مستنكرة أسلوبها المستجد فقلت:

– وهل كون محبوبة هي العروس، وسفيان ليس العريس علاقة بالأمر؟

شقت طريقها خارج المحرم وقالت:

– لا، ليس صحيح! لا تختلقي أمورًا ليس لها وجود.

الخوف كالنبت الشيطاني، ينبت على هواه ومتى أراد. لا ينتهي نسله أبدًا ولا نعلم أين ومتى سيترعرع، والخوف تمكن من عليا. ينبت في كل مقام ومكان تتواجد فيه، يلازمها كظلها، وها هي تصر على الإنكار وأنا أصر على العناد فقلت بتحدٍ وأنا أقف قبالتها لأمنعها من المرور:

– هل لهذا رفضتِ إعطاء محبوبة حوايتكِ؟

حملقت بي بصدمةٍ بعد أن كشفت عن نواياها الدفينة تجاه من ستكون زوجة لأخيها، فتابعت:

– هل كان من الصعب عليكِ أن تشهد حوايتكِ على عشق دواس ومحبوبة؟ هل شعرتِ أن ما يفعلانه خيانة لسفيان؟

انقشع غلاف الجمود والانكار الذي كانت تتحلى به وظلت تحدق بي. صرخت نظراتها فتوسلت إليها بنظراتي ألا تفعل. قالت الكثير! قالت ما عجز لسانها على نطقه، قالت « ما يحدث فوق قدرة تحملي! أرى نظرات الخذلان في عينيّ سفيان في كل مكان»، قالت «أشتاق إلى أخي».

وأخيرًا تملكتها الشجاعة، ونطق لسانها الذي تعلم الصراخ بفضلي:

– أياديهم ملوثة بدماء أخي. كل رجل في هذا المنزل ساهم بقتله. زهوة، نحن نعد الطعام لقاتلي إخوتنا. دواس كان يعلم أن محبوبة لسفيان لكنه استغل فرصة غيابه.

وارت شفتيها المرتجفتين اللتين أفرجتا عما حاولت دفنه في قلبها خلف كفيّ يديها. يبدو أنها حاولت منعهما لكن كلماتها المحتقنة بدماء الأحبة بدت كما الطوفان، لا يمكن الوقوف أمامه وتابعت:

– أتدركين مدى القهر الذي أشعر به؟ أنا أتحامل على جسدي وصحتي وكرامتي من أجل قاتل أخي.

سلطت عليا نظراتها فجأة على نقطة ما خلفي حين فرغت من حديثها. كاد بؤبؤها يغادر موضعه، فازدردت لعابي مستشعرة الخطر الذي سيداهمنا بعد برهة. شعرت بأحدهم يقبض على خصلات شعري من فوق الحجاب بغتةٍ فصرخت. حاولت عليا التحدث لكن خانتها شفتاها!

لم ألتفت لأعرف من هو مقتحم خلوتنا. لا تموت رعبًا هكذا إلا من نظرات سالم! عليا ستصبح ضحية لغضب جامح أما أنا ستدافع عني أمي. سأنال قسطًا وفيرًا من التوبيخ وكوني شؤمًا أملأ عقل زوجة أخي بالتراهات، هذا ما جال في عقلي وأصابع هذا الدخيل تقبض على حجابي.

***

– الخطأ ليس خطأ عليا! أنا وأنتِ نعلم أن الحق على من تفتح الأبواب المغلقة أمامها.

قالت جدتي فأدركت عدم جدوى وضع المياه في جرةٍ مثقوبة. لمدة ساعة كاملة أجلس أسفل قدميها، أحاول إقناعها بقبح ذنب سالم لكن الفكرة التي بثها إليها مترسخة في عقلها، فقلت محاولة لفت نظرها الى ذلك القلب المنفطر الذي يغفل عن عبراته الجميع:

– أو كما قال حفيدكِ، الحق على الأفعى الشؤم التي بثّت سمها في أذن عليا.

منذ الأزل، يسير الكون بمساره المعتاد دون تدخل من جنس البشر. لم نسمع يومًا أن الصيف لم يعجبه حاله فعقد اتفاقًا مع الشتاء ليحل مكانه بين فصول السنة، أو حتى الشمس والقمر، هل أعطى أحدهما مكانه للآخر؟ لا، لم يحدث! إذَا لِمَ يحملونني ذنب طقس ليلة سيء كان من حظي الأسوأ أنني ولدت فيها؟ لِمَ يحملونني ذنب أخطائهم؟

ما قالته عليا كان السبب فيه سالم، ومن أجل كل ذلك كان لِزَامًا عليَّ أن أنوه لجدتي عن الظلم الذي أتعرض له، ويبدو أنها أدركت ما يرنو إليه حديثي فقالت:

– لنتدارك كلمة شؤم هذه. تعلمين جيدًا أنني سأقطع لسان من يتفوه بها في حضرتي أما عمّا قالته عليا فأنتِ من لقنتها إياه وظلت ترددده كالبلهاء إلى أن دفعت ثمنه.

اعتلت الصدمة مُحياي وقلت وأنا أضع يدي على صدري مستنكرة حديث الجدة، هل لسان عليا ينطق وزهوة من تعاقب؟

– هل سأدفع ثمن ما قالته عليا؟

– كما ستدفعين ثمن ما تفكرين به تجاه محبوبة.

جمعت عبرات الظلم والحسرة في مقلتيّ وقلت معاتبة ولست مستفهمة:

– وبماذا أفكر يا جدة صافية؟

نظرت لي لبرهة تتحداني، وكأنها تقول «أنا أحفظكِ عن ظهر قلب فلا داعي

للمراوغة»

وقالت:

– ألا تلومينها على زواجها؟ ألا تبغضين على دواس لزواجه منها؟

طفح الكيل وضاق الصدر بما لا يحتمل. لا هم يدركون أخطاءهم ولن يفعلوا، ولا أنا سأكف عن رفض ما لا يروق لي، ولا الجدة ستقتنع أن أفكاري ليس لها علاقة باحترامي لرجال عائلتي. أنا أضعهم نصب عينيّ في كل خطوة أخطوها لكني أستنكر ما يقترفونه بحقنا فقلت بعد تأهبي للرحيل:

– لا ألوم محبوبة. ليس على القلب سلطان! ولا ألوم دواس فهي جميلة وأي رجل في مكانه كان سيتزوجها، وهل تُرفض النعمة؟ اللوم على الذي عاند وأدخل أبناء عمومة في حربٍ كان يعلم كل العلم أنه سيخرج منها بفقيد واحد على الأقل. هل أخبركِ أمرًا يا جدة؟ اللوم كل اللوم على التي تبكي سرًا ويعج صدرها بالمرارة ويندد قلبها بما يؤرق مضجعي، وتمنع عنا الإفصاح عن مشاعرنا وفرض حدادنا على اخوتنا.

الجدة لم تفعلها يومًا لكن فعلتها فور تلفظي بتلك الحماقة فسددت لي لطمة على وجهي أدت إلى اندلاع حرب نظرات أبية شامخة، لا تقبل الإهانة والخطأ بحق من هم أكبر منها.

شرارة من عيني بدوية تضع احترام قرارات مجلس العائلة فوق أي شيء وكل شيء. بدوية تربت على الشموخ فلم ترضخ ولم تذل يومًا، لذا قلت وأنا أقف قبالتها وكأن شيء لم يحدث ويداي ممدودتان على طولهما، ونظراتي تجابه نظراتها ولم أسمح لعبراتي بخيانتي أو لتعبيرات وجهي بأن تعبر عما أشعر به:

– تذكري هذه اللطمة يا جدة! تذكريها جيدًا لأنني لن أنساها، وشرارتها ستحرق ما تبقى من أمل في داخلي إن لم يعدل كل ظالم عن ظلمه!

وقبل أن تتفوه بحرفٍ كنت قد غادرت هاربة إلى المكان الذي أستطيع التنفس فيه،

سطح المنزل. اللطمة التي تلقيتها من الجدة كانت كتلك التي تلقتها عليا من سالم عند سماعه حديثنا، ما عادت الحياة بعدها كما كانت!

– لا تعطيهم الفرصة لسرقة آخر شيء على قيد الحياة في داخلكِ! لا تجعليهم يسلبون الأمل الذي ينير عتمة الواقع! أنتِ لستِ السبب، إنها أفكار عليا ومعتقداتها ولسانها هو من تفوه بها وليس لكِ ناقة ولا جمل بالأمر! هذا ما رددته لمرات متتالية.

غابت صديقتي ويبدو أنها تخلت عني. قمري ليس موجودًا، والعتمة تسود الأجواء كعتمة حظي ونظرتهم التي ينظرون بها لي. من سيزيل عبراتي؟ من سيجبر تلك الكسور التي تصدعت على إثرها روحي؟

أنا كموجة بحر تكمن أحلامها في الوصول إلى تلك الرقعة الرملية الممتدة على نهاية الشاطئ، وبينما تهلل بسعادةٍ لأنها ستحصل على مرادها هذه الليلة، يخطف الجزر فرحتها ويذهب بها إلى حيث أتت، فلم يعد لها سبيل سوى تكرار المحاولة البائسة أو عدم التطلع للرقعة وبناء أحلام مستحيلة التحقيق.

– أقامت الحرب، ووقفت بعيدًا عن غبارها، يا للعجب!

لم أتعجب فهذا ليس غريبًا على ابنة عمي، ابنة الشيخ خلف بحق. إنها دليلة شقيقة عليا الصغرى لكنها لا تشبهها! تُقدر العائلة ورجالها وقوانينهم. كان يجب أن تكون شقيقة سالم! طباعها كطباعه ولسانها حاد كلسانه، كلمتها كالخنجر تمزق نياط القلب. ترى الأمور من منظوره أو منظروهم جميعًا، العائلة فوق كل شيء، فوقنا نحن حتى لكن إن كانت كسالم فأنا زهوة، طعنتها بنفس الخنجر دون أن ألتفت وسكبت نيران صدري على جرحها فقلت دون أن ألتفت إليها:

– أقامت الحرب وفازت بها، وتقف في الأعلى تتابع خصمها يجر أذيال الخيبة ويرحل.

وقفت بمحاذاتي مستندة على طرف السور بمرفقيها، تسلط أنظارها على أمواج

البحر المتلاطمة وقالت متمسكة بجمودها:

– صعدت الى السطح تستمع لحسيس ضحيتها!

أصابت دليلة الهدف مجددًا. هذه الضربة تسمى بالقاضية. مهما أنكرت فأنا من ضغطت على عليا لتتحدث. إنها كلماتها ومعتقداتها الدفينة لكنني السبب في التفوه بها. كانت تُخفي غضبها داخلها وأنا من جعلتها تتحدث، لذا هي ضحيتي بشكل أو بآخر.

ما أفعله مع عليا ليس إلا محاولة مني لأقول لها «أنا هنا! يداي ممدودتان لكِ، عارضة عناقًا صادقًا متى أغلقت الدنيا أبوابها بوجهكِ». حبي لها لا يحتاج مزايدةٍ، أضعها في عينيّ هي وأبنائها. ليس لأنهم أبناء أخي ولكن كونهم أبناء عليا فهم قطعة من روحي. أحيانًا يحصل المرء على أشياء لا يستحقها، وأنا وعليا لم نستحق اللطم على الوجه لكن دليلة تستحقه وبجدارة كي تعود إلى رشدها. نحن نرفض الظلم لكن نتمنى كل الخير لسالم وعمي سلطان، فقلت:

– كلنا ضحايا يا دليلة. صغر سنكِ لم يضعكِ بفوهة المدفع بعد لذا لا تقتلكِ مرارة الظلم. لم يجبركِ أحدهم على أشياء لا تروق لكِ، حتى أنكِ لا تقدرين ما تعانيه العمة بريكة أو نيران عليا بعد! أفيقي يا دليلة! أمكِ تبكي دمًا. كانت تريد محبوبة كعروس لكن لسفيان وليس لدواس، وعليا قالت ما قالته عتابًا منها لسالم. أنا فقط سألتها عما يضايقها. ألم تسألي نفسكِ لِمَ رفضت إعطاء محبوبة الحوايا؟ وما سبب انقطاع شهيتها الأيام الماضية؟ عليا تشتاق لأخيها ولن تستطيع أن تفرح لزفاف الآخر! افهمي يا دليلة! لقد سُلبت منها فرحتها بشقيقيها، ليس لي شأن بالأمر! هل إن جفت مياه البحر ستقولون إنها من فعل زهوة؟ تأهبت للهجوم، رأيت هذا في عينيها وأدركت أن القادم أسوأ.

– وما ذنب سالم؟ هل كنا سنترك لهم أرض أجدادنا؟

اقتربت بوجهي منها وقلت:

– لا! ندفع بخيرة رجال العائلة فتبتلعهما المياه وتتلون بالدماء ثم تلقي بهما خارجها. اغربي عن وجهي يا دليلة! لست في حالة تسمح بمجادلتكِ! أي منهما شقيقكِ يا فتاة سفيان أم سالم؟ أمرك عجيب يا ابنة العمّ.

– السؤال لكِ يا زهوة. من منهما شقيقكِ، سفيان أم سالم؟

– الاثنان! تربيت معهما وليس أحد منهما أغلى من الآخر! كل ما في الأمر أنني يحزنني رحيل سفيان، ويمزقني غياب رائف.

كانت ستتحدث لكن قاطعتها وأنا أشير إلى وجنتي وقلت:

– إن أحزنكِ تلقي عليا الضرب من سالم، فها هو القدر ينتقم لها، والجدة لم تقصر! لا بد أن أصابعها تركت أثرها على وجهي! مع العلم أن لطمة الجدة أقسى ومؤلمة أكثر.

سكتت ابتلع مرارة الخذلان ثم أضفت بصوت أجش:

– هذه مرتي الأولى في تلقي الضرب منها لكن عليا معتادة على الإهانة من سالم. ليست الأولى يا دليلة! إن كان سالم محقًا بنظركِ فهو الملاك ونحن الشياطين. المكان لكِ، تابعي غبار الحرب من الأعلى على راحتكِ، تركته لكِ!

***

ركضت إلى الأسفل تاركة هيئة الدفاع الخاصة بأخي في الأعلى. لا تعنيني دليلة أو آرائها! يكفي أن أطمئن على عليا. كنت حذرة جدًا فبينما آثار أصابع الجدة ما زالت على وجهي، لن أتواجه معها لذا تجنبت المرور من جانب المحرم، وتوجهت مباشرة إلى غرفة عليا. طرقت عدة طرقات حذرة على الباب، فجاءني صوت أمي آمرة بالدخول.

دلفت إلى الغرفة على استحياء. شيء في داخلي يتحمل ذنب ما فعله سالم، ويأمر عينيّ بألا تتلاقى مع عينيها. يبدو أن أمي شعرت بما يعتمل في صدري فقالت:

– اقتربي يا زهوة! هل يجلس ذئب على الفراش؟ إنها عليا البلهاء. أقصى ما يمكنها فعله، أن تغرز إبرتها في عينيكِ وتقتلع شعركِ من رأسكِ.

عينا عليا فضحتا مدى قسوة سالم التي ظهرت في أول جملة تفوهت بها منذ أن قبض علينا متلبستين، وكأنها نقمت عليَّ فأعطاني الله من سعته. قالت:

– لا أتمنى لكِ السوء، والله لا أفعل! لكن لم يرفع سالم يده عليكِ في يومٍ ولم يفعلها دواس بي أنا أو دليلة لكن أصبحت عادة سالم معي من وقتٍ لآخر. يتجرأ عليَّ ويقوم بضربي أو دفعي من أمامه. كنا نتبادل الحديث سويًا لكن أنا من ضُربت، وأنتِ اكتفى بتوبيخكِ. ترى هل تلقي الضرب من نصيب الزوجة فقط أم من نصيب تعيسة الحظ عليا؟

شهقت أمي واضعة يديها على فهمها، تُخفي فعلتها وصدمتها من الحقيقة التي لم تأتِ على تفكيري في يومٍ. لِمَ لم يفقد سالم أعصابه ويضربني كما يفعل مع عليا؟ هل لأنها زوجته، ملك له أم لضعف شخصيتها؟ أم ما تقوله الجدة صحيح وهو أن البدوي الأصيل تعيش شقيقته في منزله معززة مكرمة. ماذا عن الزوجة؟ هل التعزيز والتكريم كثير عليها أم ماذا؟ تابعت عليا باستنكار:

– لا داع للتفكير! أعرف السبب جيدًا يا زهوة. لست غالية في عينيّ أبي حتى أصبح في بيت زوجي!

قدمت عليا لي فرصة على طبق من ذهب واستغليتها فقلت:

– لو وقف العم سلطان بوجه سالم مرة واحدة فلن يفعلها ثانية! أنتِ محقة يا عليا لكن هل أخبركِ أمرًا؟ كل نحيبكِ هذا وغضبك ليس بسبب ما فعله بكِ سالم وحسب بل لشعوركِ بالندم. لقد أغضبتِ حبيب القلب يا ابنة العم وغادر المنزل غاضبًا منكِ، وهذا هو أصل الداء والعلة. إن كنت أكذب فأبصقي في وجهي الآن. لكزتني أمي في كتفي ونهرتني قائلة:

– أنا من سيبصق في وجهكِ يا لئيمة! هل تهدئين النيران أم تشعلينها من جديد؟

سيأتي سالم ويطلب منها تحضير الطعام وينتهي الأمر.

غريبة هي أمي. حنونة لكن أكثر من يتلقى حنانها هو سالم. على الرغم من كونه ليس ابنها لكنها لم تفرق بما تقدمه لنا ذات يوم، لذا لو أن شخصًا غيرها هو من قال لي هذا لكنت حزنت. أعلم جيدًا حزنها بسبب تصرف سالم وتألمها من أجل عليا، لذا تحملت وتحاملت على نفسي وقلت:

– اللئيمة تلقت أول لطمة على وجهها في حياتها اليوم يا أمي. ما رأيكِ؟ هل نلت عقابي على لؤمي أم لا؟

وضعت يدي على موضع اللطمة، لا لكي أخفيها ولكن لأؤكد لهما مدى صعوبة تلقيها للمرة الأولى. المرة الأولى في كل شيء مختلفة. حتى اللطمة على الوجه لها ألم مختلف، لا يؤلم الوجنة وإنما يمنع وصول الهواء للصدر مخلفًا شعورًا قاتلًا بالاختناق، كوخز إبرة تؤلم العين. تؤلمك إلى الحد الذي يبكيك عشر ليالي، كمضخة هواء تعصف بالأفكار صانعة تشتتًا في التركيز، وكأنكَ تائهًا من هول الصدمة! إنها اللطمة الأولى، الإهانة الأولى، الحزن الأول والأكبر.

قالت عليا وهي تسحب يدي بعيدًا عن وجهي، تتفقده بحنان أمومي، وكأنها أمي وليست تلك التي اغرورقت عيناها بالعبرات:

– من فعل بكِ هذا؟ لا تقولي إنه سالم!

ابتسمت بتهكمٍ وقلت:

– ليته فعل، ولم تفعل صافية الوجه!

استفهمت عليا غير مصدقة:

– الجدة؟

أومأت مبتسمة بقهرٍ لكن دمعة بائسة فرت من عيني وحطمت مخططي في إخفاء انهياري فقلت:

– الجدة.

انتفضت أمي من مكانها فجأة. نهضت وهي تضع يديها على فخذيها بغيظٍ وقالت والشرر يتقافز من عينيها:

– سأذهب للنوم! ضاق صدري من حروبكم يا آل هارون.

وقبل أن أمنعها من الذهاب، لم أرَ سوى ظلها المغادر من الغرفة بسرعة البرق. جلست مرة أخرى فمواجهة سالم وأمي آخر ما يُشغل تفكيري. من المؤكد أن سالم سيضع الحق عليّ لذا لن أمنعها.

جذبتني عليا من ذراعي فجلست مرة أخرى. قالت ونظراتها القلقة تجوب وجهي:

– ما مدى كِبَر جرمكِ يا جلابة المصائب، حتى تفعل بكِ الجدة ذلك؟

حركت كتفيّ بلا مبالاة وقلت:

– سمعتني وأنا أخطط لقتل سالم.

تلقيت منها لكمة على ظهري، أشد قسوة وألمًا جسديًا من لطمة الجدة وقالت بغيظٍ كالبلهاء:

– بل أنا من سيقتلكِ الآن! كيف تخططين لقتل ابن عمي؟ تعالي، سأقتلع عينيكِ!

نهضت مبتعدة عنها وقلت بصوتٍ رخيمٍ حزين عما يحدث معها:

– اضحكي دومًا يا عليا، اضحكي ملء فمكِ! إن كانت سعادتكِ مع سالم لا تفكري بما يحدث من حولكما. أنا بنفسي سأعينكِ حتى تعيشي معه بهناء.

كادت تتحدث لكنه داهم خلوتنا وقال بصوتٍ يتخلله الغضب والقوة:

– إن كان اللطم يأتي بنتائج مثمرة، سنبدل صباح الخير بواحدة، ومساء الخير بإثنتين.

التفتت إليه وقلت متحلية بجمودٍ لا ينم عما أشعر به من حزن:

– لا تجهد نفسكَ يا ابن أبي! عندما أغادر منزلكَ سأتلقى الكثير منه فمن المعلوم أن الزوجة لا تُهان إلا على يدي زوجها.

تطاول كهذا كان كفيلًا بجعل سالم يكسر عظامي على إثره لذا هربت من أمامه. لم أقصد إهانته وإنما أردت أن ألفت نظره نحو ما تشعر به عليا.

سالم يجيد ترويضها، يبكيها ثم يغدق عليها حنانه. يلومها ثم يوضح لها خطأها، يحذرها وعندما تخطئ يكيل لها الاتهامات فتأتي راكعة. سالم يحرك عليا بين يديه كالدمية وهي لا تتمنى سوى قربه ورضاه، وهذا ما ظهر عليها في صباح اليوم التالي. رغم أنه منع عنها التحرك من السرير لسببٍ لم نعلمه لكن بهجتها أضفت روحًا جميلة على الأجواء، وصوت ضحكتها دوىً في المنزل عندما دلفت أمي للاطمئنان عليها.

لا أعلم ما قالته تحديدًا لكن التقطت أذنيَّ جزء منه «طوال اليوم نتوسل إليكِ، ورضختِ بنظرة منه يا ابنه هارون».

مهمة تحضير الطعام وقعت على عاتقي أنا وأمي في غياب عليا، وبين ركضنا هنا وهناك لنحضر الطعام قبل أن تهب عاصفة سالم، جذبتها من ذراعها وقلت:

– أمي أين ذهبت البارحة؟

عقدت ما بين حاجبيها وقالت:

– متى؟

– عندما نهضتِ غاضبة.

– جاءت إليَّ يا ابنة مكتوبة، تستنكر رفع يدي عليكِ. ألم تشكي لها؟ لأول مرة ترفض أمكِ شيئًا أقوم به، بفضل من هذا؟

قالت جدتي، فهمست دون أن يلتقط همسي أحد «حسنًا! لوم آخر سيقع عليَّ لذنب لم أقترفه لكن ينقطع لساني إن لم أرد الكلمة بعشرة» فقلت:

– أنا لا أشكو لبشرٍ أمرًا قط، لاسيما امرأة فمن المعلوم أن المرأة لا حول لها ولا قوة، أقصى ما يمكنها فعله هو التوسل أو البكاء. إن كانت رجلًا لفعلت! أما عن الشكوى فإن لم أسترد حقي بلساني وقليلًا ما يحدث ذلك، فلا أشكوا إلا لرب العالمين وويل للظالم من حسابه.

(٥)

محاولة تبرير ما نشعر به أو نقوم بفعله، أمر مُهْلِكٌ للغاية فالمرء ليس مطالبًا بتوضيح كل خطوة يُقدم عليها لكن هذا ليس في مجتمعنا. المجتمع البدوي تحكمه ضوابط وقوانين غير مسموح للمرء بأن يحيد عنها، وإن فعل فسيتحتم عليه الدفاع عن معتقداته بِحُجة مقنعة، هذا إن سمح له بذلك!

وأنا سئمت توضيح ما يجعلني في حالة صدام مستمر مع أخي. نعم لدي أحلام، وهذا لا يتعارض مع انتمائي لقبيلتي والسير على ضوابط مجتمعنا. أرفض التهميش وأدعو لاحترام قوانين القبيلة. ما الخطأ فيما أقوم به؟ ذلك ما قمت بشرحه للجدة صافية عندما استدعتني إلى مجلسها في المساء.

لم أرها نادمة على فعل شيء من قبل، حتى رفع يدها عليَّ لم تندم عليه. برأيها أنني استحقيت ذلك وأكثر. لو رأيت في عينيها شيئًا من الحزن لأجلي لرضخت لها، وتوانيت عن دفاعي المستميت لكن والله ما رأيت فيهما سوى لومًا وخوفًا! لكن مِمَّ تخاف أو ممن تخاف وهي الجدة صافية هارون؟ قلت قاصدة إنهاء جدال عقيم ليس له جدوى:

– حسنًا يا جدتي، لن أتمادى بالحديث معكِ أكثر من ذلك. لديكِ قناعة تامة أن ما يحدث الآن عدم احترام مني لرجال العائلة، رغم معرفتكِ أنهم يتعاملون معي في هذا المنزل على أنني شيء قميء. أتساءل عن السبب في موقفكِ هذا، هل خوف من رد فعلهم أم أنك تقتنعين بما ترددده أفواههم «زهوة تسعى لقطع لسانها في آخر المطاف»؟

قالت بعد أن تشبثت نظراتها بنظراتي وأبت أن تفترق عنها، فهمت المغزى من ذلك على الفور فالجدة تريد أن أشعر بما تقوله لا أن أسمعه:

– تلك اللطمة لم تكن لمعاقبتكِ على عدم احترامكِ لمن هم أكبر منكِ سنًا وقامة

أو على موقفكِ تجاه محبوبة أو ما تلقنيه لعليا. أنا لست قليلة عقل لأفعل ذلك! أنا أدرك ما

تتطلعين إليه. أفيقي يا زهوة! أنتِ بالفعل تسعين لقطع لسانكِ، أدعو الله أن يقتصر الأمر على ذلك ولا يمتد الأمر لرأسكِ. ما تحاولين القيام به لا يليق بكِ! إنها أمور أكبر منكِ. أنظري إلى الشيخ عثمان، إنه يحاول منذ أن طلب عمتكِ سليمة لولده.

مدت كفّا يديها إشارة منها أن جدي عثمان طالما عاد خالي الوفاض من حربة مع عادات لم تعد تواكب عصرنا، وتابعت:

– والنتيجة لا شيء! ما يحاول فعله هو فقط من قام به ولم يسر أحد على غراره. الشيخ عثمان وحده من حارب عادة المسك[٧] ولم يسِر على نهجه أحد من أفراد القبيلة. عودي إلى رشدكِ يا بُنيتي! لن تستطيعي فعل ما لم يستطع فعله شيخ في القبيلة، له مكانة وصوت مسموع.

اغرورقت عيناها بالعبرات واستطردت وهي تمرر يديها بحنوٍ فوق يدي:

– ما بالكِ يا زهوة؟ صدام مستمر مع سالم، ورفض لكل شيء يحدث في المنزل، ولسان يستحق قطعه. كل هذه الخطايا يا ظالمة! حتى بدر لم يسلم منكِ فما إن يذكر اسمه في حضرتكِ حتى تتحول ملامحكِ وأفعالكِ إلى سيل من السخرية. هل رأينا بدوية تسخر من زوجها من قبل، وعلنًا؟ كدت أنفي زواجه مني كتهمة مشينة يصفونني بها، لكنها قاطعتني بإشارة منها:

– نعم لم يصبح زوجكِ بعد، أعلم ذلك!

صرخت بانفعالٍ فكلماتها قتلت كل الآمال في داخلي، صحت أعلن عن رفضي

٧– المسك عادة بدوية من قديم الزمان، وهي قيام ابن عم الفتاة بمنعها من الزواج حين ترفض الزواج منه حتى وإن تزوج هو، ومن الممكن أن يستمر إلى نهاية حياتها

له طالما خافقي يقوم بعمله خلف أضلعي:

– ولن يحدث!

زفرت بحنق قائلة:

– هذا ما أقوله! هلاكِ بفضل تهورِك وتسرعكِ بالإفصاح عما في عقلكِ. ما شأنكِ بما صار مع سفيان ورائف؟ بريكة ونعمة لم تتفوها بحرفٍ فهل ستفعلين أنتِ؟

– حسنًا يا جدة، ينقطع لساني إن تحدثت بأمر لا يعنيني بعد الآن.

قلت وأنا أنفض عباءتي، وكأن غبار الحديث عن بدر وأيامي البائسة التي تنتظرني معه علق بها، فقالت لتزيد من بؤسي الذي لا نهاية له:

– سينقطع، سينقطع لا تقلقي! فقط أخشى من تهورِك. تلك اللطمة هي التحذير الأخير لكِ. لقد دق ناقوس الخطر! اعلمي أين تضعين قدميكِ بعد الآن. ليس لي وجه لأدافع عنكِ أمام عمكِ وسالم. إن صدر عنكِ ما يغضبهم فسأقدمكِ لهما لقمة سائغة، ليكن بعلمكِ!

لم أشكك بما تكنه لي الجدة، أعلم جيدًا أنها تحاول حمايتي لكنها تحميني من الشخص الخطأ. لا أحتاج الحماية من نفسي، يكفي أن تحميني ممن ينتهك حقوقي ويهمش وجودي.

الجدة درع حماية كفيل بأن يتصدى لأي هجوم. يكفي أن تقف في صفي، لذا يتوجب عليّ ألا أخسرها وأن أتريث أكثر وأحسب خطواتي القادمة. ذلك ما فكرت به قبل أن أنحني بجذعي نحو يدها لأطبع عليها قبلة اعتذار وامتنان ورجاء.

رفعت يدها الأخرى لتضعها على رأسي ثم حركتها بحنوٍ، فابتسمت قبل أن أستقيم مرة أخرى. لفت نظري الوشم المرسوم بدقة على معصم يدها، والذي أملك مثله بمعصمي أنا وجميع نساء المنزل فسألتها:

– لِمَ ورقة شجر وقطرة ماء يا جدة؟

– الحياة ما هي إلا ماءً وخضرة، إن اجتمعا أصبحت اليابسة جنة الإنسان على الأرض. ندقهما على يد المولودة لتجتمع الحياة بيد أفضل من تستغلها، حتى تكون جنة زوجها على هذه الأرض. هذا الذي يزين معصمكِ يا زهوة ليس وشمًا للزينة إنما تذكرة لكِ أن الحياة بيدكِ أنتِ. تبقى لكِ أن تصبحي جنة من يكتب من نصيبكِ على الأرض، لا أن تسخري منه. خُلقنا يا بُنيتي لنصبح مصدرًا للراحة والهناء لرجالنا، وهذه الزهرة التي تحتل ما بين حاجبيكِ ليست صكّ بدويتكِ إنما رسالة لزوجكِ إن شاء الله، أنه يمتلك زهرة نادرة تستحق الاهتمام والتقدير. الزهرة وقطرة الماء بالإضافة لورقة الشجر، مثلث متكامل الأركان لحياة زوجية سعيدة يا بُنيتي. يكفي أن يعرف كل منكما واجباته ليحصل الآخر على حقوقه.

حديث الجدة كان الانذار الأخير، لذا قررت أن أدير الدفة إلى حديث آخر أكثر متعة وتشويقًا فقلت:

– حسنًا يا جدة تعاتبنا واعتذرنا، وألقينا التحذيرات وتم استيعابها. كان سوء فهم وتم حله، وإن لم يحدث سآتي مع عائلتي ومئة رأس من الإبل لنعتذر منكِ.

ابتسمت بسخاءٍ لتظهر تلك السنّ الفضية التي تتوسط أسنانها السفلية. تلك السنّ تشبهها كثيرًا! مختلفة عمن حولها وذات بريق أخاذ يجذب الأنظار إليها، يضعها بموضع الملكة المتوجة بتاج الجمال بين مثيلاتها.

قالت وهي تشمر عن ساعديها استعدادًا لتفقد الصور التي كانت تضعها أسفل ركبتها:

– ليرضى الله عنكِ يا زهوة البادية.

لقبي المفضل، وإن نطقَت به فهذا يعني أنها صفحت عني. بادلتها التبسم وقلت:

– عن ماذا سينعقد اجتماع الليلة يا جدة؟

رفعت حاجبيها لتتراقص الزهرة الخضراء المرسومة بعناية بينهما وقالت:

– وادي ماجد، وجدكِ الحمد هارون.

نهضت أصفق قائلة:

– التاريخ والحب، يا لها من أمسية!

***

محظوظة هي الجدة، في جعبتها الكثير فيما يخص تاريخ أجدادنا. كثيرًا ما اجتمعنا من حولها لنسمع الأساطير الخاصة بمعركة وادي ماجد وما تبعتها من معارك وانتصارات حتى هلالة وإخوتها طالما شاركونا صحبة الجدة، والآن تقص الحكاية مرة أخرى على مرأى ومسمع من أنباء أخي وأخي الأصغر علي، ومؤمن أصغر أبناء عمتي بريكة وابنة عمي خلف، بدور ذات العشر سنوات. ليت أبناء عمي سلطان، سعد ومريم هنا واستمعا معنا لما ترويه! من المؤكد أن جميلة ابنة الوادي لن تطلعهما على فخر أجدادهما، وما يدريها بنا لتحكي لهما عن تاريخنا!

امتدت مائدة خشبية ذات أرجل قصيرة في وسطِ المجلس، عليها ما لذ وطاب من الفاكهة والحلوى والمشروبات الساخنة. تحلق حولها الصغار، يلتقطون بعض حبات الفاكهة فحاولت أمي منعهم من إثارة الشغب لكن الجدة تُطلق سراح طفولتنا في غياب رجال المنزل، دون اقتراف خطأ بحق أنفسنا.

الأمسية في ذلك اليوم كانت مهمة جدًا وغياب عليا عنها أضفى عليها البرود. لليوم الثاني على التوالي ترقد في فراشها. لو لم أطمئن عليها من بسمتها التي لا تغادر مُحياها لقلت أنها مريضة أو هذا ما هُيّأ لي. قالت عمتي سليمة، تحث الجدة على بدء الحديث:

– ها يا أمي، من أين ستبدئين؟ من زواجكِ من أبي أم من وادي ماجد؟

ابتسمت تجيب وهي تنظر إلى الفراغ أمامها، وكأنها تستجلب أحداث الماضي أمام

عينيها:

– من كليهما. وادي ماجد وشيخ العرب الحمد هارون حكايات لا تُنسى.

حديث الجدة أنبأني أن نيران الشوق ستندلع بعد قليل. الموت يشبه الحياة رغم أنه عكسها. يحدث فجأة ويستمر بالتقدم وعند لحظة ما، ينتهي وينثر ولا يبقى منه سوى ذكراه. أما الشوق فقاسٍ كالنيران، يلتهم كل ما يتعرقل به إلى أن يُفنى المرء محترقًا بشوقه ولا يبقى له أثرٌ أو ذكرى، فقط حفنة من الرماد. الموت قدر والشوق قاتل، وإن لم يقتلنا الموت يفعلها الشوق.

شعرت بقلب الجدة يندد بشوقه لمن رحل فتداركت الموقف وتدخلت في الحديث قائلة:

– هناك أمر يثير حيرتي يا جدة، تقولين إن عمركِ وقت أحداث معركة وادي ماجد التي حدثت في عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ميلادية كان عشر سنوات، وتقصين علينا أحداث تلك الحقبة الزمنية وكأنها البارحة. كيف تتمكنين من سردِ أحداث عاصرتِها وأنتِ طفلة؟ ابتسمت ونظرت لي بحبورٍ فشعرت أنها تشكرني على حسن صنيعي، ها أنا أقطع الطريق على سيل الشوق المتدفق من عينيها، وأضع حاجز الإجابة على سؤالي أمامه.

قالت وهي تبحث بين الصور:

– أتذكر الأحداث التي عاصرتها لكن هيأتها في ذاكرتي ضبابية قليلًا. التفاف رجال القبائل حول الحاكم العسكري محمد صالح حرب واحتفائهم بضيافته بعد زيارته عائلة العاصي وطلبه الدعم من قبائل البدو، وحديث الجميع عن الولائم التي قُدمت على شرفه ومن ثم ذهابهم للحرب ضد الانجليز بقيادة الجنرال إسناو، قائد قوات الاحتلال البريطاني في الصحراء الغربية، وعودتهم وهم يلوحون براية النصر. كانت ثورتنا أول ثورة عسكرية يقوم بها مصري ضد الإنجليز منذ الاحتلال البريطاني ثم توالت المعارك بعدها، وما قام به الاحتلال في زاوية أم الرخم في غياب رجالها، وانتقامهم من قادة البدو وأخذهم أسرى ثم تنفيذ أحكام الاعدام بخيرة

رجالنا، والمميزات التي أعطانا إياها الخديوي محمد على وأسرته الحاكمة من إعفاء أبنائنا من الالتحاق بالتجنيد في الجيش المصري. ذكريات وكنوز أرددها كي لا تُمحى من ذاكرتي لكنني ما عدت أتذكرها كالسابق. أما المعلومات التي أمدكم بها فقد ورثتها عن أمي وأبي ورجال القبيلة، والأهم عن جدكِ الحمد. لقد كان جنديًا من جنود الحرب ضد الانجليز.

– لا يا جدة، لم ولن أنسى لكن هذا يعني أنكِ كنتِ صغيرة حين تزوجتِ!

– كنت في الخامسة عشر، أي بعد مرور خمس سنوات على المعركة. أتعلمون يا صغاري، لموقعة وادي ماجد دروس لابد وأن تحتذوا بها فلم تكن سواعد رجالنا من تحارب فقط إنما دماؤنا الشريفة التي جاهدت أيضًا لنصرة إخواننا في المقاومة الشعبية الليبية بقيادة شيخ المجاهدين عمر المختار والمجاهد أحمد الشريف السنوسي وجعفر العسكري ونوري باشا. أسرع رجال قبائلنا في الصحراء الغربية لمساندة إخوانهم في القبائل الليبية المجاهدة ضد الغزو الإيطالي بالمؤن والذخيرة فأصبحت منطقة الصحراء الغربية من أبرز المناطق المقاومة للاحتلال، وتحقيق انتصار منقطع النظير حين قُتل الجنرال إسناو قائد القوات الانجليزية على يد المجاهد صالح بو زوير السنوسي، مما أدى إلى إصابة جنوده بالذعر وانسحابهم من الميدان لكنهم أخذوا معهم خمسة أسرى من رجالنا الذين أصيبوا في المعركة. والله لو كانوا أصحاء لما تجرأت يد على لمسهم! ليتنا نقف كتفًا بكتف بجانب إخوتنا كما فعل أجدادنا!

تدخلت هلالة في الحديث وسألتها ذلك السؤال الذي يفتح المجال للمزيد من النقاش البناء والكثير من الجدال من النوع الذي أفضله، ضياع حقوق الفتيات:

– لا يا جدة! الإذن منكِ، أفتخر بما تقولين لكن لي تعقيب على ما قلتِ! كنتِ صغيرة وكثيرًا بالمقارنة بعمر جدي. الفارق العمري بين رجل تخطى الأربعين وفتاة في الخامسة عشر شاسع للغاية، وقادر على خلق فجوة بينهما. ألم يؤثر ذلك على علاقتكما؟ طفلة لم تتم مرحلة طفولتها بعد ورجل لديه خمسة أبناء، توفى منهم ثلاثة؟

كنت أعلم أن وجود هلالة وعمتي سليمة معنا ومشاركتهما لنا الحديث، سيجعله مثمر للغاية فهما تملكان قدرًا وافيًا من الثقة التي تخولهما لإدارة نقاش مثمر بفعل المميزات التي يقدمها لهما الشيخ عثمان هما وباقي نساء أسرته، ويا لحظهن بالجد! ليتني حفيدة له! ها هي هلالة قد فتحت الأبواب التي أغلقت في وجهي وأعلم أنها لن تغلق في وجهها، وستعطيها الجدة ما تريد ثم تجعلها تغادر من تلقاء نفسها. قالت جدتي وهي تفصل صورة ما عن مثيلاتها، يبدو أنها وجدت ضالتها:

– إنها العادات يا ابنة الشيخ عثمان. لو بحث جدكِ بين القبائل فلن يجد فتاة أكبر من هذا العمر ليتزوجها، وما الضير في الزواج في هذا العمر يا هلالة؟ إنه العمر الذي حدده الشرع ونصت عليه أحاديث سيدنا محمد أشرف الخلق، صلى الله عليه وسلم. تمتد أصولنا لنسله ونحن نسير على سنته. من على هذه الأرض كانت سترفض رجلًا كجدكِ؟ فارسًا وخلقت الفروسية لتفتخر به. تداركت هلالة آخر جزء من الحديث وسألت عما يعنيها:

– ماذا؟ هل نص ديننا الحنيف على مشروعية زواج الفتيات وهن لم يجتزن مرحلة الطفولة بعد؟

ابتسمت الجدة بنفاذ صبر. يبدو أنها أدركت أن حالة التمرد التي تلبستني قد طالت هلالة هي الأخرى! طلبت عمتي من الجدة الإذن لتجيب هي فأشارت لها بالموافقة فاسترسلت بالحديث بسلاسةٍ قائلة:

– في ديننا الإسلامي وشرعنا البدوي أيضًا بما أننا نسير على سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يحق للفتاة عقد القران في أي عمر يتفق عليه أهلها مع زوجها لكن الدخول بها له ضوابط وقوانين لم نحد عنها من قبل ولن نفعل! وقبل أن تسألي ما هي تلك الضوابط سأخبركِ بها. لابد وأن تقرّ الجهات المعنية بالأمر بقدرة الفتاة على تحمل أعباء الزواج الجسدية والنفسية، هذه الجهات من الممكن أن تكون طبيبًا أو شيخًا من شيوخ الدين له السلطة بالفتوى، وفي مجتمعنا البدوي، الأم وحدها قادرة على الإقرار بمدى جاهزية ابنتها للزواج من الناحية الجسدية، نظرًا لصعوبة الذهاب إلى الطبيب وتحديد هذا الأمر. أما عن الناحية النفسية

وقدرتها على إدارة المنزل وتحمل مسؤولية زوج وأبناء وأم وأب ذلك الزوج وحتى إخوته الأصغر منه فتقع مسؤوليتهم على عاتقها ما إن يتم الزواج فنحن نعمل على نشأتكن كرباتِ بيوت تحملن فوق أكتافكن مسؤولية عشرة أسر وليس أسرة واحدة، ونحن يا بُنيتي لا نزوج الفتاة قبل أن تقول أمها «ابنتي على أتم الاستعداد». أنظري إلى ابنة خالكِ زهوة، وصلت إلى السابعة عشر ولم تتزوج بعد!

– لكن محبوبة أصغر منها سنًا، وعرسها خلال أيام!

قالت هلالة ما ودّدت النطق به فأجابت العمة عن سؤالها بحنكة:

– عام أو اثنان لن يؤثرا بالسلب. طلبها دواس وخالكِ وافق، وعمتكِ نعمة أقرت بجاهزيتها للزواج. العبرة يا بُنيتي ألا يكون هناك إكراه في الزواج، ونحن لم نزوج فتاة رغمًا عنها في منزلنا قط ولن نفعل بمشيئة رب العالمين! كما أن زيجة زهوة أفضل مثال على ما أقول. إلى الآن، الجدة تقول إنها لم تستعد للزواج بعد، وخالكِ خلف وابنه ينتظران. سالم أيضًا عقد قرانه على عليا عامين ثم تزوجها وذلك لأن جدتكِ وعمتكِ بريكة قالتا «إنها ما زالت صغيرة، اتركوها تنضج».

«ونحن لم نزوج فتاة رغمًا عنها في منزلنا قط!» ها هو بصيص أمل ينير عتمة زواجي من بدر! هذا ما فكرت به فور تلفظ عمتي سليمة بكلماتها التي من ذهب.

شردت قليلًا فيما داهم خاطري على إثر كلماتها، بدر والزواج منه وكيفية الهروب ما إن يطرح على طاولة المفاوضات تحديد موعد الزفاف. أعلم جيدًا أن هذا الأمر بات وشيك الحدوث وسيتم طرحه فور انتهاء عرس دواس ومحبوبة، ولم يعد لديَّ أسباب أضعها أمامهم في حال رفضت.

لا أرفض الزواج به لأسباب تتعلق به بل أرفض كل ما يملونه عليَّ ويطالبونني بتنفيذه! لو كانوا خيروني قائلين» طلب بدر الزواج منكِ فهل توافقين؟» حينها كنت سأفكر في الأمر ولا بد أنني كنت سأجد فيه ما يخوله أن يصبح زوجًا لي لكن التعنت بفرض الأمور وكأن لا نجاة لي سوى بالزواج منه، جعلني أرفض بل

أنفر من الزواج بجميع رجال الأرض وليس بدر فقط!

يبدو أنني شردت لمتسع من الوقت فقد استفقت من شرودي على الجدة وهي تتابع سرد تفاصيل زيارة الحاكم العسكري محمد حرب لعائلة العاصي وطلب الدعم منهم ومساندة البدو في التصدي للإنجليز بالاتفاق مع الحركة السنوسية في جمهورية ليبيا الشقيقة، وما نتج عن ذلك الاتفاق من خير عمّ البلدين.

كدت أسألها عن واقعة دومًا ما جالت بخاطري وهي زواج بدوية من الجنرال رويل، قائد منطقة مرسى مطروح الذي حاول بشتى الحيل أن يجذب سكان الصحراء إليه حتى إنه ارتدى الزي البدوي وتحدث العربية. تزوج منها قسرًا ثم ادعى اسلامه على يديها ليوهم البدو أنه أصبح عربيًا مسلمًا، واندلاع الحروب على إثر تلك الزيجة بعد وفاة والدها قهرًا لكن صراخ عليا ومداهمة سالم المجلس في حالة يرثى لها منعني.

نهضت واقفة بفزعٍ، أحاول فهم ما يدور أو ما هو حجم المصيبة التي ستحل على رؤوسنا. صراخ كهذا لم أسمعه منذ وفاة سفيان ورائف! أول شيء دار في خاطري هو أبناء أخي فالتقطتهما وأمسكت بيديهما وكأنني هكذا سأحميهما مما هو قادم.

الصرخة التالية كانت من نصيب العمة بريكة حيث قالت وهي تهرول باتجاه الباب «عليا بُنيتي!»، تبعها ماجد الذي نفض يدي بخوفٍ وثريا تتمسك بطرف جلبابه، كيف لا وهو أمانها في حال غياب عليا عنهما؟ تطلعت إلى كل الأعين التي تحملق بسالم وتحاول استشفاف سبب صراخ عليا وحالته تلك. قال وهو يتوسل إلى جدتي:

– عليا يا جدة!

توسله إليها وعبراته التي والله ما رأيتها من قبل إلا في تلك اللحظة، كانا بمثابة إنذار لي بأن هناك أمرًا جللًا قد حدث فوجدتني أشق طريقي مهرولة نحو غرفة أخي، أكثر غرفة أبغضها من هول ما رأيته فيها هذه الليلة..

بعد ليلة عصيبة طويلة، غاب عنها القمر، وأشرقت شمسها متأخرة عن موعدها لكثرة غيومها فأوحشت ظلمتها صدري بل صدورنا جميعًا، وقفت خارج الغرفة أضم ابني أخي الواقفين أمام قدميّ بيد، وبالأخرى أحمل صغيرته التي قررت أن تأتي إلى الدنيا كما أتت عمتها، في ليلة عاصفة انقلبت الدنيا فيها رأسًا على عقب ولم تعد إلى مكانها ليصبح حظها عسرًا مثلها. استندت برأسي، أحاول التقاط أنفاسي وإراحة رأسي على الباب. ألهث وكأنني كنت أركض لأميال.

قالت ثريا بصوت مرتجف ليس لبرودة الجو شأن به وإنما ببرودة أول ليلة خارج أحضان عليا كفيلة بأن تفقدها صوتها:

– عمة زهوة، أريد النوم. عيناي تغلقان رغمًا عني.

ضممت الصغيرة أكثر وقلت:

– تعالي يا غالية لنغفو في غرفتي.

كدت أجرهما لأتوجه بهما بعيدًا عن صوت أنين عليا لكن شلت قدماي عندما شقت صدري شطرين:

– إما مع أمي وإما لا! النوم لا يأتي إلا معها.

احنيت رأسي نحوها وسالت عبراتي على وجنتيَّ لتسقط على يدي التي أحمل بها الصغيرة، وهنا أدركت ثقل الحمل الذي بين يديَّ. سمعت جلبة في الداخل جعلت جسد ماجد يرتجف فأجفلت على إثر حركته.

ما يحدث في الداخل وكلمات ثريا وارتجاف جسد ماجد وحيرتي فيما سأفعل مع الصغيرة، جعلوا قواي على وشك أن تخور وأسقط بهما. أين أذهب بثلاثِة أطفال؟ أصغرهم مازالت عيناها مغمضتين وجوفها فارغ، والأخرى تطلب النوم بين يديَّ والدتها التي لا حول لها ولا قوة في الداخل، وكبيرهم تلخص خوفه في رجفة في جسده لم يستطع التغلب عليها؟

رفعت رأسي إلى النافذة ودعوت ربي أن يغدق علينا كرمه كما أغدق على الأرض غيثه وقلت»عليا يا رب! عليا!» وحينها سمعت عمتي بريكة تصرخ:

– لا يا أمي صافية، لا! إنها الثانية، وقلبي لن يتحمل نارين.

المنتقمة

(٦)

انتظر الشيخ عثمان أكثر من عشرين عامٍ ليطالب بميراث زوجة ابنه من والدها وقرر أخيرًا أن تحصل سليمة على إرثها، ليس لاحتياجه للأموال أو الأراضي، وإنما ليسير أفراد القبيلة من بعده على نهجه.

الشيخ عثمان يحاول سن قوانين جديدة لتكون مرجعًا ودستورًا للبدو من بعده كما ذكر سيادة النائب سلطان من قبل، ومطالبته بالميراث بمثابة الضربة الأولى من سلسلة هجمات قادرة على إنهاء إمبراطورية سلطان هارون، ويا لحسن الصدف! تزامنت مناوشات الشيخ عثمان الممهدة بحرب لن يتراجع عنها أي من الطرفين مع هجماتي، ويبدو أننا سنحقق نتائج مبشرة ومن الجولة الأولى قياسًا بحالة الارتباك التي أحدثتها رسالتي في نفسي سيادة النائب وولد أخيه! فقد ترك المنزل وتوجه إلى ابنة الوادي وهو لا يفعل ذلك أثناء الاحتفالات بذكرى موقعة وادي ماجد أو انشغال رجال عائلته بالأعمال إلا إن تعرض لأزمة ما وقرر الاسترخاء بقربها لينعم بحسنها الذي لا يقارن بحسن بدوية تسير فتنتفض الرمال لجمالها. ليت حظ كل النساء كجميلة! وليت أي رجل لا يشبه سيادة النائب! حتى سالم نفّس عن غضبه بزوجته وبناته فلقد شهد منزل الحمد هارون صدامًا داميًا بين سالم وزوجته.

لم يستطع إلى الآن التفرقة بين زوجته الأولى قطيعة اللسان حسنة الطباع وبين تلك التي وضعها رب العالمين في طريقه كعقاب على ذنبه الكبير. لم تختزل العشر سنوات الأخيرة من حدة طباعه وبقي كما هو، اللهم إلا من عشقه لابنته عليا والتي أصر أن تسمى باسم والدتها، ظنًا منه أنه سيتغلب على الحقيقة المُرَّة، وفاة عليا في ليلة غابرة لم تسطع لها شمس! إن بحثت عن التوقيت المناسب لبداية معركتي والتي لا تقل أهمية عن معركة وادي ماجد فكلتاهما لن يصبح المجتمع البدوي بعدهما كما كان، فهذا الوقت هو التوقيت المناسب.

محافظة مرسى مطروح على مشارف ملحمة الانتخابات والمحسومة مسبقًا لسلطان هارون الذي يجلس على عرشها منذ خمسة عشر عامًا، واحتفالات العيد القومي للمحافظة بالتزامن مع احتفالات ذكرى وادي ماجد التي لم يتبقَ عليها سوى بضعة أيام، وأنا أنوي الكشف عن دفاتري ومحاسبة كل سفاح على مرأى ومسمع من الجميع في ملحمة سيخلدها التاريخ. يتوجب عليَّ فقط أن أستمد الدعم من الشيخ عثمان فحليفي يحتاج داعمًا قويًا له صوت مسموع عند الكبار، والشيخ عثمان تنطبق عليه كل الشروط لذا خطوتي الأولى كانت التواصل معه. كان وعثًا جدًا لكنني مارست كل الحيل المباحة والمحرمة لألتقي به وفعلت.

لم أُخفِ عنه أمرًا! أطلعته على الحقائق كاملة. الدماء التي هُدرت بدمٍ بارد، والأرواح التي أزهقت ظلمًا وبهتانًا، والصرخات التي سمعها الجميع ولم يسمعها أحد، والدمعات التي سالت دماءً ولم تتم إزالتها بل تُركت كمياه النار تحرق بلا رأفة ولا شفقة! أمر واحد فقط لم أتطرق إليه وهو الشق الثاني من انتقامي، الحرب النفسية التي أمارسها أنا وحليفي على سلطان وأعوانه، لأن التطاول على كبار العائلة أمر غير مقبول عندنا ونحن لن نكتفي بتلقيهم العقوبة التي يستحقونها أمام جمع من رجال القبائل لا يستهان به أو تلقي عقوبة بالإعدام شنقًا كتلك التي نفذوها بل قررنا أن نقدمهم للشيخ عثمان جثثًا لاغبة دون روح لتنفذ فيهم عقوبة كالتي نُفذت في بدوية، كل ذنبها أنها أرادت التنفس فخُنِقت من إصبعها!

انتهى اللقاء بنتائج مبشرة بالخير، واتفقت مع الشيخ عثمان على التحلي بضبط النفس وعدم الظهور أمامهم بصورة أو بأخرى، وقد قرر أن تبقى هويتي الحقيقة مبهمة أمام أعينهم كي لا يطالني سوء قبل مجيء موعد الاحتفالات لكنها دماءٌ شريفة أصيلة، تلك التي تسري في عروقي. دماء لا تقبل الظلم والذل، وإن حدث سيتجرع الساقي من نفس الكأس فأنا لا أسير بين الناس، ألقى بوعود لن تنفذ إنما أصمت وتقول أفعالي ما لم يفه به لساني! لذا عقدنا اجتماعًا سريًا على شاطئ البحر تحت ضوء القمر لنكتب السطر الثاني في شهادة وفاة من يسيئون لنسل الحمد هارون بعد أن أمسى هلاكهم قاب قوسين أو أدنى. رمالنا رمال شريفة بدم ضحاياهم لكن يشاء القدر أن ندنسها بأسمائهم.

***

وجدته شارد الذهن، مُنهمِك التفكير بأمرٍ ما، يبدو أنه جلل تبينته فور اقترابي منه. لقد نقش على الرمال فرسًا يرفع قدميه الى الأعلى بشموخ. حاول أن يبرز عضلات جسده بعناية واتقان. لابد وأنه أراد أن يستمد القوة والبسالة من رسمته لمواجهة ما هو قادم! قلت وأنا ألكزه على كتفه وأجلس الى جواره:

– ماذا دهاك يا شيخ العرب لترسم هذه الرسمة؟ هل سيهلك أحدهم تحت قدم فرسكَ أم ماذا؟

– فرسي سأمتطيه وأدمر الأخضر واليابس لا محالة لكن لنؤمن حياة الضحايا قبل أن نُهلك المذنبين، وقبل كل هذا لنتأكد من أننا لن نمس عرف أجدادنا وتاريخهم بسوء!

– لن نفعل، أقسم لكَ! سأؤَمّن لكَ أنتَ ومن يبايعكَ مكانة تفخر بها ويفعل من بعدكَ أحفادكَ أما عن إرث أجدادكَ من قوانين وأعراف فنحن لن ندنسها بل سنثبت أنها بريئة من سوء الفعل وتحجر القلب الموصومة به! يكفي أن ننتظر الاشارة الخضراء من الشيخ عثمان.

أخبرني أنه يخشى أن نصبح ضحايا حرب سيادة النائب والشيخ عثمان فابتسمت له كي أبثه الطمأنينة بالقدر الذي يحتاجه فمن الواضح أنه يخشى بطش عائلة هارون ونفوذهم، وأثناء متابعتي لما نقشه على الرمل جالت في خاطري فكرة من شأنها أن تجعل الرعب ينهش صدر سالم وعائلته فقلت وأنا أقبل جبينه:

– هون عليك يا شيخ العرب! لن نتركه ينهض ويتغلب على آثار هجمة إلا وسنداهمه بغيرها! أعدكَ أن رأسه سيتورم من ضرباتنا المتتالية إلى أن نسلمه للشيخ عثمان خائر القوى، وهجمتنا التالية ستكون جزءًا من رسمتكَ هذه. يكفي أن تتماسك. لا أريد أن أرى في عينيكَ نظرة التردد هذه! تلك التي تسري في عروقكَ، دماء مثابر لا يهزمه عدو ولا يخيفه قاتل.

***

في المجلس الخاص بالرجال، جلس سالم يتبادل الحديث في شئون العائلة مع أخيه عليّ وأبناء عمومته مؤمن وبدر ودواس، يتقاسمون المهمات فيما بينهم لإتمام الأعمال قبل بدء الاحتفالات.

تنحّى سالم عن مهمة امتطاء الفرس في الأعراس والحفلات ليحل ابنه محله، وماجد خير من تُسند إليه أعمال ومهمات الرجال! بدوي أصيل تتشرف البادية بكونه فردًا منها، هو وفرسه يشكلان لوحة أبدع من رسمها.

دلف الشيخ سلطان ومن خلفه ولده دواس الذي يتبعه في السير والقرارات كظله، دون تكبد عناء التفكير إن كان ما يقوم به والده صوابًا أم أنه يجره إلى السقوط من الهاوية في بئر المحرمات. نهض الشباب فور إدراكهم دخولهما إلى المجلس وراحوا يرحبون بهما في اجلال وتقدير. نظرات سيادة النائب الغاضبة جعلتهم يتوجسون خيفة من أسباب ذلك العبوس.

طبيعتنا البدوية تجعلنا لا نحبذ فكرة أن نكون مرؤوسين. تستهوينا الأعمال الحرة، دون قيود أو أوامر فنحن أمة نفعل ما تمليه علينا رؤوسنا.

جلس متمسكًا بهيبته ووقاره وأخبرهم أنه لا يريد افتعال المشاكل مع الشيخ عثمان لذا قرر عدم ذهاب سالم إلى الأرض التي يقع عليها الخلاف فهب سالم واقفًا باندفاع لم يحسب عواقبه كعادته وقال:

– ماذا؟ هل سيمنع عنا الشيخ عثمان قوت يومنا؟ والله لن أسمح بهذا مطلقًا!

هدر به عمه الأكبر والذي لا تعلو فوق كلمته كلمة:

– قلت لكَ لا تذهب إلى الأرض مرة أخرى إلى أن نصل لحلول مرضية للجميع!

– حسنًا، لن أذهب! سأترك المهمة لمؤمن لكن هل سنقف مكتوفي الأيدي أمام أفعال

الشيخ عثمان؟

قال سالم الذي لم يرفض لعمه أمرًا فهل سيفعل ونيران الغضب تتطاير من عينيه؟

شارك بدر في الحديث وسط صمت البقية فعندنا عندما يتحدث الكبار يبتلع الصغار ألسنتهم، وسالم بات كبيرًا، كبيرًا جدًا منذ أن تلطخت يداه بالدماء:

– هناك شيء لا أفهمه، لِمَ تطالب عمتي سليمة بالميراث الآن؟ منذ زواجها لم نرَ منهم إلا كل خير. ما الذي طرأ عليهم ليعلنوا الحرب علينا هكذا؟

أجابه دواس، وعيناه مسلطتان على بقعة ما على الحوايا المنبسطة على الأرض:

– الانتخابات باتت وشيكة ويبدو أن الجد عثمان قرر الوقوف بوجهنا!

ابتسم سلطان ابتسامة سمجة غرضها الاستهزاء بولده وقال:

– ساذج وستبقى هكذا. متى ستصبح كابن عمكَ منصور أو كأخيك رحمة الله عليه؟

سفيان ابتلعته المياه وتلونت بلون دمائه هل نسيت أم تناسيت يا ابن هارون؟ وددت طرح هذا السؤال عليه لكن قام عليّ بذلك وقال مازحًا وقد اختار التوقيت الخطأ، فمازال في مرحلة التأرجح بين الاعتياد على حياة البادية وما عايشه في الإسكندرية أثناء دراسته فبات لا يحسن التصرف أو التحدث معهم. كل ما يشغله هو إنهاء ما يعاوننا على فعله، فعليّ هو الضلع الثالث لمهمة الثأر لبدوية تحالفت عليها الذئاب الجائعة. يخشى علينا من اكتشاف سالم أمرنا، ويرجو أن تنتهي الاحتفالات ونعود إلى بيتنا بخير. لم يدرك إلى الآن أن أول قضاياه كانت أهم وأشرف قضية في حياته:

– أيهما يا عماه؟ وضح مقصدكَ فأنا وسالم شتان.

– بالطبع سالم! وهل يتساوى ابن مكتوبة مع ابن ثريا؟ والله لم تجلب لنا مكتوبة خيرًا قط! كل من يأتي منها شؤمًا.

انتفض عليّ بينما تأهب الجميع لمشادة كلامية وشيكة لكن سالم وذكائه قادران على امتصاص الموقف فقال:

– وما بها مكتوبة يا عماه؟ (أشار لنفسه بثقة وتابع) أنشأت رجلًا تضج المجالس بطيب ذكره. حتى وإن كُنت ابن ثريا فمكتوبة هي من أنشأتني على احترام العائلة والفناء من أجلها. أظنكَ خير من يعلم ذلك!

أدرك سلطان أن ضربته التي سددها إلى عليّ لم تكن موفقة فقد أغضبت سالم، وغضب سالم هو آخر شيء يودّه فقال وهو يشيح بنظراته بعيدًا عنه:

– كلهنّ أخفقن فيما أسند إليهن. لنلتفت إلى ما أردت طرحه عليكم. رجاءً لا يقاطعني أحد، خاصة أنتَ يا سالم! أبلغني الشيخ عارف أن عثمان راشد يطالبني بعقد جلسة تحكيم عرفية.

هب سالم، ضاربًا بطلب عمه عرض الحائط وقال:

– ماذا؟ هل سندخل العُرف بيننا؟ إذًا أهلا بالعداوة! اكتسبها الجد ولا رجوع فيها، وإن أرادها حربًا فنحن أهل لها وسنجعل غبارها يغطي سماء مصر وليبيا.

ضرب سيادة النائب الأرض مرتين بعصاة، علامة على رفضه ما قام به سالم من تعدي حدوده باحترام قرارات كبار العائلة، وقال محذرًا:

– سالم! لن أخسر مكانتي وأصوات الناخبين من أجل حربكَ الرعناء! أرواح من ستزهق هذه المرة؟

خاطيء هو سيادة النائب فدماء أبناء العائلة ما زالت عالقة بيديه. ظالم مستبد لكنها المرة الأولى التي يعجبني فيها قوله! المرة الماضية حين أراد سالم أرضًا ليست من حقه، راح ضحيته اثنان من أبناء العائلة وأخرجنا جثتيهما من البحر بعد

قتلهما والتخلص منهما من قبل أيادي لا تعرف المواجهة بشرف. تُرى عمر من سيقصف هذه المرة؟ بالتأكيد سلطان لا يخشى على أبناء عائلته إنما يخشى عداوة أبناء القبيلة وأشقائهم من القبائل المجاورة، وتلك العداوة ستكون كالنيران. ستلتهم كل ما كدّ وعمل على تأسيسه في السنوات الماضية، خاصة ذلك العدو الخفي الذي يعلم عن ماضيهم ما أخفوه عن الجميع، وما خفي كان أعظم!

يبدو أننا أمسكنا سيادة النائب من يده المكسورة، ورسالتي التي وضعتها في لجام الفرس أدت الغرض المرجو منها. ما زالت آثار تلك الضربة على رأسه، وضربة أخرى ستكون جيدة للغاية خاصة في هذا التوقيت.

دلف ماجد يهرول بفزعٍ مختلطٍ بالحيرة مما رأى على الشاطئ هو ورفقاؤه من فتيان القبيلة، ذلك ما تظاهر به عندما اتفق معهم على إقامة جلسة زردة على الشاطيء [٨] فوجئ ماجد ورفقاؤه فور وصولهم إلى شاطئ أم الرخم، أجمل بقاع الأرض وأقلها حظًا لارتواءه بدماءٍ شريفة، بجملة منقوشة بعنايةٍ على رماله بالإضافة لفرس يرفع قدميه وكأنه يدهس أحدهم واللوحة ملونة بمادة لونها أحمر قانٍ «هنا تم إعدام كريمة آل هارون، تُرى أين يدفن رفات ابنة البادية؟»

٨- الزردة: حفلة شواء لحم على الفحم مع طبخ قدر من الرز الأحمر أو الأصفر، يقوم بها البدو على شاطئ البحر أو بنصب خيام في جوف الصحراء. أفضل ما يميزها هو مشروب الشاي الساخن طيب المذاق المقدم في أكواب من الزجاج صغيرة الحجم.

من دفتر زهوة الأعراف

(٧)

بعد غياب شمس عليا، أدركت أن الخوف الحزن لن يجدا عني حولًا، ومن أنا ليفعلا؟! بدوية حاولت أن يتعدى لسانها حدود شفتيها لينطق بما تفيض بِه روحها لكن في كلِ مرة حاولت فعل ذلك، قطع أولي الأمر جزءًا منه إلى أن أصبحت قطيعة اللسان! أجمل صفات المرأة على الاطلاق!

ماتت عليا. ماتت رفيقة العمر، رفيقة الذل، رفيقة الفقد. جبل المآسي. ذات العينين الكحيلتين البنيتين العَلِيلَتين. ماتت من كانت نسمة على الشاطئ وعمودًا في المنزل وفرسًا في عين زوجها ورجلًا في غيابه. ماتت خادمة منزل منصور هارون، جارية سالم هارون. ماتت ابنة هارون ذات النسل الطيب. ماتت عليا وماتت بعدها كل محاولاتي للخنوع. لن أقف على أرض عليا أسفلها! وطالما عليا ليست عليها، إذًا لأجعل عاليها أسفلها وليذهب للجحيم شائِنها! ليبكي عليها كل من يعرفها ومن لا يفعل! لتبكي عليها الأرض والسماء! ليجف الماء وينتهي الهواء، فعليا ماتت! ماتت وها أنا أتوسل قبرها أن يحنو عليها لتحصل بوفاتها ما لم تتحصل عليه في حياتها.

عليا! عجزت أن أبكيكِ، وهل العبرات قادرة على رسم تمزق نياط القلب يا ابنة القلب؟ العلقم مُرٌّ يصعب بلعه وإن حدث، يكاد بؤبؤ العين يغادر موضعه في ذات اللحظة، وقلبي كذلك البؤبؤ منذ وفاتها، سيغادر موضعه لا مفر من ذلك أو يجف كما تجف أرواق الشجر عند منع المياه عنها.

الحزن على عليا كبير كبر السماوات والأرض. لا يمكن تحمل فجيعته، خاصة إن انتقلت كل المسؤوليات على عاتقي فمنذ أن دوت صرخة العمة بريكة في سماء أم الرخم، وأنا أخبيء صغارها خلف أضلعي.

عرفت ماهية تلك الصرخة فورًا فقد سمعت مثلها حين فقدنا سفيان ورائف، فالصراخ على وفاة الابن لا يشبهه صراخ. عندما فطنت لما حل بنا، ركضت بكل قوتي ولم أتوقف إلا في إسطبل الخيل، وفي رحلتي الشاقة إلى هناك اصطحبت بدور ابنة عمي خلف معي.

لم يفُتني صغر سنها فما زالت في العاشرة. النواح على عليا غزير كأمطار تلك الليلة ومن شأنه أن يقتلها رعبًا، خاصة أولئك اللاتي أتين كمعزيات، ونباشات في الجراح القديمة، وواضعات الجمر على الجديد منها.

حتى وإن كان حال قلوبهن يختلف عن أعينيهن التي تهطل عبراتها بغزارة، حتى وإن كانت صرخاتهن لا تشي ببرودة قلوبهن فالنواح والصراخ في مجتمعنا واجب ودين لابد وأن يرد في كل حالة وفاة! من لحظة وطء قدم المعزية سُرادِقَ العزاء إلى أن تحين مغادرتها إياه، وإن لم تفعل ستنعت بالمقصرة الشامتة بأهل المنزل والمتوفى. إنها المظاهر، أكثر ما يحتم علينا مراعاته في كل ظرف! سعادة أم حزن، لابد وأن نحترم العادات!

أول ليلة لا توصف باردة جدًا برودتها قارصة. أنا معتادة على ذلك لكن الصغار لم يتحملوا عناء ومشقة ليلة عصيبة كتلك التي قضاها أجدادي في الحرب. هم كانوا يحاربون البشر ونحن حاربنا الطبيعة، خاصة تلك التي لا تملك من العمر سوى ساعة واحدة.

لم ترأف بنا السماء لكن الأرض فعلت، ولم تصل مياه الأمطار إلى موضع أقدامنا. حملت الصغيرة وصعدت بها إلى الجزء المخصص لوضع الطعام للخيل ثم أمتها فيه ووضعت الصغار واحدًا تلو الآخر. لا أعلم هل خيل لي أم لا، لكن سالت من عين فرس ماجد دمعة! أظنها بكت ونحن نتطلع إليها باكين جياعًا، تعصر البرودة أمعاءنا. نذل ونحن أشراف تنحني الرؤوس لحضورنا تبجيلًا. رأيت دمعاتها بأم عيني عندما همس لي ماجد:

– فرسي تبكي يا عمة وأنتِ أيضًا. ماذا هناك؟

مددت يدي إلى أن وصلت إلى رأسه وقلت وأنا أربت عليها لأعتذر لكن عن ماذا؟ هل ما حدث ليلتها بفعل بشر أم أنها إرادة رب العالمين ولا دخل لنا بها؟:

– نم يا صغيري كي يفعل البقية!

هدر باكيًا مستنكرًا وهو يشير بيده إلى الأرض، حفيد الشيخ الحمد هارون يتشارك مع جواده الإسطبل:

– هنا؟ هل سننام هنا؟

قُلت راجية:

– هنا يا ابن الغالية، وما باليد حيلة!

***

مرت الصباحات والمساءات رتيبة، بائسة كحالنا. طوال اليوم أتقاسم تقديم الضيافة للمعزيات مع فتيات المنزل، كل صباح ذبيحة واثنتين. جاءنا أشقاؤنا من القبائل والعشائر المجاورة من كل حدب وصوب في أول ثلاثة أيام، وكأن همنا الأول أن يغادروا منزلنا ممتلئي البطون وليست تلك التي تعانقها القبور بينما يرتجف صغارها بردًا لغيابها!

صرت أعشق الليل وكرهت النهار ونفرت من الشمس. الليل وكفى هو ما يجمعني بأبناء قلبي. حاولت جاهدة أن أعوضهم عن غيابها وأقترب بسيل من الحجج عند السؤال عنها. صعوبة محو تلك الليلة التي قضيناها في إسطبل الخيل لا تقل عن صعوبة غياب عليا ففي كل مرة تصدر صرخة عن أيٍّ من نساء المنزل، ينتفض جسد ماجد وتتمسك بي ثريا، والى الآن يصيبهما الفزع في نومهما إن همس بجانبهما أحد. حتى هروبي إلى الخيل ذليلة لم يحمِهما من هول الصراخ والنواح!

أما عليا الصغيرة، والحزن المتمثل في عينيها ورهبة النظر فيهما وكأنني أخشى مواجهتها بحقيقتها المُرَّة « لقد ولدتِ يتيمة»، فكان أكبر ثقل ألقته وفاة عليا

على عاتقي!

***

نحن البدو حدادنا يختلف عن الحضر. لا نتخطاه بسهولةٍ! ليس بسبب الحزن وحسب، وإنما عن قصد! المرء في مجتمعنا له قيمة، لا بد وأن يكرم! وتكريمه أن تشهد البادية على حزن ذويه. نبسط الموائد لكن لا يضحك السن ولا تلمع الأعين إلا بالعبرات!

لا مظاهر للفرح! حتى آثاره نعمل على إزالتها، ونحن كنا في أيام عُرس والحناء تغطي أجساد معظم نساء المنزل ولم تختفِ إلّا بعد مرور أشهر حدث فيها الكثير والكثير، أهمه أن سالم بات يحسن معاملة أبنائه عن ذي قبل. صار يخرج للعمل في الصباح ويعود في الظهيرة، ومن ثم يصطحب أبناءه إلى خيمة نصبها من قبل بالقرب من المنزل كان يفضل الجلوس فيها وجعلها مجلسًا لعقد أمسياته مع رفقائه، ومؤخرًا صار يختلي بنفسه ويقضي معظم ساعات الليل هناك.

لا أعلم! هل كان يكن لعليا كل هذا الحب، وما طرأ عليه هو حزن وحداد عليها أم أن مصير فلذات كبده يشغل تفكيره كما الحال معنا؟ على أية حال! كنت على يقين أن تدهور أوضاع سالم خلفه سر كبير وكشفه قاب قوسين أو أدنى من الحدوث.

كان يداعب عليا كثيرًا، ينطق باسمها بين الفينة والأخرى دون داعي بطريقة جديدة عليه، لم يستخدمها مع عليا الكبيرة.

استطعت مؤخرًا أن أعرف دوافعه ففي كل مرة ينظر إليها، يتنهد بحسرة ويقول «عليا» بفتح فمه ومد الألف وكأنه يحاول أن يقول ما لم ينطقه لسانه لينفّس عن ندمه! سالم يخرج نيران اللهب التي تتأجج في صدره بفتح فمه عند نطقه اسمها. هل لهذا أسماها عليا؟ حتى يخرج نيران الحزن والشوق باسمها؟ هل استغلها لتلبية رغباته والتنفيس عن غضبه كما استغل والدتها من قبل؟

برأيي أن عليا الصغيرة لن تشبه الكبيرة! الكبيرة كانت امرأة بدوية عن جدارة، ينقصها فقط قوة القلب وفصاحة اللسان أما الصغيرة كعمتها، جاءت في ليلة غابرة. عند توزيع الأقدار كنا نُحصي سويعات السعادة التي سنعيشها في حياتنا ولم نأخذ حصتنا منها لأننا جئنا متأخرتين!

***

مرت أشهر على غياب عليا ولم يبقَ لي رفيقة أتقاسم معها أعباء الحياة! لم أعتد على غيابها بعد! تنبش الوحدة بقلبي ويعصف الشوق بجنبات حياتي. بت وحيدة، أكثر وحدة من جزيرة مهجورة في قلب المحيط لذا قررت أن استميل إحدى فتيات المنزل نحوي. دليلة وإن جذبتها بخطاف فلن تميل لي! قبل وفاة عليا وقفت بوجهي الند بالند، والآن لا تطيق الأرض التي أسير عليها. ما إن نجتمع سويًا يتبدل حالها وتحيد بوجهها عني. تقضم شفتيها بأسنانها أما عينيها فحدث ولا حرج! يكاد بؤبؤيهما أن يغادراهما لشدة كظم غيظها! لم أعلم حينها من يمنعها عني لكنني علمت أنه ما إن يتم إطلاق سراح لسانها فلن يلجمه أحد! ستلتهمني، ولا عزاء للمتفرجين!

محبوبة هي طوق نجاتي من بحر وحدتي ووسيلتي لكسر الصمت. خلافي معها كان بسبب زواجها من دواس، سوى ذلك هي رقيقة لا صوت لها، تؤدي واجبتها بصمتٍ.

قررت أن أّذهب إليها لنتبادل أطراف الحديث. حدس في داخلي أخبرني أن هناك حركة تدور بين الرجال لا علم للنساء عنها، ومحبوبة من بعد الجدة خزينة أسرار الرجال بفضل دواس. لقد حظيت من قلب رجلها مكانة لم تستطع أمها الحصول عليها! القلب ليس عليه سلطان، ويبدو أن دواس وضعها سلطانة في قلبه!

تسللت إلى منزل عمي خَلَف خلسة بعد انقضاء نهار مرهق، وتأكدت أن أبناء أخي الثلاثة يغطون في نوم عميق. غادر سالم إلى خيمته الخاصة بعد تناول طعامه، وأمي ذهبت مع الجدة إلى منزل عمي سلطان كعادتهما في الأونة الأخيرة فقد سقطت عمتي بريكة أسيرة الفراش منذ تلك الليلة المشئومة.

منازلنا ذات طابع خاص، طابق واحد يتسع أحيانًا لعشرة غُرف، فيها أكثر من مرحاض، والمحرم الخاص بالنساء ومجلس الرجال. غرفها واسعة، تكفينا وتكفي إخوتنا وزوجاتهم عندما يتزوجون.

نحن لا نتزوج في منازل منفصلة عن العائلة وإنما في غرف داخل المنازل، أي أن الفتاة لا تتزوج رجلها فقط بل عائلة بأكملها! يشهدون على لحظات سعادتها وحزنها وأحيانًا يكونون سببًا في شقائها.

لمنازلنا شُرفات كبيرة واسعة، دومًا ما يكون الدرج في مقدمتها. لكل منزل شرفة واحدة.

لم نعرف الغرف ذات الشرفات إلى الآن.

سرت باتجاه الدرج بحذر خشية أن يراني أحد أبناء عمومتي. توقفت بالقرب من الدرج، أستمع إلى همهمات لم تلتقط أذني منها بوضوح سوى جملة «حتى وإن تأخر اجتماعنا لسنوات، سنفعلها في النهاية. أنتِ المحبوبة وعليا وتين القلب أما أمي فهي كل شيء، وكل شيء الآن رافض الحياة. هل أدخل الحياة وأمي رافضة البقاء فيها؟ لنتريث قليلًا، لعلنا نفهم ما بها وما سبب تعنتها مع الجميع»

التلصص ليس من شيمي. محبة للاستطلاع لكن لا أجرؤ على اقتحام خصوصية أحد! الكلمات كانت كالمدفع فدفعتني للأمام، وعند انتهاء سيري بمحاذاة حائط المنزل وجدتني وجهًا لوجه مع الدرج ومن يجلسان عليه. صدرت عني شهقة صدمة، فتبعتها أخريان فزعتان منهما.

قالت محبوبة وهي تطلق عليَّ نظراتها الخائفة:

– لعنة الله عليكِ يا زهوة! سأقطع الخَلف على يديكِ!

حدق بها دواس مستنكرًا ما تفوهت به. عنفها، ويا للعجب! تطلع بها هائمًا في حالة غريبة عنه وبعيدة كل البعد عن وقار الرجل البدوي:

– معاذ الله! اعلمي ما تتفوه به شفتاكِ يا معتوهة! هل تزوجنا لينقطع نسلنا؟

أشاحت بوجهها ونطقت بما جال في خاطرها دون تفكير، ولو فعلت لابتلعته بدلًا عن الاشهار به:

– هذا عام شؤم، لا زواج فيه يا ابن العم. لا تبني آمالًا على أرض رخوة.

هل يحترق اللسان بنار ما نطق به؟ لو أمكن ذلك لاندلعت النيران في جسد محبوبة، بعد الحالة التي أحدثتها كلماتها بدواسٍ. عن أي زواج تتحدث وهو يعطي القبر شقيقًا في كل عام؟

إنه محب عاشق، يعي المسؤولية التي تقع على عاتقه تجاهها، وتجاه زواجه منها، ذلك ما أدركته من ردة فعله التالية لكلماتها فقد شرد لبضع ثواني ثم أومأ برأسه تزامنًا مع حديثه حين قال:

– هذا العام أو غيره، وما الزواج إلا عقد القران والسُكن والسَكن، وأنا عقدت قراني عليكِ، ومنذ صرختنا الأولى ونحن نتشارك المنزل أما السُكن فأنتِ سُكني وملاذي. تبقى لنا الإشهار والإتمام وأنا لست متعجلًا ذلك! يكفي أن تتحسن حالة أمي. اصبري يا محبوبة فإن فرج رب العالمين قريب، أقرب لنا من تلك البائسة التي تقف أمامكِ.

أشار إليّ في جرأة لم أعدها منه. دواس كبقية الرجال في عائلتنا، لا يرفعون أعينهم إلى نساء البيت. تلك المرة الأمر مختلف فقد بقي في جلسة أنا جزء منها ووجه لي الحديث، حتى أنه تابع وهو ينهض:

– تفضلي يا ابنة العم! الجدة في الداخل.

فركت يديَّ بعضهما ببعض، أكبت حالة التوتر التي اعترتني وطلبت منه أن يسمح لي بسؤال. كاد يذهب لكنه توقف سامحًا لي بالتحدث. بدا متفهمًا ومقدرًا لإرادتي وتلك ميزة لم يتسم بها سالم! أذن لي بالسؤال عما أريد فأحدثت خللًا في توازنه وقلت:

– كيف ماتت عليا؟

هكذا مباشرة ودون مقدمات، قلت متعمدة ذلك. لم أعطه فرصة للتفكير حتى يسقط ضحية زلة لسانه! ملامح وجهه عند تلك اللحظة كانت تحتاج العرض البطيء. ارتجف من هول المفاجأة. توقف وجهه عن الحركة وثبت نظراته على وجهي وراحت فتحتا أنفه تنفرجان وتنغلقان في توتر.

سؤالي غريب وليس في محله! جريء بعض الشيء لكنه أصاب الهدف بنجاح حتى أنني حصلت على إجابتي دون إجابة منه، وبتّت متأكدة أن رواية وفاة عليا مزيفة.

طأطأ رأسه وقال ولم يخفِ عليَّ تبدل حالته من كهل بوجه نابض بالحياة إلى رجل يحمل على كتفيه جبالًا من الهموم:

– كما تعلمين، كانت مريضة قبل وفاتها بأيام وأخفت الأمر عنا إلى أن ساءت حالتها، وقضي الله أمره. رحمة الله عليها كانت! صبورة حتى في مرضها.

هل يراني طفلة أتمسك بطرف جلباب أمي لينطلي عليّ ذلك الكلام؟ وماذا أضاف على ما نعرفه؟

ما الذي يجعل أمه ترفض رؤية سالم؟ حتى أنها منعت أبناء عليا من الدخول عليها وحرّمت عمي سلطان كزوج لها إلى يوم الدين؟ أسئلة كثيرة لا إجابة لها، وغير مسموح لنا بسؤالها لكن أنا زهوة! لساني سليط ورأسي جلاب المصائب وشؤم، لذا لن أَكُفُّ عن البحث عن الحقيقة التي لا تمت لما قيل بشيءٍ!

***

حملني سالم مسؤولية وفاة زوجته كوني فقط صديقتها المقربة. لن أنسى جملته لي بعد عودته من الجنازة ورؤيته صغيرته للمرة الأولى! نظراته لم تكن بنظراتٍ تنسى ولا كلماته أيضًا حين قال:

– لو أطعت نفسي لخنقتكِ الآن وألقيت بجثتكِ في الصحراء! لتركتكِ لتأكل الغربان جيفتكِ لكن ماذا أفعل؟! جسدكِ شرفي، وشرفي لا يمسه حتى الغربان. سأتحمل رؤيتكِ في منزلي فقط كخادمة. ضعي لجامًا على لسانكِ وإلا قطعته!

وهل للساني لجام؟ أعتقد أنهم لم يصنعوا لجامًا يليق بطول لساني بعد لكن ألجمته بنفسي في تلك اللحظة حتى لا نُحدث بلبلة في سرادق العزاء، وإلا كنت قلت له الكثير!

«جسدي شريف، عظيم على البشر فماذا عن الغربان؟ إن دفنت أدفن مكرمة ولا أصبح جيفة مطلقًا! هذا المنزل منزل أبي والأرض أرض أجدادي، وإن أردتني خادمة في منزلكَ، إذًا هذه نظرتكَ لعليا! وهذا أمر يصعب عليكَ إدراكه» لكن ماذا أفعل؟ للمتوفى حُرمة وأنا لا أتخطى حُرمة ابنة عمي. جُرمي كبير، أعتقد ذلك ولو أخبرني بِه ما تكبدت عناء توقعه لأشهر! لصرخت به قائلة «هذا ليس جُرمًا، هذا شرف لن تناله مطلقًا!»

***

– الأمر ليس بالانسجام فقط. لا أختلف عنكِ وعن نسوة العائلة بشيء! أفتقر للحنان، لقول رأيي، للصراخ بكلا أو التهليل بنعم. أود أن أشعر أنني على قيد الحياة، لي نقطة فارقة في حياة من حولي. دواس مصدر كل هذا. دواس الحنو، الأب، السند، البسمة في الصباح ونبضة القلب في المساء. حائط أميل عليه وقت المحنة. أرأيتِ؟ نجلس هكذا كل المساء ويفضي لي بما يرهقه. يقول «يكفي أن تبتسمي لرؤيتي. ابتسامكِ دواء يا ابنة هارون». هل إن كنت دواءً لأحدهم سأفكر إن كان ما بيننا حب أم انسجام؟

ذلك ما قالته محبوبة بعد أن رحل عنا دواس وأول ما قمت به هو سؤالها عنه، كيف انسجمت معه بعد غياب سفيان؟ وهل ما بينهما سار طبقًا للعادات أم للقلب علاقة بالأمر؟

إجابتها كانت كافية لكن عدم تطرقها لسفيان وزواجها منه، آثار فضولي فقلت:

– إن كان دواس كل ذلك، كيف كنتِ ستتزوجين بسفيان؟ زواجكِ به كان وشيكًا!

تنهدت وشردت بعيدًا، أعتقد إلى الماضي البعيد الذي استجلبت منه مرارته وقالت:

– تنبشين الماضي يا زهوة!

قلت لأحاول تبديل دفة الحديث نحو عليا ووفاتها الطبيعية المزعومة:

– كي نتقبل الحاضر، لا بد وأن نغلق دفاتر الماضي!

عمّقت نظراتها لي، تتفحص خبايا عينيَّ وكأن ما أفكر به دفن في أعماقهما! ارتبكت وكأنني تعريت من رداء التحدث ببلاهة الذي كنت أختبيء خلفه فقالت:

– الحديث عن دفتر سفيان أم عليا؟

التفتت إليها ورميتها بسهام الشك. أيقنت أنها ستراوغني، ولا بد أن أجاريها لأنتصر عليها فقلت:

– مفتاح الاثنين في خزانتكِ.

سؤال هذا أم جملة لفتح حديث أود الخوض فيه وبشدة؟ لها حرية الفهم. يكفي أن أحصل على غرضي من اللقاء. جمعت طرف عباءتها ووضعتها أسفل قدميها ثم فركت راحتيّ يديها ببعضهما لتجلب الدفء لهما ثم قالت:

– دفتر عليا أغلق بإغلاق القبر عليها أما عن سفيان فسأريحكِ، لم تتقبل عليا زواجي من دواس بعد وفاة سفيان، أعي ذلك جيدًا لذا سأخبركِ الحقيقة لعلك تتقبلين! أنا فتاة لا أستطيع قول لا! إن قالوا الآن لا زواج لكِ من دواس فسأدفن مشاعري في ثنايا قلبي وأرضخ، وإن قالوا تزوجيه واهنئي به فسأفعل، ويا لفرحي! هذا ما حدث من قبل. القلب كان في همه والعقل قال نعم فأصبح سفيان داخل

نطاقي، ودواس أبعد ما يكون لكن شاء القدر أن يغادر سفيان راضيًا عني ولا يكن بغيضة لأخيه، وأتزوج بدواس. لقد جاهدت لأرضي عائلتي، ورب العالمين لم يبخل عليّ! لو قلت لا لقطع أبي لساني واستخدم سفيان حقه بالمَسك، وعشت عانسًا إلى يوم وفاتي. ليت عليا أدركت هذا قبل وفاتها! دواس لم يغتصب حق أخيه بل أعاد ما هو من حقه. أنسيتِ أيام غناوة العلم[٩] وما كنا نفعله؟ لكن مادام القرار اتخذ فلا ينظرون للعيون وما تريد!

جئت أفتح دفاتر عليا لأعرف الأسباب التي أدت لتدهور العمة بريكة لكن أغلقت محبوبة دفتر سفيان بوجهي. قناعتها التامة باختيارات العائلة وسلامها النفسي تجاه قدرها مع دواس الذي صمت أمام رغبة شقيقه، وكيف سلمت مصير قلبها لرب العالمين ذكرني بحكاية قصَّتها علينا الجدة من قبل.

حين ذهب رجل إلى أحد النجوع في قديم الزمان ليطلب إحدى الفتيات للزواج كي تصبح زوجة ثانية له، تعاون الأولى في تحمل مشقة الأعمال المنزلية بعد أن نحت الزمن معالمه على بنيتها الجسدية، وافق الأهل وتمت مراسم الخطبة فعاد إلى بيته ينتظر قدوم العروس، وعند وصول موكبها وقف ابنه أمام هودجها وأطلق من غناوة العلم[٩] ما ينم عما يعتمل في صدره «تباعد إقرب بالدار.. حِرم عزيز ليوم الآخرة» أي أصبح القريب بعيدًا عني رغم أننا سنقطن في نفس البيت، وباتت حبيبتي محرمة عليَّ إلى يوم الآخرة. أدرك والده أنه طلب من تعلم لسان ابنه إلقاء الشعر من أجلها للزواج، فلم يقبلها على نفسه ووقف بين الناس برأفةٍ ورحمة يفتقرها آل هارون وأقسم أنها لن تزف سوى لولده، وهنا رضخت الفتاة لإرادة العائلة وصمت العاشق أمام رغبة والده فصالحهما القدر بما يخبؤه لهما.

٩- «غناوة العلم، عادة بدوية أصيلة من التراث الشفهي، عبارة عن جلسة يتم فيها اجتماع كبيرة العائلة بالفتيات والشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين أربعة عشر وعشرين عامًا في مكان يسمى بيت الجلاس ويتم فيها استعراض للقدرات من قبل الشاب، واختبارات تقوم بها الفتاة عن طريق إطلاقها بيتًا شعريًا واحدًا تحكي به عن موقف ما، وعلى الشاب اكماله أو لغزًا يجاهد الشاب لحله بالرد عليها بمقطع آخر، ويتبادلان الأدوار إلى أن يفوز باستحسان الفتاة فيتقدم لخطبتها أي أن المرأة البدوية توافق على ذكاء رجلها ووقاره، لا ماله وجاهه! وغناوة العلم تمارس في شتى الظروف التي يمر بها البدو، كمواسم الحصاد وجزّ الغنم والحروب والتنقل من نجع لنجع واحتفالات الصابية، وهي الاحتفالات التي تسبق يوم العرس»

لم أدخل المنزل بعد انتهاء حديثنا أنا ومحبوبة! ما علمته في تلك الليلة أثقل صدري ببنات البُؤس التي لا تنفك عنه، وكلمات دليلة ستكون جرعة زائدة يمكنني الاستغناء عنها. عدت أدراجي إلى منزلي حيث أبناء أخي، ذوو الحظ العسر.

***

مرت عدة أسابيع على مصاحبتي محبوبة، وذات مساء فوجئت بالجدة تطلب مني الذهاب إلى منزل عمي سلطان وعمي خَلَف لأطلب من العمة نعمة الحضور بصحبة الفتيات بعد صلاة المغرب، وترسل بدور لتبقى في غرفتي لرعاية أبناء أخي.

تجمعن. أعتقد أنهن يحاولن توقع سبب تلك الجلسة الهامة، خاصة بعد وصول العمة سليمة وهلالة وفوجئن بي أدخل إلى المحرم، أمسك بذراع العمة بريكة لأعاونها على السير. التففن حولها يهنئنها باستعادة صحتها ولو قليلًا، ويصبرنها على مصابها، دون أدنى تجاوب منها. لقد زهدت الحياة وعافتها ولن تعود لها، هذا ما قرأته في عينيها.

علمت من الجدة أثناء ذهابنا لإحضارها أنها اشترطت عدم رؤية أبناء عليا فوعدتها الجدة بذلك. القيامة على وشك أن تقوم! جدة تتبرأ من أحفادها بعد وفاة والدتهم في ريعان شبابها.

لو أتوصل إلى سبب ذلك الجفاء! ذلك ما فكرت به وأنا أقف أمامها مشدوهة من نفضها يدِ محبوبة. المثير للسخرية أن محبوبة أيضًا أصبحت شؤمًا في عينيها. للمرة الثانية تفقد ابنًا من أبنائها قبيل زفاف محبوبة.

صفقت الجدة بيديها في علامة منها على بدء الحديث. الجدة ستفجر قنبلة ستشتت الجلسة، وأشلائنا ستتوزع بين السماء وسابع أرض! ذلك ما أدركته عندما حكت ذقنها بظهر كف يدها. تلك عادتها ما إن تخشى الحديث وتحسب مدى كل كلمة ستتفوه بها. دون مقدمات قالت:

– استعدي يا محبوبة، زواجكِ من دواس يوم الخميس بعد القادم. أمر عملكِ سلطان باستئناف الاستعدادات.

صرخت العمة بريكة وما زالت مفترشة المربوعة قائلة:

– لا والله! روح من ستأخذ هذه الشؤم؟

– لا يقال على ابنة الحمد هارون شؤمًا، ومن يقولها أقطع لسانه! تأدبي يا بريكة! لولا ما تمرين به لكان لي حديث آخر، ولعلمت من زوجكِ كيف تكون ابنة أخيه شؤمًا!

هل أزعجتها كلمة شؤم؟ شعرت أنها خطأ بحق محبوبة. هل ما منعها عن قطع لسان العمة هي حالتها الصحية؟ سالم يقولها منذ سبعة عشر عامًا ولم تقل له عيب حتى! عجيب أمركم يا أهل البادية! تقبلون من رجالكم ما تقطعون ألسنة نسائكم من أجله.

قنبلة الجدة ما زالت في جوفها، لم تتفوه بها بعد لذا استعددت لها ودعوت ربي ألا يكون العرس مزدوجًا وأكون أنا العروس لكن متى أتت الرياح بما نريد؟

تابعت الجدة وهي تضع كفيها على ركبتيها كرفض للمجادلة فيما ستأمرنا به:

– إن كانت محبوبة زينة فتيات البادية شؤمًا فادعي ربكِ ألا يجعل نصيب دليلة كنصيبها، وجهزيها! سيدخل بها ابن عمها سالم يوم عرس دواس.

(٨)

وأخيرًا سيحدث ويتذوق قلب بدوية تقطن هذا المنزل طعم الفرح! بغض النظر عن الشبهات التي حامت حول وفاة عليا آنذاك لكن الوحيدة في منزلنا التي عرف التبسم طريقًا لروحها فيما يخص أمور القلوب كانت هي. أحبت سالم حبًا جمًا، لم تبخل عليه بما تملك وهو لم يقصر! استنزفها ببزخٍ، والعائد بسمة زائلة وسويعات تتذوق فيها العشق بين يديه.

ما بين عليا وسالم لا يمت بصلة لعلاقة التآلف والمودة بين جدي حمد وجدتي صافية، وفاق ما بين محبوبة ودواس حكاية أجدادي عشقًا واحترامًا وصبرًا على الفراق لتحين لحظة الوصال، تلك اللحظة التي تلاعب بها القدر وسلط عليها مصائبه ليصبح تبسم محبوبة مختلفًا عما كانت تتطلع إليه، يشوبه الذل والمهانة ويشي بأن القادم ليس الأجمل لكنه الأفضل! من المؤكد أنها عاشت أشياءً أجمل من أن تصبح نذير شؤم على منزل زوجها!

ابتسمت محبوبة على إثر إعْلان زواجها من شجاعها العاشق لكن لم تدم بسمتها سوى ثواني، وتلاشت بفعل تنديد العمة بريكة به وصدمة دليلة عند معرفتها بزواجها من سالم.

سالم الكهل ذو الأربعين عامًا ودليلة ابنة الخمسة عشر ربيعًا. ماذا تعرف عن الزواج لتصبح زوجة لرجل أثبت عدم أهليته له؟ إنه خير رجالنا، عمود العائلة الصلد لكنه أب وزوج وأخ سيء للغاية، وهي تستحق أن تكون الأولى. الأولى كزوجة والأولى كسيدة منزل والأولى كأم والأولى كابنة، فما الزوجة إلا باكورة الأبناء.

حينما قرر سالم زواجه منها لم يختر زوجة له، وإنما خالة وأمًا لثلاثة أطفال! هل هذا ما هداه إليه ضميره ليعوضهم، أن تصبح دليلة جاريته ومربيتهم؟ هذا ما دار

في خلدي في اللحظات التي هاجت وماجت بها العمة بريكة، رافضة تقديم دليلة إلى سالم كضحية.

حملقت دليلة بالجدة وقد غادر بؤبؤا عينيها مكانهما. أعتقد أنهما استقرا في عقلها، يودان الكشف عما يدور به. توالت الشهقات وارتفعت الأيدي لتُغطي الأفواه فتكبح الكلمات المكبوتة التي تنم عن عجز القلوب المكلومة أمام قسوة القدر، فعليا ماتت وسيزوجون سالم دليلة، دليلة؟ لحظة! لقد عاد بؤبؤا دليلة إلى مقلتيها وتهدلت نظراتها وارتخت شفتاها.

هل لقدرتها على رفض الزيجة والصراخ «بكلا» دون أن ترف لها عين أم لأن روح عليا تلبستها وسنعيد مشاهدة مسلسل جديد لعليا وسالم، ببطولة دليلة؟ ذلك السؤال الذي انتظرت إجابته لمدة ليست بطويلة. صرخت العمة بريكة وهي تحاول مغادرة المحرم:

– لا والله لن أعطيها له! أخذ اثنان فليترك لي الثالثة! أتضعون ابنتي بين راحتيّ يد أكل لحمه؟ دليلة لا وألف لا!

ماذا كان عليّ أن أفعل؟ هل أذهب معها لأساندها كي لا تسقط أم أمنعها عندما تفر هاربة لتلقي بنفسها بين أحضان الجُبّ أم أنتظر للاشتراك في حربٍ وشيكة الحدوث بين الجدة ودليلة أو العمة نعمة والجدة أو أنا والجدة؟ بكل حال من الأحوال لن أسمح لدليلة بتربية أبناء عليا.

ذهبت أمي خلف العمة بريكة ذات القلب المكلوم والروح المهترئة، من فقد فلذات الكبد فقررت أن أُعلن عما يعتمل في صدري فقلت:

– وهل انتهت النساء ليتزوج سالم من خالة أبنائه؟ لا والله، لن أسمح بذلك!

– من أنتِ لتسمحي أو لا؟ رأيكِ في هذا الأمر لا يُعتد به، كتلك المربوعة التي تجلسين عليها. اعلمي أين تقفين وأين تسقط كلماتكِ يا زهوة!

قالت الجدة، وإن كانت النظرات تقتل لقتلتني نظراتها فبرأيها وجودي يشبه قطعة من الجماد، تُستخدم لسد احتياجات الحياة، لا رأي لها لكن بفائدة عظيمة يُنتفع بها،

ويا للعجب!

نهضت وكدت أغادر المجلس فكلماتها لم تلقِ استحساني. ودِدتُ أن أحذرهم من المساس بما يخصني في ذلك المنزل والذي لن أتهاون به لو كلفني الأمر روحي:

– حسنًا! ليس لي شأن بهما! ليتزوجها أو حتى يخنقها لكن لا علاقة لها بأبناء عليا! أقول عليا وليس أخي فليس لي سلطة على ما يتعلق بسالم أما عليا فسلطتي أمارسها كاملة على كل ما يخصها، وإن كانت الحُجة الصغار فسأربيهم أنا، ولتهنأ دليلة بزوج شقيقتها!

وكما كادت نظرات الجدة تحرقني، كلماتي أضرمت النيران في قلوبهن. قلت ما لم يتجرأن على الهمس به وليس الصراخ في حضرة الجدة! لمحت شبح ابتسامة رضاء في عينيّ كل من العمة نعمة وهلالة ومحبوبة، انتفخت أوداج صدري على إثرها. كل ذلك الوقت وأنا انتظر رفض دليلة واستنكارها تلك الزيجة لكنني صُعقت وأُضرم الشلل في أطرافي عندما عنفتني قائلة:

– ومن أنتِ لتمنعيني؟ أبناء أختي أنا أحق بالعناية بهم. لو سُأل سالم لقرر ابعادكِ عنهم. لن أتركهم لكِ لتلقي بهم من الهاوية كما فعلتِ بها! إن تطلبت مصلحة العائلة وأبناء عليا زواجي من سالم سأفعل. كما قلت لكِ من قبل، العائلة فوق الجميع.

امتد الشلل إلى لساني فلم أجد كلمات تعبر عما حلّ بي من هول ما سمعت. هل أعلنت دليلة موافقتها على الزواج؟ هل أزالت برقع الحياء وتعلنها صريحة؟ هل قامت باتهامي بقتل عليا؟ هل أنقض عليها الآن وأقتص منها بقطع لسانها ثم خنقها؟ احترت حينها كيف أردها إلى صوابها لكن كالعادة، الجدة أسرع في رد الفعل:

– لا أنتِ ولا زهوة لكما شأن بأبناء سالم هارون، هو فقط من يقرر تحت كنف من يضعهم. حتى عليا رحمة الله عليها، لا قرار لها في هذا الأمر لو كانت بيننا، وهل جاءت بهم عندما خطت قدماها غرفة زوجها كعروس؟ لا نساء عندنا يسحبن

خلفهن الرجال كالخراف! قرر أبوكِ يا دليلة وانتهي الأمر. إن كان لكِ رأي آخر قولي لا، ولتنتظري موافقة سالم على زواجكِ من آخر طوال عمركِ ولن تناليها! وأنتِ يا زهوة، ضعي لسانكِ في فمكِ واصمتي! لو لا أنني أعرف طباعكِ الحسنة لقلت أن الحقد يغلي في دمائكِ!

رفعت سبابتي مؤكدة ما سأقول، محذرة أن يقاطعني أحد ثم قلت وقد شقت عبراتي طريقها:

– كالعادة يا جدة، لا يستطيع لساني السكوت عما يحدث من اغتصاب لحقوق الضعيف منا، وأنتِ تعرفين ذلك حق المعرفة لكنكِ تكابرين تحت راية العائلة! وتلك المتباهية تسير على نهجكِ دون أن تعي فداحة وقبح ذنبها بحق نفسها هذه المرة. لست زوجة سالم لأغار عليه منها! إنه شقيقي، وإن تمنيت له عروسًا بعد عليا لن أجد خيرًا منها لكنها تستحق من هو خير منه. ماذا ستفعل بالخمسة وعشرين عامًا التي سبقها وعاشها في الحياة قبلها؟ أين ستضعها؟ هل فوق أكتافها كحمل يُحني ظهرها أم في قلبها فيجثم عليه ويقصَف عمرها قبل أوانه؟ كيف ستعادل كفتي الميزان وهناك فارق في العمر، كبير بهذا الحجم؟ التفتت إلى دليلة وقلت كلمتي الأخير التي لم تتبعها كلمة:

– لتشهد على ما أقول عمتي سليمة وعمتي نعمة والفتيات وعلى رأسهم الجدة، هذه كانت كلمتي الأولى والأخيرة بخصوصكِ. تزوجيه وانجبي منه مئات الفتيات لكن لن أتركِ تصنعين من ثريا وعليا الصغيرة عليا جديدة. قومي بالاعتناء بهما وبتربيتهما لكن لا تبخي سمكِ في عقليهما! لا تجعليهما تفضلان مصلحة من لا يكترثون لأمرهما على مصلحتهما! اختنقي يا دليلة، ولو صرختِ لن أنجدكِ! قالت دليلة بشموخ وعزة نفس لم أتوقعهما منها:

– سأتزوجه من أجلهم وسأعتني بهم، والخنق ليس جديدًا عليه، عادته وقد مارسها باحترافية.

– سأقطع لسانكِ يا دليلة إن تفوهتِ بحرفٍ زائد! انتهى الحديث. إن أردتِ تزوجيه وإن لم يعجبكِ فذلك البحر هناك، والحديث موجه لكِ أيضًا يا محبوبة.

اغربن عن وجهي! لا أريد سوى سليمة.

قالت الجدة، فكانت كلماتها كالسكين الذي قطع رباط الحديث ولم تعلو كلمة فوق كلمتها، فرحلنا في عجالة كُل إلى منزلها.

لم أعطِ الأمر أهمية أو أتعمق في فهم وإدراك ما يرنو إليه حديثها، لو فعلت لما تمت تلك الزيجة، حتى لو سالت دمائي بدلًا عن الذبائح.

***

نحن في مجتمع تحكمنا الأعراف ونسير على نهج أجدادنا. الاحترام فالاحترام، والاعتزاز بما نملك من تاريخ وموروثات. قرارات القبيلة أو شيوخ العائلة دومًا ما تنصب في مصلحة الجميع لا فرد بعينه، حتى وإن دفع فرد منا الثمن غاليًا كالذي دفعته دليلة! ستتحمل فارق خمسة وعشرين عامًا سبقها سالم بها في الدنيا، وسلب منها ما أراد ليتزوجها في نهاية المطاف وتصبح كالآلة التي تعمل على خدمة أربعة أفراد قابلين للازدياد.

تلك العادات هي نفسها التي جعلتنا ننشئ المقابر الخاصة بآل هارون على مقربة مائة متر من المنزل، كأن أمواتنا أرادوا استقبال ضيوفنا قبلنا!

سالم لم يظهر حزنه على عليا شفهيًا قط لكن لهجته وصوته، نظراته وتعامله مع أبنائه، أظهرت ذلك بغزارةٍ. في الصباح التالي للإعلان عن زواجه من دليلة تفاجئنا باصطحابه عليا الصغيرة خارج نطاق المنزل. حملها كالكنز الثمين بين يديه، إنها بدوية محظوظة! هل ابتسمت لها الحياة بوفاة والدتها لتحظى بحب واهتمام سالم إلى هذا الحد؟

خمنت وجهته فأصبت. راقبته سرًا، تلصصت عليه لأجده يجلس أمام قبر عليا ويستند على شاهده بظهره. محرم ذلك الفعل دينيًا لكن جسد سالم الذي مال على شاهد قبر زوجته باسترخاء وكأنه وجد ضالته، وعينيه اللتين شردتا في السماء، هل تبادل النظرات مع عليا أم ماذا؟ ويديه اللتين راحتا تتحركا بحنوٍ على رأس

الصغيرة، كلها أخبرتني أن سالم في أمس الحاجة إليها والشوق ينهش روحه. لو أحسنت إليها!

«لو بدلت نظرات الغضب بالحب، لو عاملتها بالنهار كما الليل، ما مِلت على شاهد قبرها لتنعم بالطمأنينة! لكان لهذه الصغيرة اسم تبتهج بفضله، لا ليذكرها كل من ناداها أن والدتها توفيت قبل مجيئها إلى هذه الدنيا!» ذلك ما ودّ قلبي الصراخ به وأنا أتابعه. أسر إليها بالكثير لكن فشلت أذناي في التقاط حرف منه لبعد المسافة بيننا لكن عينيّ فعلتا والتقطتا عبرة هاربة فرت من عينيه سارع في إزالتها، وراح يتلفت من حوله متوترًا، خشية انكشاف أمر بكاءه على ما أظن.

نهض باندفاع كعادته، يُحسن إليها ثم يخشى الضعف أمامها بتلبس رداء القوة والخشونة. وضع يده على القبر ثم ابتسم تلك البسمة المغلفة بالمرارة والحزن. أعرف تلك البسمة فمنذ وفاة عليا لم تعرف شفتاي سواها! قبَّل الصغيرة وما يزال متمسكًا بابتسامته. رحل عن عليا، وقبل أن يبتعد بضع مترات التفت ينظر إليها مرة أخرى. أعتقد أنه تلك المرة رحل عنها بالفعل! ودعها معطيًا مكانها لأقرب المقربين إليها.

على إثر المكان وممتلكات عليا، قررت أن أضع حبة ملح على جرح دليلة دون أن أنبس ببنت شفة لعلها تستفيق! تركت أخي يدلف إلى المنزل وبعد بضع دقائق عدت أنا الأخرى.

توجهت مسرعة إلى صندوق وضعته في ركن ما في غرفتي، أخبيء به أشيائي الثمينة، وأغلى ما فيه كانت تلك الحوايا التي أبت عليا أن تعطيها لمحبوبةٍ حتى لا تشهد على عشقها لدواس، وأقسمت أن تكون من نصيب دليلة لتنعم بها وتقوم بوضعها في غرفة زوجها، ليشاء القدر أن تشهد على زواج دليلة من سالم.

تُرى ما هو شعورها لو كانت تعلم أن تلك الحوايا هي هديتها لهما في عرسهما؟ بالتأكيد كانت ستقطع يديها اللتين صنعتاها وتفقأ عينيها اللتين اختارتا ألوانها.

حملت الحوايا بين يدي وغادرت غرفتي، لا أرى أمامي سوى عليا وشباب دليلة

الذي دُفن مع الخمسة وعشرين عامٍ القابعة على أكتافها. في طريقي إليها رأيت قطع من الأثاث موضوعة في شرفة منزل عمي سلطان فعلمت أنها أثاث غرفة نوم دواس الجديدة.

عندنا لا تحضر العروس شيئًا معها عند مجيئها إلى منزل زوجها سوى بسمتها وحسن خلقها وطاعتها له وتدبيرها إدارة شئون المنزل وتلبية احتياجات قاطنيه، والرجل يجهز غرفة في منزل أبيه تجهيزًا كاملًا، حتى جاجيات العروس هو من يقدمها كهدية لها. تقابلت مع محبوبة مبتهجة الوجه على الدرج. سقطت نظراتها على ما في يديّ فقالت وهي تحاول دفعي لمغادرة المنزل:

– إياكِ يا زهوة! لا تزيدي من حزن العمة بريكة! رؤيتها ما بين يديكِ حزن زائد عن قدرة تحملها.

دفعت يدها بعيدًا عني وقلت وأنا أشق طريقي إلى الداخل:

– ليحدث! لعل ابنتها تستفيق!

– لا يا زهوة، أرجوكِ لا تفعليها! العراك بينها وبين عمي سلطان على أوجه. ارأفي بقلب أم مكلومة على ابنتها.

قلت وقد مست كلماتها الجزء الضعيف من قلبي:

– لهذا السبب جئت، حتى لا تصبح دليلة عليا جديدة.

توجهت مسرعة إلى المحرم، حيث نساء المنزل ومن ضمنهم دليلة التي كانت تعد الطعام. حالتها مزرية ووجهها كقطعة القماش البيضاء الموضوعة على الفاكهة لتحميها من غزو الحشرات الطائرة. خصلاتها تمردت فخرجت من أسفل حجابها.

«ألم تخشَ عيني بدر وهي تمر من أمامه أم أن مصيبتها ألجمت عقلها عن الإدراك؟» قلت وأنا أقف خلفها مباشرة وسط متابعة عمتي بريكة وعمتي نعمة:

– مبارك يا دليلة! هذه هدية عليا لكِ. كانت قد وعدتكِ بها لكن سبقها القدر

ولم يمهلها الوقت لتعطيكِ إياها. كنت قد خبأتها عنكِ حتى أعطيكِ إياها عند زفافكِ. اهنئي بها أنتِ وسالم. ألم تقسم عليا ألا يستخدمها سواكِ أنتِ وزوجكِ؟

لأول مرة كرهت نفسي ووددت أن ألتقط السكين الموضوع بجانب القِدر وأطعن قلبي المتحجر به، قلبي الذي لم يرأف بابنة عمي وقليلة الحيلة دليلة! ليت لساني قُطع قبل أن تطعن كلماتي قلب العمة بريكة الممزق لكنني اخترت أن تتمزق القلوب الآن قبل أن تصبح دليلة ضحيتنا الجديدة.

ألقيت الحوايا على الأرض بالقرب من قدميها والتفتت لأغادر فسمعت والدتها تقول:

– لينتقم ربي منهم! ليتجرع سالم مرارة الكأس الذي جرّعني إياه ثلاث مرات! لأرى دمعات مكتوبة العاجزة وصرخات قلبها قليل الحيلة!

فهمت مغزى دعواتها، إنها تدعو ربها أن أهلك بغيابة الجب. لم أحزن منها، وهل ألوم على الضحية كرهها جلادها؟ لكنني أردت ألا يكون في قلبها ضغينة لي فقلت بعد أن جلست أمام ركبتيها، واستندت عليهما:

– جئت الآن حتى أنقذ آخر حبة في عِقد الأحبة يا عمة، وإن كان سالم ظالم فلينتقم ربي منه بي! ادعي يا عمة، ادعي ربكِ ولا تخشي لومة لائم!

أشرت إلى دليلة الصامتة كمن ابتلع القط لسانها وقلت:

– قومي بالدعاء لتلك المتهورة أن تعود إلى صوابها.

***

الأعراس عندنا ذات طابع خاص، حالها كحال كل شيء حولنا. نحن نختلف عن كل بقاع الأرض التي تحيط بنا. تسبق مرحلة الخطبة مراحل عدة لم تمر بها أي من الزيجات في عائلتنا، كرؤية والدة العريس للعروس والإرسال في طلبها وردّ والدها باعطاءه فترة تسمى»ردّ مشور» يستشير فيها أقرباءه وإخوته إن كان فيهم رجلًا

يريدها زوجة لإبنه.

عدا ذلك مرت زيجاتنا بكل مراحل إتمام الزواج، كالحلوان[١٠] والاتفاق عليه إما جنيهات ذهبية أو إبل، والسياق[١١] والذبائح والولائم التي تقام لإشهار الزواج،ومن بعده «الصابية» وليلة الحناء والزفاف الذي ينتهي عادة في الظهيرة.

لقد ولدنا وأسماؤنا مرتبطة بأسماء أبناء عمومتنا عدا محبوبة وشقيقتي روضة التي توفيت في سن السابعة على إثر الحمى، لقد ولدت واسمها مقترن باسم مؤمن ابن العم سلطان لكن وقفت وفاتها في الصغر حائلًا بينهما! وما أحدثته وفاة سفيان من خلل في نظام العائلة ووضع اسم دواس في الخانة المخصصة له، وهبط مؤمن إلى الخانة التي تليها.

كنا نعتقد أن دليلة ستحتل الخانة المقابلة لاسم مؤمن بدلًا عن روضة لكن فعلها الموت مرة أخرى فأصبحت دليلة لسالم وسالم لدليلة، وبات مؤمن وحيدًا في خانتين متقابلتين، يحتاج عروسًا تملأ الخانة المقابلة لاسمه. في الحقيقة هناك فكرة لعينة راودتني حينها، ووددت إلقائها بوجه العمة بريكة حتى تكف عن ازعاج محبوبة لكن حساسيتي تجاه الأمر منعتني! لقد مررت بذات المعاناة ولا أريد لمؤمن أن يتذوق نفس الألم عندما أنعته بالشؤم، فأنا ومحبوبة بريئتان من تهمة الشؤم، وإن كان هناك نذير شؤم في منزلنا فلن يكون أحد سوى مؤمن!

عاداتنا البدوية صارمة، لا لقاء بين العريس والعروس سوى بعد عقد القران، والتجهيز لعش الزوجية يقتصر على أثاث غرفة في منزل العريس. بخلاف الاحتفالات التي تقام قبل ليلة العرس بأيام وأحيانا بأسابيع، كنا سنعقد الصابية[١٢] لأسابيع كما حدث في زفاف سالم وعليا لكن الظروف لم تسنح لنا بذلك، واكتفينا

١٠- المهر

١١- الاشهار

١٢- الصابية هي احتفالات تقام قبل ليلة الزفاف، يقوم بها الأهل والأحباب بممارسة الشتاوة، الغناوة، والحجيل، وأحيانا بحضور اللعابة. الشتاوة هى أغنية طويلة لكن لها مردود إيقاعى يساعد على التصفيق أما الحجيل فهو الرقص الخفيف على ايقاع آلات موسيقية بدوية.

بليلة الحناء.

كانت دليلة قنبلة موقوتة محتملة الانفجار في أي لحظة، وعلينا أن نبتعد عنها محذرين «هذه الفتاة ملغّمة، احذر خطر الموت!»

مات شقيقها في خلاف أول من بسط يده له كان سالم. ماتت عليا في ظروف غامضة بتوقيع سالم. مرضت والدتها وحرّمت أبناء سالم عليها، وقبل أن ينسدل وقت الحداد على شقيقتها أي زوجة سالم، قرروا تزويجها له دون أخذ الرأي، دون طلب مهلة «رد مشور» لعل لديها عرض آخر أفضل! لكن كلمة من ستعلو على كلمة ابن العم طالب الزواج؟ أي أن سالم هو سارق كل جميل في حياة دليلة. أتنبأ له بحياة حالكة السواد على يديها، واستنادًا على ما سبق قررت أن أبتعد عن طريقها. لها دينها ولي ديني، لها معتقداتها ولي نضالي الذي لن أتوقف عنه!

أما محبوبة فيا لسعدها! وأخيرًا ستهنأ بجانب من استمال قلبها! طوال الاسبوع، المهلة المحددة قبل العُرس لم تخلُ حياتها من مناوشاتها مع والدته فأمرت الجدة أن تخرج من المنزل وتأتي إلى منزلنا لتبقى في غرفتها إلى أن يحين يوم الزفاف. قالت إنه نوع من أنواع الترغيب. أبعدتها عن دواس ليرغب بها، والحال أنها أبعدتها عن لسان العمة بريكة الذي بات سليطًا على غير عادته.

حذرتنا الجدة من مجاراتها في الجدال وطلبت من العمة نعمة تحمل تقلب طبعها. الجدة تعلم أن لديها ما يجعلها على صواب لذا تصمت فأعطيناها كل الحق وابتعدنا عنها إلى أن جاءت الليلة التي تسبق ليلة الحناء. اجتمعنا بالجدة التي طلبت لقاء دليلة أولًا، وبعد حوالي نصف الساعة دلفنا إلى المحرم ففوجئتُ بعيني دليلة المتورمتين تعلنان عن بكاؤها لأول مرة منذ الاسبوع المنصرم. ها قد رأيت ضعف عليا في عينيها! تساءلت ماذا أفعل، هل أقول ما شأني كما قررت أم أذهب إليها وأخبئها بين أضلعي كأبناء عليا فهي لا تقل يتمًا عنهم؟ وجدتني أدير وجهي عنها. دليلة أكثر من هاجمني لدفاعي عن عليا فلِمَ أدافع عنها؟

تحلقنا حول الجدة، دليلة أنا وهلالة ومحبوبة وبدور وثريا. ابتسمت الجدة لمحبوبة

بحنوٍ وكأنها تقول لها «ليضحك سنكِ دائمًا» ثم ألقت عليّ الجرد[١٣] قالت:

– استعدي يا زهوة، ستخرجين كلعابة على الصابية غدًا.

١٣- الجرد هو قطعة من الزي البدوي بيضاء اللون وهو نوعان، جرد رقيق يتم ارتداؤه في الصيف وجرد جريدي ثقيل شتوي

(٩)

– بالطبع نستطيع توقع الفريق الخاسر في الصابية غدًا يا ابنة عمي اللئيمة.

قالت محبوبة وعيناها تلمعان بالمكر، تحاول المراوغة للكشف عن حال شقيقها في الغد وأنا أتمايل أمام عيون رفقائه والأهل بينما يجتهد بالغناوة ليبرز قدراته ويستميل عقلي نحو فريقه دون أن يستدل على هويتي. دواس وبدر هما شاعرا هذا الزمان، لا يمتلك أحدهما قدرات تفوق الآخر وإنما لديهما قدر وافٍ من الفطنة وملاحة اللفظ، ورغم كل ذلك ستربح كفة فريق دواس ليس لكونه زوج محبوبة المنتظر وحسب وإنما عنادًا ببدر، ويا لسعادتي إن استطعت الكشف عن هويتي وأنا أعلنه خاسرًا رغم فصاحة لسانه! لكن إن فعلتها سيفصل سالم رأسي عن جسدي لذا سأكتفي بأن أمارس عليه ذكائي وحيلتي وأقتص منه لآثام لم يرتكبها لأنه لم يفعل حينها شيئًا أقتص منه لأجله. ماذا أفعل بقبح ظنوني؟ دومًا ما أخبرتني أن يد بدر هي تلك اليد التي ستدق آخر مسمار في نعشي. أجبتها قائلة:

– أي لؤم يا عروس؟! أنا قطيعة اللسان هادئة الطباع لا أثير المشكلات إطلاقًا. صوتي لا يسمع ولساني لا يتعدى حدود شفتيَّ. لِمَ كل هذا الظلم والتعنت بحقي؟ هل تغارين كوني اللعابة في صابية الغد؟ إن كنتِ كذلك أخرجي أنتِ ففي كل الأحوال لن تكشف هويتكِ.

انتهى تهكمي الصريح ثم انفجرت في نوبة ضحك، تبعها لساني يتراقص خارج فمي في ابتذال جعل مقلتيّ محبوبة توشكان على مغادرة موضعيهما من فجاجة أكاذيبي.

قالت بعد أن شاركتني الضحك:

– من قال ذلك؟ بالطبع سيكشف دواس هويتي كما فعل وقت زفاف سالم. قلت مستفهمة:

– كيف فعل ذلك وأنتِ ترتدين الجرد وسائر جسدكِ مغطى من الوجه إلى القدم؟

التمعت عينيها بوميضِ الحب وقالت:

– أي جرد يا زهوة؟ قلوبنا تلاقت فهل يحتاج الحب إلى عينين كي يبصر محبوبته؟

قلت لمراجعتها فيما ذكرت فبحسب ظنوني حين زواج سالم كان سفيان يقف كالصقر في الصابية، وكانت هي صغيرة جدًا على تلك الأمور:

– لكنه وقتها لم يكن زوجكِ أو حتى قد تقدم لخطبتكِ. حتى أنكِ كنت على اسم رجل آخر رغم صغر سنكِ.

تنهدت فندمت على فعلتي حين لاحظت سحابة الحزن التي غلفت عينيها.

– كما قلت لكِ من قبل، قلوبنا اختارت قبل قرار الأهل لذا كبت غضبه ليلتها ولم يستطع الافصاح عنه لكنني أذكر أنه تسلط على عمتي بريكة ونشب بينهما خلاف على سبب لا يستحق، وأقام القيامة إلى أن تدخل سفيان بالأمر فقال له حرفيًا «ابتعد وإلا فقأت عينيكِ!». حينها تعجبت لِمَ عينيه تحديدًا والحال أن الغيرة استحالت بينه وبين أخيه.

– وما أدراكِ أنه تعرف على هويتكِ وغضبه كان لذلك السبب؟

سألتها واضعة يدي أسفل ذقني، أتفحص ردود أفعال مُحياها المندمجة مع ذكرياتها:

– بعد عقد القران صارحني. كما تعلمين، لم نتبادل الحديث إلا بعد أن أصبحت زوجته. حينها اعترف لي بحبه وبغضبه يوم خرجت عليهم كلعابة ووضعنا قوانين لا نحيد عنها، هو سيغض بصره عن أي فتاة مهما كانت الاغراءات وسننتظر أن تحين لحظة اجتماعنا وسيعوضني عن كل ما مر عليَّ، كما أنه سيقف في صفي إن أُمرت بفعل شيء لا أرتضيه لنفسي لذلك إن كنت قلت لا أريد المبيت مع الجدة ما جئت إلى هنا مطلقًا وكان سيرفض فقط وفاءً بعهده.

هذا ما أردته من الحياة أو بالأحرى ما تتمناه أي فتاة تتنفس على هذه الأرض، أن تجد من يحفظ عهده معها ويفتح ذراعيه مرحبًا بعداوة الكون بأكمله كي لا

تفعل امرأته ما لا يرضيها. أن يكون تلك القشرة الصلدة التي تغلفها وتحميها من بطش الحياة وقسوة ساكنيها.

قلبي كان يخبرني أن بدر سيكون كذلك والجدة أيضًا لكن لم أستطع تقبله كزوج وما زلت. فكرة الزواج من الأساس لم تعد تستهويني على عكس محبوبة التي قضت ليلتها تتجهز من أجل زفافها. اعتنت بشعرها باستخدام الوصفات التي ستجعله يسلب لب دواس وقلبه ولم تبخل ببعض الزيوت العطرية التي جعلت كل من يقترب منها يسكر من عطرها وكأنه تجرع الكثير من كؤوس الخمر، ولا بأس من المزيد. أبدعنا طوال الليل برسم الحناء على المناطق الفاتنة في جسدها. أرادت دواس وأرادت أن يريدها بجوارحه كاملة لذا لم تقصر!

كنت على عهدي مع نفسي، لن أقترب من دليلة ولم أفعل لذا رافقتها هلالة وساعدتها في التحضيرات لمراسم ليلة الحناء والزفاف. في الظروف الطبيعية كنا اجتمعنا وأحيينا الليلة التي تسبق الحناء كما يجب أن تكون لكن لها ما لها وعليها ما عليها، وليسعدها ربي بعيدًا عني!

استيقظت على صياح أمي المتكرر باسمي ومع ذلك تجاهلته لعدة مرات فليلتي انتهت مع زقزقة العصافير بعد أن تسللتُ خلسة إلى سطح المنزل لأراقب سطوع شمسي، ولم أنم تلك الليلة سوى ساعة واحدة.

قالت محبوبة وهي تدفعني بعيدًا عنها حتى تنعم بنومٍ هنيء بعيدًا عن صياح مزعج باسمي:

– هيا استيقظي يا بلائي واغربي عن وجهي! لا يقبل جفناي أن يفترقا. اتركوني لأغفو لبعض الوقت.

حدقت بها فاغرة فاهي وقلت:

– ولِمَ أنهض وحدي يا عيني، هل العُرس لكما والركض لزهوة؟

أبعدت الدِثار الذي كانت تواري جسدها به من أعلى رأسها إلى أخْمَص قدميها،

وقالت وهي تحدق بي بنظرات تنم عن تهديد صريح لا يقبل الشك:

– زهوة، أقتلكِ الآن! هل تريدون أن أطل على نساء القبيلة بعينين منتفختين ووجه شاحب، ويقولون زوجة دواس شَيْنة؟

ابتسمت رغمًا عني. إنها تدس اسمه في كل جملة تقولها. تحبه، وهذا شيء لا يمكن انكاره ولا بد من دعمه فقلت:

– حسنًا! ساعة واحدة فقط، وهذا من أجل خاطر ابن عمي.

قالت وهي تحملق بي وكأن الشرر يشق طريقه نحو لساني الذي تفوه باسمه ليحرقه:

– ابتعدي عن زوجي وإلا أذبحكِ وأتركِ للشمس فتشويكِ، وأقدمكِ لهم كوجبة وليس كلعابة!

اعتدل مزاجي بفعل مزاحها وتلك الهالة من السعادة التي غلفت محيطها فغادرت الغرفة وأنا أقول:

– لا، إن كان الأمر هكذا سأخرس. سأخرج اليوم كلعابة وسنتسلى كثيرًا. يكفي أن تتابعن من خلف النوافذ.

***

انصرم اليوم في التحضيرات والذبائح، وطهي أنواع الطعام الخاصة بنا بكميات كبيرة جدًا تكفي لمئات الأفراد. رزّ أحمر وآخر أصفر، واللحوم مقدمة بشتى أنواعها بالإضافة إلى أطباق لذيذة من العصيدة[١٤]

اجتهدنا لنقدم لمهنئينا ما يليق بنا كآل هارون، وعندما تأكدنا أن كل شيء سار على ما يرام، ذهبنا لنستعد لحفل الحناء.

هذا هو حال المرأة البدوية، عقلها يدبر شئون العائلة وقلبها يحنو على الضعيف

١٤- وصفة من وصفات الطعام التي يشتهر بها البدو، مكونة من الدقيق والماء والسمن والعسل الأسود. يتم تقديمها للزائرين وفي المناسبات واحتفالات المولد النبوي الشريف.

منها أما يداها فتقومان بجميع الأعمال المنزلية بداية من طهو الطعام إلى تربية الأغنام والطيور، واستخراج منتجات الألبان بالإضافة إلى احترافها الكثير من الحرف اليدوية والتي من الممكن أن تصبح مصدرًا يدر عليها دخلًا بجانب استخدام ما تقوم بصنعه في تلبية احتياجات الأسرة.

المرأة البدوية تستطيع إدارة حياة كاملة دون قول آه، وكما تقول الجدة «نحن في الصحراء رعاة وفي الحروب طبيبات وفي الخيام مصدرًا للحياة وفي الغياب بقلب الرجال».

عند مغيب الشمس، اتجهنا إلى الخيمة المجهزة للاحتفال. كانت تبعد بضعة أمتار عن المنزل في الجهة الخلفية منه. اختيار موقعها كان بأمر من الجدة، وهل كنا سنحتفل بزفاف سالم بالقرب من عليا؟

تلحفنا الأسوَد عند عبورنا الممر الذي يربط بين الخيمة والمنزل، فاحتفالات النساء عندنا بها فيض غزير من الجرأة في الثياب والتبرج، كعروض الأزياء التي نسمع عنها ولا نشاهدها. كل منا تحاول إبراز أجمل ما لديها من مفاتن وثياب، وهذا لا يظهر إلا بين جنبات الخيمة المخصصة للاحتفال. كل شيء مباح لنا طالما لن تبصرنا أعين الرجال.

بعد بسط الولائم وتقديم واجب الضيافة من الحلوى والفول السوداني، بالإضافة إلى الشاي الزردة والشاي الأخضر، بدأت فقرات الاحتفال التي تتضمن أغاني وأهازيج بدوية. تبارزت النسوة في غناوة العلم في وصف جمال العروس وحسن نسب وخلق القبيلة، وتمايلن بأجسادهن يمارسن الحجيل كما لو أن رقص المرأة لا يليق سوى بجسد البدوية!

في تلك الأثناء، بدأ احتفال الرجال فيما يسمى بالصابية في مكان بعيد عن خيمة الاحتفال، بحضور الأهل وأبناء القبيلة والقبائل المجاورة. أولى فقراته كانت تقديم العشاء، ونسميه عِندنا «مد العشا». فيه ما لذّ وطاب من أطعمة وذبائح مقدمة بسخاءٍ، وبعد الانتهاء بدأ الحماس يشعل الأجواء باصطفاف المدعوين صفًا واحدًا.

سمعناهم يهتفون (صحوا، صحوا) أي انتظموا في صف واحد فعلمنا أن الاحتفال على وشك البدء. انقسم الصف لصفين متقابلين وبدأوا بالتصفيق في انتظار دخول «اللعابة»،

أي أنا. بعد سماعي كلمة صحوا صحوا، راح قلبي ينبض بشدة.

إنها تجربة مختلفة. أولئك الذين سأخرج عليهم، سأستمع للشتاوة والغناوة منهم وسأتابع مبارزاتهم للحصول على رضاي وسأتمايل أمامهم. هم رجال قبيلتي وكبارها وشيوخها. لم أتجرأ يومًا على رفع عينيّ إليهم بل لم يسمعوا صوتي أو يلمحوا طيفي من قبل لكنها تجربة حماسية جدًا فمواصفات اللعابة تشبهني كثيرًا! تتوق للمغامرة وتود التنقل براحة وإبداء رأيها والتحكيم بين المتبارزين، وأهم شيء أن اللعابة مرحة جدًا، جريئة جدًا لكنها تحافظ على نفسها فلا يجرؤ أحد على لمس طرف ردائها. ما زلت أرددها دون خجل، أنا ولدت لأكون اللعابة [١٥]! قالت عمتي سليمة وهي تسدل الجرد فوق جسدي:

– هيا يا زهوة! ارفعي رأسنا وتحركي بعقل. لا تتخلي عن خجلكِ.

في ليلة مقمرة انعكست فيها صورة القمر على مياه البحر، وأنار ضياؤه سماء البادية احتفالًا باجتماع محبوبة ودواس وتتويج عشقهما الماسي العتيق؛ وقفت بين صفين من خيرة رجال تلك الأرض يقودهما ابنا العم دواس وبدر، وكل منهما يثابر لتتراص كلماته في بيت شعري ينال استحساني.

على إيقاع كلماتهم وتصفيقهم راح جسدي يتمايل بخفةٍ ووقار يكمل الأمسية، هو والابتذال بينهما مسافات وجبال لم أتخطَها. حاولت الابتعاد عن عيون سالم وعمي سلطان كي لا أرتبك وأثير شكوك الموجودين. لن أنكر أن بدر يجيد الشتاوة،

١٥- اللعابة أو الحجالة كما يسمونها هي إحدى فتيات القبيلة، تقرب أيّاً من العروسين. تخرج إلى احتفال الرجال في ليلة الحناء أو»الصابية» غير مكشوفة الوجه، لا يستدل على اسمها من قبل الرجال. تمارس الحجيل أو الرقص الخفيف على ايقاع الغناوة أو الشتاوة مرتدية ثوبًا فضفاضًا من الخصر إلى الأسفل، ومن أسفله ترتدي السير الدائري الذي يشكل هيئة التنورة مما يتيح لها حرية الحركة أثناء الحجيل، واللعابة هي الحكم في ليلة الصابية فهي من تقرر أي الفريقين من الرجال وُفق في إلقاء أبيات الشعر بالغناوة أو الشتاوة

والغناوة تفتخر كونه يبارز أعتى الشعراء من البدو بها لكنني كنت قد اتخذت قراري من قبل، لن أنصفه اليوم! دواس سيلقى استحساني حتى لو لم يفُه بحرف، لذا فور انتهائهما من إلقاء مقاطعهما الشعرية وقفت بالقرب من صف دواس وصفقت مرتين في إشهار صريح مني عن الفريق الفائز.

عندما شارفت فقرة اللعابة على الانتهاء، وقفت بين الصفين ووجدت بدر ينهض ليقف قبالتي. يا لحظي العسر! هل من بين جميع الرجال بدر هو من سيقف وجهًا لوجه معي، متغزلًا بي بكلماتٍ شعرية تذيب القلب لروعتها وتثلج الدماء لقسوة مغزاها؟

بدأت بالتقاط أنفاسي حتى لا تُكشف هويتي من خجلي. وقف بثقة، عريض المنكبين، شموخه جعلني أعيد التفكير في موقفي منه لثواني ثم عدت إلى رشدي عندما جاءت هيئة عليا في مخيلتي وهي غارقة بدمائها. من يصدق أن زهوة التي تفور الدماء برأسها عندما تسمع اسم بدر، تقف قبالته ليلقي عليها أبياتا شعرية من الغزل؟!

أنصت الجميع لكلماته التي وصفتني ببراعةٍ. أكذب إن قلت إنه حاد عن صفة واحدة في ملامح وجهي أو شخصيتي. تغزل بي وكأنه يراني أقف قبالته عارية الوجه والشخصية. صفق الحضور فور انتهائه فالتقطت أنفاسي وقررت الهروب واللجوء إلى غرفتي والضحك ملء فمي على ما بدر من بدرٍ من غزل وأنا واقفة أمامه متشفية.

حانت لحظة مغادرتي فسرت باتجاه المخرج المخصص للخروج، وعندما صرت على مقربة منه تقافزت فكرة لا يفكر بها سوى من هم من نسل آل ابليس فتظاهرت بالتعرقل بطرف الجرد وكدت أسقط فرفعته قليلًا ليظهر خلخالي المميز بحلقاته الفضية والخرزات الفيروزية التي نوه بدر من قبل عن رفضه ارتدائي الخلاخيل خاصة هذا لِما له من صوت يلفت الأنظار بفعل رنته الناتجة عن ارتطام الحلقات الفضية ببعضها البعض.

حانت مني التفاتة نحوه فوجدت عينيه تطلقان صرخات من اللهب تود أن تحرق

الصابية بأكملها، ويقبض على يديه. تُرى هل أراد انتزاع الخلخال أم ماذا؟

ابتسمت دون أن يراني أحد فهويتي ما زالت مبهمة بفعل الجرد، وعندما لاحظت تأهب قدميه للسير نحوي، ركضت مغادرة نحو المنزل ورايات النصر ترفرف في قلبي، لكن شُلّت قدماي وحواسي جامة عن الحركة عندما انتصَرَت عليه جرأته وألقى عليَّ مقطعًا من غناوة جعلت ولأول مرة ضميري يستيقظ من غفوته المقصودة، ونظرت بعين قلبي لبدرٍ ذاته وليس ابن عائلة هارون. صدح صوته بين الجموع ينشد قائلًا «مطيرة غلاي ابنتت... عزيز بيعها بيعت العدو».

***

مرت الليلة كسابقتها، رتيبة تخلو من روح عليا. لقد ماتت وتركتني في بحر أجاج من التفكير حول أسباب موتها. نظرات الصغيرين تتساءل أين أخذوا غرفة أمي ولِمَ جاؤوا بأخرى؟ ودت الصراخ بهما «وهل الغرفتان فقط ما جاءتا ورحلتا؟ صاحبتا الغرفتين أيضا كُتب عليهما نفس المصير» لكن أي ذنب اقترفا لأثقل نفسيهما بأمر كهذا؟ لذا خبأتهم بين أضلعي بمعاونة بدور التي بات تقربها منهم ملحوظًا، حتى أنها أصبحت مقربة كثيرًا من ثريا وماجد وعند انشغالي بأمور المنزل كانت تعتني بهما.

صبيحة ليلة العرس استعدينا لتأتي دليلة كعروس تحتل عرش عليا، وتبدأ حياة مفعمة بالكثير من المناوشات التي أضفت روحًا ممتعة على حياتي. فعلت تلك البدوية ما عجزت عن صنعه في منزلنا، وصُكت كل محاولات عليا به بصك الفشل.

الاستعدادات كانت على أشدها أيضًا لتنتقل محبوبة من غرفة صغيرة في بيت أبيها إلى أخرى أكبر تخص دواس ولتبدأ بنسج حياة طالما حلمت بها، وصَدَّقَ دواس على حلمها واعدًا إياها بتحقيق ما يهفو قلبها إليه.

***

أنا ودليلة الضدّان. أنا ورغم كل شيء، قرارات العائلة تثير جنوني. تجعل لساني يصرخ مندداً بها. بينها وبين عقلي ثأر ولا يطيق أحدهما الآخر. الاحتواء لم يعرف لهما بابا للآن. لم يأت أي منها على هواي سوى زواج دواس من محبوبة أما هي فلديها القدرة على استيعاب كل حرف تتفوه به مصلحة العائلة. تضع رأسها أسفل أحذية الجميع ولا يمس أي من رجالها بسوءٍ. دستورها واحد لا تنتهج غيره، مصلحة العائلة فوق الجميع، وهذا الدستور ما جعلها تدخل إلى منزلنا يدًا بيد هي وسالم.

تلك اللحظة طالما احتلت خاطري وأنا أتخيل كيف ستكون، خاصة برفض العمة

بريكة مساندة ابنتها لعدم تقبلها تلك الزيجة، لكن خيبت دليلة ظنوني حينما خطت أولى خطواتها بهذا المنزل كزوجة لسالم وهي تبحث بعينيها عن شيء أخفقتُ تحديد ماهيته قبل أن تعلنه، وبعد برهة وجدت ضالتها فابتسمت بحنوٍ أثار ربيتي. من أين لدليلة بحنان عليا؟

ابتسمت فبادلها ماجد التبسم واختبأت ثريا خلف بدور الواقفة تتابع ما يدور بفضولٍ يشبه ما يتقافز من عينيَّ، وصار المشهد كالتالي: دليلة تلبستها روح عليا وتحنو على صغارها بنظراتها، ماجد يغمز بعينيه زوجة أبيه، وثريا تبتسم خجلًا منها، وهي تتقدم مني لتحمل عليا الصغيرة من بين يدي. حملتها بيد وبالأخرى عانقت كف يدها ثم انحنت بجذعها نحوه وطبعت قبلة حانية تتضمن الكثير من الوعود على ما أعتقد فقد أطالتها، وعندما قررت إنهاءها تركت لي دمعة على يد الصغيرة تخبرني بتسرع حكمي عليها. رفعت رأسها خجلة وقالت بهمسٍ لم يسمعه سوانا:

– الصغيرة في أمانتكِ إلى أن أنهي آخر مهمة لي كابنة لهذه العائلة، ومن ثم سأزيح عن كاهلكِ مسؤولية أبناء شقيقتي.

(١٠)

قوانين الطبيعة صارمة لا حياد عنها ولا جدال فيها، تسيّرها قدرة ربّ العالمين. كل شيء من حولنا يبدأ صغيرًا ومن ثم يكبُر كتقدمنا بالعمر يومًا بعد يوم. الإنسان من جنين لا يتعدى الجرامات إلى رجل كامل الرشد. الزهور بدايتها بذرة ثم مع مرور الوقت تتفتح الزهرة. حتى الأشجار أصلها براعم صغيرة.

نحن لم نستيقظ يومًا فوجدانا تعلو سطح الأرض بعدة أمتار فجأة. كل شيء في هذا الكون يكبر إلا المشاعر لا قانون لها، تُسيرها الصُدف وتقيدها حقيقة البشر ويئدها القدر متى أراد. الحُبُّ عمره وصلابته مصائر يحددها القلب وصنيعته وحسن اختياره.

كُلنا عند النبضة الأولى باسم الحبيب نقسم على كبر حبه يومًا بعد يوم، وإذا بأفعال تأتي كالريح تأخذه وتذهب إلى حيث لا ندري ومن ثم نستيقظ فجأة بقلب فارغ من الحُب، لا يحمل سوى تجربة مريرة صنعت عقدة ينفر القلب من كل نبضة تجاهه على إثرها. وعلى العكس من ذلك، الحزن الذي يبدأ كبيرًا جدًا ومن ثم يصغر ونتغلب عليه ولا يبقى منه سوى تلك الندوب والتصدعات التي تسلب راحة القلب أما الشوق فنحن نتجرع مرارته في كل صباح. يزداد مع كل نبضة في قلب الإنسان فيصدح بصرخةِ استنجاد «أنجدوني وأعيدو لي محبوبي!».

الحزن يصرخ والشوق يكبر والمعاناة لا تنتهي، ذلك هو حالنا في هذه الحياة بعد وفاة عليا. حمدًا لله أننا تغلبنا على الحزن المسدل على أرواحنا كالغمامة السوداء منذ صرخة والدتها وصغارها بين يديَّ. الحزن لفراقها كان كبيرًا جدًا لكنه سارع بالصغر تاركًا مكانه فجوة خالية من أي مشاعر أخرى سوى البرودة التي رافقت لياليا في غيابها.

تلك البرودة التي غلفت روحي وأنا أحمل عليا بين ذراعيَّ وثريا تتمسك بطرف عباءتي بينما مسؤولية الاهتمام بماجد وقعت على بدور، ونحن نشد الرحال

متجهين إلى منزل العمة سليمة بعد الانتظار لبضع دقائق لإشهار سالم المنديل.

غادر المنزل فور إشهاره قطعة قماش بيضاء اللون تلطخت باللون الأحمر، لون الشرف عندنا في رسالة لنا أن كل شيء مَرَّ على ما يرام. هيا اذهبوا لأعود للاحتفال ثم أنعم ليلًا مع زوجتي بسويعات هنيئة خالية من تطفلكم وإزعاج صغاري وطيف عليا!

الاحتفال بمنديل دليلة كان باردًا كالجسد عندما تغادره الروح. الأجواء التي رافقته كانت كالدقائق التي تسبق شروق الشمس، مليئة بالأشباح، وبرودتها تُحدث القشعريرة في الجسد. أقسم أنني شعرت بروح عليا تطوف حولنا معاتبة!

أما لحظة إشهار دواس لمنديل محبوبة فكانت كالساعات الأولى من الصباح، مشمسة دافئة ونورها ساطع لا يشبه أي ثانية في النهار. احتفال صاخب على موسيقى زقزقة العصافير وأمواج بحر أم الرخم التي كانت تتسابق مع تفريغ طلقات الرصاص احتفالًا بتتويج عشق بريء توارى خلف الأضلع إيمانًا بالقبيلة وعاداتها فأنصفته في النهاية.

تغادر الأسرة في يوم عُرس ابنها المنزل ولا يبقى سواه هو وعروسه، ولا يعودون إلا في اليوم التالي أو بعد عدة أيام. يذهبون في استضافة بعض الأقارب تاركين للعروسين الحرية الكاملة.

أتذكر أننا في زواج سالم وعليا، ذهبنا إلى منزل العم سلطان وقضينا الليلة نتبارز في الغناوة على أنغام المقرونة [١٦] التي استمر سفيان ورفاقه بالعزف عليها حتى بعد

١٦– تنطق «المجرونة» بإبدال القاف بالجيم، وهي آلة موسيقية خاصة بالرجال لا تستخدمها النساء مطلقًا. تستخدم في العزف في الاحتفالات والأعراس. عبارة عن مزمار مزدوج ويطلق عليها زمّارة بساقين وبالوصين مقرونين، وفيها خمسة ثقوب. تتميّز بصوت فريد يجعلها تعزف الألحان البدوية المختلفة في حالتي الشجن القاسي والفرح المبهج. تستخدم في صناعتها قصبتان متساويان في الطول تكونان مفتوحتين من الطرفين، وتربط الواحدة بالأخرى بواسطة جلد الماعز، وهناك نوعان من شجر القصب، نوع رفيع يصنع منه (البالوص) أما النوع الغليظ فيصنع منه ساق المقرونة أو المزمار ثم تثبت (الردادة) من ساق المقرونة بجلد الماعز، ويتم ثقب ساق المزمار أو المقرونة بقطعة من الحديد خمسة ثقوب، ويتم تثبيت المقرونة بقرني البقر بقطعة من جلد الماعز لتصبح الآلة الموسيقية العريقة دائمًا وأبدًا

انتهاء الاحتفال.

الحياة في منزل الجد عثمان مختلفة عن حياتنا، وكأننا ذهبنا إلى الجنة! ليتني أصبح حفيدته! يبتسم بوجهي في الصباح ويطلب الشاي الزردة من صنع يدي هلالة خصيصًا. يجلس مع حفيداته ليتلو عليهن القرآن الكريم مع تفسيره وشرح قواعد اللغة العربية التي وردت في آياته، أي أنه يستغل علمه لتنتفع به حفيداته. لو حالفني الحظ وكنت حفيدة الجد عثمان، كانت يديّ ستقوم بأجمل شيء من الممكن فعله على الاطلاق وهو كتابة حروف اسمي، وتحقيق الحلم الذي يساورني منذ أن بدأت في الإدراك والمقارنة بين ما حصلت عليه وما حرمت منه، أي إحصاء الأخطاء التي ارتكبها مجتمعي بحقي.

ذلك ما جال بخاطري أثناء جلوسي بينهم، أستمع لمَا يقولون وأشاهد رسمهم الحروف الأبجدية ببراعة وأنا لا أفقه شيئًا مما يحدث من حولي سوى أنني بائسة بين زهور تفتحت على يد الجد.

شيء آخر لاحظته هناك، وهو أنه يتحاور مع زوجات أبنائه وهم أيضًا يفعلون ذات الأمر حتى أن العم إدريس لم يخجل من مدحه زوجته ومذاق الطعام الذي تعده، وكونها وجه الخير والبهجة في حياته وكم هو ممتن من نسبه مع آل هارون!

بعد الذبائح والولائم وحفاوة الاستقبال والأحاديث الشيقة، عدنا إلى منزلنا لكن من عادت معهم ليست زهوة التي تحلم ولا تشرع بتنفيذ خطوة واحدة من حلمها، وإنما عادت زهوة التي عقدت النية في المحاولة مستميتة للحصول على الفرصة في كتابة اسمها وقراءته إذا ما مرّ من أمام عينيها!

عدت وهناك رغبة شديدة ومرعبة في أن أتحدث بثقة كما هلالة، ومحاورة من يجابهني بطلاقة كبنات عمومتها. رغبة مرعبة للحد الذي يشي بأنني إما أن أصبح مثلهن أو أرقد بجانب عليا ولا خيار ثالث لهذين الأمرين.

كيف للحياة أن تصبح ظالمة إلى هذا الحد؟ كيف لها أن تعقد اتفاقًا دنيئًا مع الظروف والعادات والتقاليد وتعنت الأهل وذوي الأمر ومن نَصَّبَ نفسه واليًا

على قليلات الحيلة أمثالي، وبيعهن لحراس الهاوية التي يهربن إليها عسيرات الحظ في مجتمعنا بِثَمَنٍ بَخْسٍ من أجل لا شيء فيفسحون لهن المجال حتى يركضن نحو الحافة بكل ما أوتين من قوة ومساعدتهن في القفز إلى قاع البحر والتخلص من ظلم جائر جار على أبسط حقوقهن في الحياة، الطفولة وعيشها وتجربة مشاعر لا فرص لهن بها سوى في الطفولة التي لن تعوض؟

حتى صوتهن، قطعت ألسنتهن كي لا يخرج! وغُسلت عقولهن بمواد غير قابلة للإزالة كتلك التي رُبّيت عليها منذ الصغر«لابد وأن تكوني قطيعة اللسان حتى يرضى عنكِ رجلكِ، مبتهجة المُحَيّا حتى لا يحيد عنكِ. ثغركِ لا يعرف سوى التبسم ولسانك لا يجيد سوى قول الكلمة الطيبة، كي لا يبحث عن السعادة بين أحضان غيركِ! يداكِ تتفننان في صنع الحِرف التي تكفي احتياجات بيتكِ وقوت أسرتكِ من طعام»

نحن عزيزات هذه الأرض، سُلبت منا هويتنا ولم يتبقَّ لنا سوى أيدينا لتكتب ما عجزت ألسنتنا عن قوله. بتنا نساءً بلا صوت أو هوية! بوجهٍ يتوارى خلف ستار أسود اللون ينسدل على وجوهنا في سن العاشرة حتى لا تبصرنا أعين الغرباء! وماذا ستفعل أعين الغرباء بوجه طفلة ما زالت تستهويها الأرجوحة والدمى، غير التبسم متمنين لها طفولة ممتعة؟ سن العاشرة ليس سوى فترة من مرحلة طفولة لم تكتمل، وفي مجتمعنا لم تُعَش!

قياسًا على ما سبق، من المفترض أن تكتب يديَّ ما عجز لساني عن قوله، وظروفي عن وهبه لي، ومجتمعي عن تقديمه لي كحق من حقوقي كوني انسانة خُلقت لتعادل كفتي الميزان مع الرجل لا لتقدم كل ما بوسعها وأكثر وتحصل على لا شيء في سبيل أن يتمرغ الرجل بالنعم التي تفوق تطلعاته! لكن كيف ستفعل يديَّ وهي لم تلتقِ بقلم قط؟ لم يحدث بينهما تقارب حميمي ينتج عنه أجيال من الكلمات والأحلام المكتوبة بخط اليد، خط فتاة كانت تود أن تحصل على رفاهية كتابة اسمها أو حتى قراءته.

يا للعار! ما زال على هذه الأرض فتيات لم يتذوقن حلاوة كتابة أسمائهن أو

ما تجيش به صدورهن! لذا كان لِزامًا عليَّ أن أستعيد صوتي المسلوب وجرأتي المسجونة بفضل

قناعتي أنني لا يليق بي سوى كل جميل بل الأجمل من كل شيء! تلك القناعة التي اكتسبتها مما عايشته في منزل الجد عثمان، وذلك الجميل لن أحصل عليه وأنا قطيعة اللسان، لا أجيد سوى قول السمع والطاعة يا سيدي.

حسنًا! كفاني بؤسًا! إلى متى سأجلس لأشكو حظي العسر للا شيء؟ وهل يسمع حسيسي أحد؟ كان لا بد من قرار، من خُطوة، من انتفاضة!

هذا النقاب الذي أسدلته أمي على وجهي منذ سنوات يرافقني. إن لمح طيفي غريب وقلما يحدث ذلك، لا مفر منه! وجهي لم ولن يُكشف سوى على محارمي! والتخلص منه ليس من طموحاتي، مثله مثل الوقوف الند بالند أمام رجال عائلتي ورفض ما لا يرتضيه عقلي ويثقل صدري. هذه أشياء لا أتطلع إليها لكن أن أُمسك بقلمٍ وأكتب ما يحلو لي، حلم لا يفارقني ولا يطاوعني قلبي على نسيانه! لا أستطيع طَلب الذهاب إلى المدرسة والحصول على فرصة تعلم القراءة والكتابة بعد الوصول لهذا العمر وأنا على مشارف مغادرة بيت أبي إلى بيت زوج لا أعلم ما مصير ذُريتي من الإناث فيه. هل ستستمر سلسلة الوأد على قيد الحياة أم ينعمن بما حُرمت أمهن مِنه؟ لذا قررت أن تتعرف يدي على الأبجدية ولساني ينطق حروفها وأنا هنا بين أسوار قلعة آل هارون دون أن أغادرها؛ ولأن أمي لا تعيد ولا تبدئ، توجهت إلى من تملك السلطة كاملة في تحديد مصير الفتيات في منزلنا.

عِندنا المرأة تحصل على جزء من حقوقها عندما يتقدم بها العمر وتصل للسن الذي تزهد فيه الحياة وتنصب جلّ أحلامها في كيفية قضائها بضع سنوات مُوَلِيّة في راحة دون اللجوء لأحد أو تكبد عناء التغلب على ما يطرأ على صحتها من تدهور، أي أننا يسمح لنا بالحياة ونحن على مشارف مغادرتها!

الجدة كانت مقصدي وأنا أرتفع بسقف أحلامي وطموحاتي للوصول إلى اللحظة التي سأتمكن بها من رسم حروف اسمي وقول «مرت من هنا، زهوة البادية».

– صباح الخير يا صافية القلب!

قلت بعد أن جلست صوب الجدة ويداي تتعاركان في رحلة من الفرك بتوترٍ، انتهت بابتسامة ارتسمت على ثغرها وكأنها أرادت أن تزيل حِمل ما جئت أطلبه عن عاتقي.

دومًا ما تُظهر نقاء قلب قُدَّ من البهاء! قالت وهي تشير إليَّ أن أقترب منها:

– تعالي واجلسي هُنا يا ماكرة. طالما هذا القلب ينبض، لن أسمح للخوف بأن يتمكن منكِ.

اعتادت على أن تتخذ من رقعة صغيرة في أرضية المجلس عرشًا لها، تفترشه طوال اليوم. زحفت إلى أن صرت على بعد عدة سنتيمترات منها. انحنيت بجذعي فوضعت رأسي على فخذها مستلقية أمامها وكأنني عُدت صغيرة أحتل حجرها، اختبئ أنا وحلمي من فُرصِ رفضِه. صارحتها:

– إن قُلتُ إن نفسي ينقطع يا جدة وأملي بالحياة يتلاشى، وهناك فرصة واحدة لاستعادتهما، هل ستسمحين لي؟

قالت وهي تمرر يدها على رأسي، يبدو أنها ارتابت من صوتي المختنق وعينيّ المغرورقتين بالعبرات:

– أشق صدري وأنتشل قلبي ثم أقدمه لكِ على طبق من ذهب ولا أرى حالكِ هكذا! ما بكِ يا حبة القلب؟

العبرات خائنة، دومًا ما تزورنا في أكثر الأوقات التي نحاول رفض استقبالها فيها. زائر غليظ قاسي القلبِ، لا يرأف بالجفون المتورمة. انهالت الدموع على وجنتيَّ فحبة قلب الجدة أمامها خياران، إما أن تحقق ما تهفو إليه روحها أو تركض نحو الهاوية مبتسمة لحارسها بانكسار بعد أن انتصر عليها.

حاولت كثيرًا ألا تصبح نهايتها في قاع البحر لكن كان للعادات رأي آخر! مررت

راحة يدها على وجنتيَّ لتزيل ضيفاتي غير المرحب بهن وهي تنظر لي، تستطلع حالي من عينيَّ. الجدة مثلي لا تجيد شفاهها قراءة الحروف لكن عينيها بارعة في قراءة النفوس! قلت لعلها أخفقت في قراءتي:

– ماذا يفعل الله بأرضٍ تفشى بها الظلم يا جدتي؟

أجابتني متمسكة بابتسامةٍ حانية وأظنها قرأت ما تحمله كلماتي في طياتها:

– يغرقها بغضبه. الله عادل لا يقبل الظلم!

كلماتها زادت من مرارة الظلم الذي تجرعته فأجهشت بالبكاء قائلة:

– ولِمَ قبله لي؟

حدقت بي عاقدة ما بين حاجبيها، تسأل أم تلوم لم أفهمها:

– وهل وقع عليكِ ظُلم لم أسمع به؟

استقمت بجلستي، أستعد لمهاجمة قبيلة بأكملها فذكرتها بانتهاكات مجتمع كامل بحقي:

– على أي عدل حصلت يومًا؟ لم أرفض أمرًا أُملى عليَّ ولم يعرف لساني قول لا أو حتى نعم. أنهي الأعمال المنزلية كالثور ولا أشكو الألم. أختنق بالنقاب رغمًا عني منذ سنوات لا أعرف عددها، حتى عمري لم أصل إلى حقيقته بعد! ولدت في الخامس من يناير في ليلة عاصفة، في أي عام؟ لم تخبروني! هل أنا على هذه الأرض منذ ست عشرة أو سبع عشرة سنة؟ حقيقة يعلمها رب العالمين وحده لأن أمي لم تتكبد عناء حساب عمري رغم أنها لم تحصل بين يديها على شهادة تثبت ميلادي، ولن تحصلوا على أخرى تثبت وفاتي.

مرت أمام عيني مشاهد جدي عثمان وحفيداته يلتففن حوله، يقرأن ما تيسر لهن من آيات القرآن الكريم فعاتبتها:

– اسمي يا جدة، اسمي لا أستطيع كتابته! وتسألين هل وقع الظُلم عليَّ؟ في الحقيقة الظلم لا يُمارس إلا على قليلة الحظ نذير الشؤم حبة قلبكِ.

نظرت لي فاغرة فاهها. من المؤكد أنها لا تستطيع استيعاب ثورتي الغاشمة! بعد لحظات انفرجت شفتاها لتقول ما أثلج صدري:

– لن أناقشكِ بأمر كهذا. فات الأوان للدفاع عن موروثات تجرعت ألمها إلى أن وصلت إلى أرذل العمر ولم أحققها. لا تجادليني في أمور أتقاسم بغضها معكِ يا زهوة!

جادلتها بعنادٍ غير محمود أو محسوم عُقباه:

– أنا لن أصل إلى أرذل العمر وأنا سجينة العادات والتقاليد! إما أقول أنا هُنا أو سأصعد أعلى الهاوية وتستقبلني رياحها فتتلقفني وتلقي بي إلى قاع البحر. الخيار لكِ يا جدة، إما تسلبين روحي أو تعيدينني إلى الحياة. ما رأيكِ؟ أي قرار منهما اتخذتِ؟

– وهل أراد السجين لمسجون يرافقه في زنزانة لا كوّة بها تسمح بمرور الهواء أو الشمس أن يتعفن خلف القضبان مثله؟

– لا أفهمكِ! لحظة، لحظة بل أفهمكِ! أتعنين أنكِ ستساعدينني؟

قالت وقد اكتست عيناها بالعبرات:

– أعرف أولًا طلبكِ ثم أقرر إن كنت سأدعمكِ أم لا.

عاد الخوف يتوغل في قلبي، وأصابعي عادت للاشتباك بارتجاف مرة أخرى. طأطأت رأسي فما سأتفوه به لن تدعمني في تنفيذه لأنه صعب المنال. قالت بلهجة محذرة:

– لا تُحني رأسكِ مرة أخرى بعد أن قطعتِ مسافة لا يستهان بها نحو حلمكِ وأفصحتِ عما يسلب منكِ سعادتكِ! أكملي مشواركِ وأنا معكِ.

كلماتها كانت كترياق الحياة الذي يتجرعه المسموم فتدب الروح في جسده مرة أخرى.

– أريد أن أتمكن من رسم حروف اسمي وقراءته، وكتابة أحلامي التي لا أستطيع طلبها أو حتى الشروع في تحقيقها.

بادلتها النظرات بثقة وكأنني حصلت على أعلى الدرجات التعليمية لتوي وقلت:

– أريد القول لمن سيأتون من بعدي أنني مررت من هنا، يا جدة.

صمتت لبرهة، تحدق بي. لا أعرف ماذا تقرأ في عيني لكنها فعلت في النهاية، وهزت رأسها مرات متتالية وأغدقت عليّ كرمها:

– على الرغم من أن هناك الكثير مما يمكن أن نفعله لنقول لمن

سيأتون من بعدنا أننا سبقناهم على هذه الأرض لكن بعد أن رأيت وميض الأمل في عينيكِ فلا مجال لإطفائه! أنا معكِ يدًا بيد، حتى أنكِ ستعلمينني كتابة اسمي، لأكتبه مرة واحدة قبل أن أغمض عيني!

اختلج صدري. العيش على أرض لا تزينها بسمة الجدة أو تدفئها يداها الحانيتان، أمر مخيف أحدث حزنًا جلدًا في قلبي فاستعذت بالله وسألتها عن كيفية تعليمي القراءة دون الذهاب للمدرسة فقالت:

– خروج من المنزل، لا! أقصى ما يمكنني فعله هو أن أدبر لكِ من ستعلمكِ القراءة والكتابة.

قُلت بلهفةٍ الحصول على الأوكسجين بعد الحرمان منه حد الاختناق:

– وهل هذا الأمر متاح؟ هل سيقبلون بذلك؟ وأين سنجد من تأتي إلى منزلنا لتعلمني كيف أقرأ وأكتب؟

استغرق تفكيرها بضع ثواني في إجابة جعلت من حياتي القادمة جنة في عينيَّ،

وكانت السبيل لتخليد حكايتي:

– ابنة عمتكِ علمها جدها عثمان القراءة والكتابة منذ الصغر، سأرسل إلى عمتكِ لتأتي بها إلى هنا في أوقات ذهاب الرجال إلى العمل. ستعلمكن القراءة والكتابة أنتِ وباقي الفتيات. لأفعل شيئًا جيدًا قبل أن أغادر! لأقول أنا كنت هنا من قبلكن!

نهضت وقد دبت الروح في جسدي من جديد، وصفقت وأنا أثب للأعلى. هتفت دون أن أفكر بعواقب سماع ساكني المنزل ما أقول:

– سأتعلم القراءة والكتابة! سأكتب اسمي كل يوم كل صباح كل مساء كل دقيقة!

سأكتب حكايتي! سأقول أنا هنا! أنا هنا وهذا يكفيني.

(١١)

صعود وهبوط في مقدار السلام النفسي الذي حاولت تهيأته لكي أتقبل حياتي كما هي بمميزاتها وعيوبها، يصحبهما عدم اتزان مع استحالة التبسيط لمجريات الأمور. تلك هي معاناتي في الست أو السبع عشرة سنة الماضية، حالة من التخبط المستمر لن أسمح لها بسلب ما تبقى من عمري! إما أحيا أو أموت فالجمع بين الأمرين خيار من المستحيل تحقيقه.

يكفي إذلالًا إلى هذا الحد! آن الأوان أن أضع حدًا فاصلًا بين احترام الدماء البدوية التي أملكها وبين ما سلبته مني معتقدات بالية ما عادت تسري إلا لدى القلة القليلة من قاطني مجتمعنا. سأكمل ما بدأته منذ أن أدركت أن المتاح لي الحصول عليه ليس سوى طعامٍ يجعلني أقف على قدمي ورداءٍ يكسو شرف عائلتي ورجلٍ اختارته لي القبيلة وقوانينها.

سأقتنص من الحياة كل ما يشار إليه بكلمة ممنوع لكن لن أجلب لعائلتي ما يُخني رأسها! لا بد وأن يفهم سالم أن الممنوع مرغوب وكل طلب قوبل بالرفض تزداد رغبتي به أكثر! لا بد أن يعي أنني بت أكثر خطورة من ذي قبل بإدراكي أنني أستطيع فعل كل شيء دون تكبد عناء الطلب والرفض مع ساعات من الصراعات، فقول لا قاطعة لا مجال للجدال بها هو تعنت واضح ينتج عنه تحقيق الرغبات بطرق ملتوية، في بالعادة خاطئة تنتهي بكوارث فادحة كتلك التي تقترفها بعض النساء في مجتمعنا.

كثيرًا ما اختفت فتيات ولم يُعثر عليهن أو لم يتم البحث عنهن أو حتى التبليغ عن غيابهن، ويصمت الجميع عن جريمة ارتكبت بحق فتاة أخطأت، وخطؤها ناتج عن خطأ رجل أغلق قلبه حيالها.

سأنتهج نهج محبوبة، أي أنني سأصمت وأحقق ما حلمت به في الخفاء دون أن أُحدث بلبلة تلفت الأنظار نحوي. سأبدأ بتعلم القراءة ثم الكتابة وبعد ذلك لن يستطيع أحد إيقاف قطار الأحلام الذي يتزود بالوقود الآن حتى ينطلق مطرقًا أمام من يقفون في طريقه. ذلك كان نصّ قراري الذي اتخذته يوم سعدي وتحقيق وعد جدتي لي.

إنه الثلاثاء، أفضل أيام الأسبوع! توسط قرص الشمس السماء. أتذكر أنني أتممت كل المسؤوليات الواقعة على عاتقي بنجاح وما تبقى من النهار هو حق أصيل لي، إلى أن يحين المساء وتبدأ رحلة المشقة في جمع ألبان الأبقار والأغنام ومن ثم اللعب مع الصغار فولاية أبناء عليا نُقلت إلى دليلة منذ زواجها والحق يقال، كانت تحنو عليهم كما الأم لكنها تتركهم ليلًا تحت كنفي فسالم رجلٌ ينتهج نهج الكثير من رجالنا ولا يتنازل عن حقوقه مطلقًا. الزوجة في دستوره آلة تعمل بالنهار لتلبية أوامر العائلة واحتياجاتها والليل كله له، فتكون وردة يستمتع بها كيفما يشاء حتى لو جلست أمامه يفترس في ملامحها إلى أن يغلبه النعاس.

جلست قبالة الجدة، انتظر مجيء هلالة في الموعد المتفق عليه مسبقًا. هناك شيء يعلو ويهبط في صدري. ليست أنفاسًا وإنما شعور آخر لم أدرك ماهيته، شعور أشبه بارتفاع منسوب الحمم البركانية لحظة ثوران البركان ثم انسيابها من فوهته مُشَكِلةً طبقات من الحمم المنصهرة، كتلك التي تغلف قلبي دائمًا فتجعل صدري في حالة انصهار وحريق مستمر، حَوَّل حياتي إلى دوامة من الجحيم.

تلك كانت المرة الأولى التي يثور في داخلي بركان من السعادة يشوبه بعض التوتر. خشيت حينها أن تُكلل محاولاتي بفشل ذريع. قالت جدتي وهي تهز رأسها بتحدٍ وإعجاب ظاهر من خلال وميض عينيها:

– مجنونة ترقص طربًا لأنها ستتعلم كتابة اسمها. أي جنون أطعتكِ عليه يا زهوة؟!

– ليس جنونًا يا جدة إنما شغف طالما راود خاطري ودغدغ ثنايا روحي فجعلني أبتسم في كل مرة يلامسها، محاولًا تذكيري بوجوده وعدم تحقيقه بعد! إنه الأمل ولا شيء سواه! زارت مخيلتي كنوز جدي عثمان فتابعت بصوتٍ فيه بحّة اختناق:

– هل لاحظتِ المخطوطات والكتب ونحن في منزل جدي عثمان؟

الخوف من الفشل عندما نكون على أعتاب خوض تجربة طالما سعينا إليها، كالاختناق عندما يحيط أحدهم العنق بيديه فيمنع تسرّب الأوكسجين إلى الرئتين فنبدأ الأنفاس بالانقطاع شيئًا فشيئًا. أجابت على سؤالي:

– بالطبع أعرفها فقد حكى لي جدكِ عنها من قبل!

قُلت وقد ازداد اختناق صوتي:

– كدت أبكي حسرة على حالي عندما بدأت هلالة بقراءة ما كُتب على أغلفتها وأخبرتني أنها بعض السير الذاتية للرحالة البدو ومخطوطات توثق أحداث وادي ماجد، وأنا لا أستطيع حتى قراءة حرف واحد مما كُتب.

لكمت صدري وكأنه من وقف في طريق ذهابي إلى المدرسة وصرخ بي فعدت أدراجي إلى بيت أمي، وبتّت أضمر له العداوةَ وتربّص فرصة الإيقاع به:

– نار يا جدة، نار اندلعت في صدري! وبحق العلقم الذي تجرعته لسنوات وخُتم بضآلتي أمام معرفة هلالة، أقسمت ولا رجعة في قسمي، سأترك لمن يأتون من بعدي كلمات كتلك المكتوبة في كتب الجد، وأصنع التاريخ كما فعل أجدادي، ولن تأتي على هذه الأرض زهوة كزهوة البدوية!

– أخشى عليكِ الحرق بنار شغفكِ يا بُنيتي!

قالت محذرة وعيناها تغلفهما الحيرة والقلق وبعض من الندم فطمأنتها:

– لا تقلقي يا جدة! هذه نيران الأمل. زهوة نذير الشؤم، نبتت بذرة الأمل في داخلها. لقد تعلمت الدرس جيدًا هذه المرة. السر لن يغادر مجلسكِ مطلقًا!

نظرت لي نظرةٍ متوجسة فأدركت أنها على وشك قتل واحدٍ من أحلامي فحفزتها لتتخلص من ترددها عندما أشرت بيديَّ وكأنني أتلقف منها رضيعًا ستلقيه بينهما:

– هاتي ذلك الحجر الذي سيقف في طريقي يا جدة!

معت عيناها بوميض أعتقد أنه وميض الفخر بفطنة ورجاحة عقلي فقالت:

– لا يا حبة القلب! ما سأتحدث عنه لن يكون حجرًا يقف في سبيل تحقيقكِ ما تفتق به ذهنكِ وإنما سيكون أكبر دعم من الممكن الحصول عليه، إن طاوعتِ العجوز التي بينها وبين الموت حفنة من التراب.

حسنًا! الحديث سيتوجه صوب بدر، هذا ما قلته وأتبعته بدعاء لرب العالمين أن يحفظها لي فقالت بصوت رخيم له قدرة عالية على الاقناع:

– يا زهوة، بدر ليس بالرجل السيء! بدر لا يشبه سالم، رغم أنكِ لم تري من سالم ما يجعلكِ ترفضين بدر!

إنها الجدة كبيرة العائلة، وأي لفظ بذيء أتفوه به في حضرتها سيكون آخر حرف يخرج من بين شفتيّ قبل أن يُقطع لساني، فسكتت وابتلعت ما كنت سأقول. تركت لها الفرصة لتستمر في عزف مقطوعتها المفضلة:

– بدر يريدكِ ليس كونكِ ابنة عمه واسمكِ على اسمه منذ سنوات بل يريدكِ لشخصكِ، لجمالكِ. يريد زهوة المشاكسة التي تستبيح لنفسها إغاظته وارباكه متى سنحت لها الفرصة. أردت إنهاء هذا الحديث فجبهة واحدة تكفي للفوز بهذه الحربِ:

– لو كان العم خلف اختار دليلة أو عليا وحتى إن اختار رضوى رحمة الله عليها زوجة لبدرٍ، لكان يلهث خلفها كما يفعل معي. أرجوكِ يا جدتي، لنبتعد عن الحديث فيما يخص بدر طالما لم يفتح أمر زواجي به بعد!

– حسنا! سأنهيه لكن سأخبركِ بشيء أخير! بدر من الممكن أن يصبح سدًا منيعًا أمام طوفان سالم، أمر واحد يا زهوة إن وضعتِه نصب عينيكِ عند التفكير بالزواج من بدر ستهنئين بهذه الحياة. نجاة الفتاة من قمع العادات يا بُنيتي هو بزواجها. إن نجَحَت في استمالة قلب وعقل زوجها نحوها.

كدت أُكيل لها انتهاكات سالم بحق عليا ومن بعدها تعنته الواضح في التعامل مع دليلة، ومقارنته المستمرة بين تمردها وطاعة عليا له لكنني ابتلعت مرارة ما داهم خاطري مع كلماتي وابتسمت لها.

حين وصلت هلالة، قَبّلَتْ يد الجدة ثم جبينها وأزالت طبقات من الاقمشة السوداء التي تُغطي جسدها من رأسها إلى أخمص قدميها ثم ابتسمت لي بإشراق كوردة الجوري حين تزهر لأول مرة، والحق يقال إنني كنت بحاجة لذلك الأمل كي استجمع طاقتي لأستمر. جلست أمامي واعطتني ظرفًا أبيض اللون ثم قالت فور التقاطي إياه:

– أرسلها جدي عثمان لكِ. قال إن أتممتِ ما بدأتِ به ستكون لكِ هدية بمثابة كنز ثمين احتفَظ به منذ عشرات السنوات. أراده الكثير لكنه أرجأ التخلي عنه لحين إيجاد من يستحقه! وقال إنه رأى بارقة نور فيكِ عند زيارتكِ لنا.

آخر ما كنت أتوقعه منها أن تخبر الشيخ عثمان فعندنا ما يرفضه الرجال يحدث دون علمهم، وإن علموا به سيكون آخر ما نفعل بموافقتهم أو رغمًا عنهم. خشيت إفشاء سري وعاتبتها:

– يا ويلتي! هل الجد عثمان لديه علم بما نفعل؟ ألم نحذركِ من ذلك، ألم تطلب منكِ الجدة أن يتم الأمر في سرية تامة؟ ماذا دهاك يا هلالة حتى تخبريه بأمرٍ كهذا؟

التفتتُ نحو جدتي، أطلب العون منها فقالت:

– أيَّ خطأ ارتكبتِ يا بُنيتي؟! ألم نتحدث من قبل وأخبرتكِ بعواقب معرفة جدكِ سلطان وسالم بما تُقدم عليه زهوة؟

لامبالاة هلالة كادت أن تصيبني بالجنونِ. لقد ابتسمت فور أن فرغت الجدة من حديثها وسألت وكأنها لا تعيش بين قضبان أم الرخم:

– لِمَ كل هذا الخوف؟

صرختُ بها معنفة عندما استجلبت إلى مخيلتي ما سيحدث لي إن علم سالم أنني ضربت بأوامره عرض الحائط:

– الوضع هنا ليس كالوضع في منزلكِ يا هلالة! إن علم أخي بما نفعل من الممكن أن يقتلني.

– سأخبركِ كيف آلت الأمور ووصلت إلى جدي! جدي يا زهوة ذو نظرة مختلفة للأمور. بيننا ميثاق لا يمكن الحياد عنه، هو سيفعل ما بوسعه لينشأنا كما أمر سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ونحن سنحترم قراره وسنضع احترامنا له في وجوده وغيابه نصب أعيننا. كان لا بد أن أخبره وأحصل على الإذن منه للمجيء إلى هنا. كيف كنت سأخرج من المنزل دون علمه؟ وكيف سأخطو خطوة خطيرة دون أخذ الحيطة والدعم منه؟ على الرغم من استنكاره لتعلمكِ القراءة والكتابة في الخفاء لكنه قال إنه يعرف تفكير سالم العقيم حق المعرفة، لذا سيدعمنا بتوفير الأدوات والكتب التي ستساهم في إنجاز المهمة في أقرب وقت، ولكِ مكافأة كما أخبرتكِ. حتى أنه طلب منكِ أمرًا وأصر ألا أنسى إخباركِ به.

قلت باندفاع بعد أن زادت محبتي للشيخ عثمان واحترامي له:

– أي طلب! الجد يأمر وأنا أنفذ.

ابتسمت وهي تربت على يدي قائلة:

– جدي يقول لكِ «دعي الرسالة لا تتوقف عندكِ يا حفيدة صافية البدوية».

التفتت نحو جدتي فوجدتها تبتسم بصفاء واعتزاز. يبدو أن جدي عثمان يمجّدها على حسن صنيعها معي، ويفتخر كوني حفيدة صافية الهارون. العلاقة بين جدي عثمان وجدتي صافية علاقة وطيدة جذورها ممتدة إلى صداقة قوية نشأت بينه وبين جدي حمد واستمرت مع أبنائه بعد وفاته. أدركت أنه يريد أن أنقل ما سأتعلم للفتيات من بعدي.

***

للكتاب انقباض في الصدر عند لمسه للمرة الأولى ثم انفراجة يتبعها سيل من الأمل يتدفق في الشرايين متجهًا نحو القلب ثم العقل، معطيًا إشارة له ببذل جهود مضنية لتحقيق ما يسعى المرء إليه، وذلك ما حدث معي عندما طلبت مني هلالة أن أفتح الظرف. كان يحوي قلمًا ودفترًا فارغًا وكتابًا فيه حروف الهجاء والقواعد النحوية. للقلم أيضًا طاقة منبثقة منه تجعلك تشعر وكأنك تشق طريقك نحو هدفك ببسالة فشعرت أنني أعدو نحو حلم كُتِب عليه (ملك زهوة الهارون).

***

استغرق وقت إتقاني قراءة وكتابة الحروف الأبجدية دون خطأ يذكر مع كمّ من الكلمات لا بأس به خمسة أشهر، ومن بعدها صرت قادرة على قراءة الصحف والمجلات التي يرسلها لي جدي عثمان والتي أستعيرها من أخي عليّ دون علمه، أي أسرقها في الصباح وأعيدها إلى مكانها في المساء قبل عودته من المدرسة.

عليّ يصغرني بثلاثِ سنوات لكنه حظي بفرصة كم وددت أن أحظى بمثلها! يستيقظ كل صباح حاملًا أمله على ظهره ذاهبًا إلى المدينة حيث المدرسة، حيث الحياة.

– تفضلي يا عنود!

قالتها هلالة متحلية بابتسامة تتغنى بجمالها الألسنة وهي تمد يدها لي بصندوق من الورق المقوى. أخبرت كل من التقت بهم أثناء ولوجها إلى المنزل أنها أشياء تخص جدي، أرسلها الشيخ عثمان وكان قد أخذها منه في زمانهما وأراد ردها، سألتها عما يشتمله فأجابت:

– جائزتكِ.

ابتسمت للجدة كأنني أقول «ها أنا سعيت وحصلت في نهاية المطاف على جائزة! وتخلصي من الأمية لم يكن شغف طفلة وحسب» فأومأتْ بسعادة، تسمح لي أن أفتح ما بين يديّ هلالة. أصيب قلبي بالرجفة على إثر نبضاته المتسارعة بشدة،

ولسان حالي يقول «الشيخ عثمان أرسل لي هدية؟»

عند تلفظي بتلك الجملة بهمسٍ، تذكرت الكنز الثمين الذي وعدني به قبل خمسة أشهر فرجوت أن تكون هديتي شيئًا من بين تلك الكنوز التي منيت نفسي بها طوال الأشهر المنصرمة. مددت يدي قائلة «بسم الله» وقمت بفتحه. تبعت يدي التي فتحت الصندوق شهقة سحبت أنفاسي كلها ووضعتها بين صفحات الكتب التاريخية والإسلامية التي أرسلها لي أنقى وأشرف رجال هذه الأرض!

جدي عثمان خليفة رسول الله بأفعاله. ذلك الرجل يحسن إلى نسائه كإحسان رسول الله صل الله عليه وسلم لزوجاته وبناته.

هدايا الشيخ عثمان كانت السبيل في إثراء قدراتي اللغوية، خاصة بعد قرار عمتي سليمة بعدم مجيء هلالة إلى منزلنا بمفردها مرة أخرى حقنًا للدماء. لقد اتضح أن عمتي بريكة تضمر لنا السوء فقد كانت تنتظر مغادرة هلالة ثم تبدأ في إلقاء بعض الكلمات الطاعنة في شرفها، مثل (سليمة جنت. كيف لها أن ترسل ابنتها كل يوم لبيت يكتظ بالرجال؟ وهل تعرضها علينا كي نزوجها أبناءنا؟ أو الشيخ عثمان يسيل لعابه لنسب سلطان الهارون كما فعل مع أبيه الحمد).

الطامة الكبرى كانت اتهامها الباطل بحق عليّ باستراقه النظرات إلى هلالة في المجيء والذهاب، لذا قررت عمتي سليمة أن ينتهي دور ابنتها إلى ذلك الحد قبل أن يصل الحديث إلى زوجها وأبنائه، وحينها ستسيل الدماء مرة أخرى بين أبناء قبيلتنا.

انتهت مرحلة تعلّمي اللغة العربية وبدأت مرحلة اتقاني لها كي ابدأ بتنفيذ ما بذلت كل ذلك الجهد لأجله. كنت أقضي الليل كُله في القراءة على ضوء القنديل، وقبيل مغيب الشمس، أحمل دفتري وقلمي وأصعد إلى سطح المنزل لأستذكر ما علمتني إياه هلالة إلى أن صرت متمكنة من اللغة. أستطيع قراءة وكتابة كل ما يطلب مني أو يجول في خاطري.

في تلك الأثناء صار الكثير والكثير. هناك علاقات توطدت كعلاقة أبناء سالم ودليلة فعلى الرغم من تقدمها بأشهر الحمل، لم تتواني عن تقديم الرعاية الكاملة

لهم! وعلاقة ماجد وبدور غريبة الأطوار، ولولا إدراكي فارق العمر بينهما لكنت قلت أن هذين قطعا تذكرتهما إلى جهنم منذ زمن! فمتى انتهت بدور من الأعمال الموكلة إليها تجيء إلى منزلنا وتصحب ماجد وثريا لرعي الغنم، وعند مراقبتهم أجد ثريا تركض بين الخِراف وماجد وبدور يجلسان مندمجين في حوار عميق وكأنهما يخططان لحياة كاملة أو يضعان المخططات لاحتلال الدول المجاورة!

على الجانب الآخر من منزلنا كان هناك علاقات أخرى بات يشوبها التوتر، ووضعت عليها علامات استفهام كعلاقة عمتي بريكة العدائية مع الجميع. لقد انقطعت عن الالتحاق بأمسيات الجدة، وافتعال المشاكل مع محبوبة ووالدتها بات شغلها الشاغل.

أما أبناء عليا فَحُرِّم عليهم دخول منزل جدهم سلطان لأسباب لم أعرفها وقتها فامتنعت دليلة عن الذهاب لمنزل أبيها وأقسمت أن قدميها لن تطآه طالما حُرِّم على أبنائها، أي أبناء عليا. ذلك القرار أصاب الجميع بالصدمة.

أما دواس ومحبوبة ففراشات الحب كانت تحوم حول غرفتهما كل صباح، والقمر كان يسطع من أجلهما في المساء؛ كي ينعما بليالي هنيئة بعد أنهر من الجدال المستمر والشد والجذب بين أهلهما. حتى عندما يغيب القمر كنت أشعر وكأن نقاء حبهما ينير لياليا!

مؤمن وعلي الْتَحَقا بالمدرسة الثانوية. يقول مؤمن إنه سيسعى للحصول على تقدير يؤهله لدخول كلية الطب أما عليّ فقد قرر أن يصبح محاميًا ينتفع أبناء قبيلته بعِلمه. أعتقد أن ذينك الشابين قررا مصيرهما نتيجة واقعهما الأليم. مؤمن لم ينسَ خسارته عليا نتيجة عدم الحصول على الرعاية الطبية العاجلة، وعلي يسمعني أردد حاجتي الملحة لمن يدافع عن حقوق مسلوبات الإرادة. ليجعل الله أحلامهما حقيقة بين أيديهما كما وفقني في تحقيق حلمي وبتت قادرة على كتابة اسمي وتاريخ أجدادي!

انشغالي عن الحياة والعراك المستمر مع سالم بات واضحًا للعيان. كنت أنجز جميع أعمالي بصمتٍ. رأسي يضج بما قرأت ليلًا وما سأكتب مساءً ولا مجال للحديث

مع من حولي. منشغلة جدًا كنت بحياتي الجديدة التي أنشأت أعمدتها بنفسي، وجعلت أحلامها بلا سقف وقد لاحظت أمي ذلك ونبهتني أن أستعيد كامل طاقتي بحضور سالم، حيث أن انغماسي في التفكير طوال الوقت من الممكن أن يُفسر بطرقٍ خاطئة لكنها تأخرت جدًا بالنصحية!

ذات يوم هربت من تضييق الخناق عليَّ وذهبت إلى ملاذي، أي سطح المنزل. شرعت في التدرّب على الكتابة فسمعت عدة خطوات تأتي من خلفي فجأة. أخفيت دفتري داخل ملابسي وقرأت ما أتى على عقلي من آيات قرآنية تحفظني إذا ما كان الآتي أخي.

متى قدمت لي الحياة ما أرجو؟ والله ما رأيت منها إلا كل ما هو مؤلم وظالم، وكل خطوة خطوتها للأمام أعادتني عشرة للخلف! هدر سالم بكل ما أوتي له من قوة:

– إذًا ما سمعته صحيح! حفيدة الشيخ حمد تغازل الرجال من أعلى سطح منزلها.

(١٢)

إنها المرة الثانية التي يحتضن بها إسطبل الخيل الموجود على بعد عدة أمتار من بيتي صرخاتي وسط عتمة الليل ووحشته، وتشهد أحصنته على آهاتي دون أن يسمع حسيسي أحد. دون أن تنجدني أمي من بين براثن سالم وطُغيانه. دون أن تتدخل الجدة بحنكتها وتمتص غضبه أو يقف الصغار يشاهدون فيلمًا كُتب أعلى شاشته (للكبار فقط فالفيلم يحتوي على مشاهد دموية لا تناسب من هم أقل من ثمانية عشر عامًا).

فيلم كانت بطلته طفلة لم تصل بعد للعمر المنوّه لأصحابه بمشاهدته. بطلة صُبغ ذراعاها باللون الأحمر القاني على إثر لمسات وحش لم تمر الرحمة على جنبات قلبه من قبل! وعيناها استغل فنانٌ إحداهما وأبدع في رسم نقوشات بمزيج من ألوان عدة من القهر والظلم، والأخرى اندثرت بين هضبتين من التورم. يبدو أنها حاولت الاختباء من لكمة رعناء وعند اشتداد الهجوم آثرت الهرب.

شفتاها وأنفها اتصلا بسيلٍ من الدماء يتدفق من الأنف ليلتقي بجرحٍ طولي في الشفتين، تركته أصابع غاشمة هدية تذكارية كي لا يفرج لسانها عنً صرخاتها المكبوتة. استمر السيل في مشهد مروع، مرورًا بعنقها الصارخ ألمًا بفعل محاولات خنق عدة دون رحمة ثم صدرها المزخرف بسحجات دميمة قامت بها مخالب غفل قلب وعينا صاحبها عن الحقيقة. واصل السيل تدفقه إلى أن وصل إلى أضلعها التي حاد أحدهما عن مكانه في الصف والتحى توجسًا وخيفة مما هو قادم بعد تلقيه ضربة بقبضة يد لم تعرف معنى الحنو يومًا، وانقسم مشكلًا جزئين كل جزء منهما يحمل بصمة لتهمٍ بريئة منها صاحبتها كبراءة البتول. بريئة تأبى براءتها أن تظهر إلى العلن حتى بعد أشهر.

الدقائق التي انقض عليَّ بها سالم كوحش وجد فريسته بعد أسابيع من الجوع، بدت كسنوات من بنات النَّفس عندما بدأ بالتهام جسدي بمخالبه وأنيابه، معتمدًا على قوته الغاشمة.

أثناء جرّي خلفه إلى غرفة إذلال النفس بين الخيول كما أسميتها، كنت كالمحكوم عليها بالإعدام عند ذهابها إلى حبل المشنقة، بفاهٍ مكمم لمنع استنجادي بأهلي وعزوتي.

بعد اليقين بالهلاك على يده حين أكمل مشهد افتراسي الذي بدأه في أعلى سطح المنزل وأنهاه بين جدران الإسطبل، علمت أنني جَرَّرت عَلَى نَفْسِي الْمَصَائِب ففكرت بتبرئتها من اتهاماته، فانتصر الخوف على مراكز الاحساس بالألم وبتت لا أشعر سوى بالحيرة. أي تضحية سأقدم ليكف عن ضربي؟ هل أدافع عن شرفي وأندد بالطعن به دون تقديم حُجج مقنعة؟ أم يعلم بحقيقة تعلمي القراءة والكتابة وليحدث ما يحدث؟!

سالم في غضبه طاغوت لا رحمة في قلبه، وكل محاولات الدفاع عن نفسي بلا أدلة ستكون واهية لا فائدة منها لذا وكي لا أغادر الحياة قبل أن أنفذ قسمي وأترك لمن سيأتين من بعدي حذوًا يحتذين به، تخليت عن سري وحاولت إخراج الدفتر من داخل ملابسي لكنه انهال عليَّ بالضرب عندما تحركت يدي نحو صدري.

أعتقد أنه خُيل إليه أنني أُخفي شيئًا عنه، والحال أنني كنت سأظهر براءتي. شقّ عباءتي ولم يمهلني الفرصة ليستكشف ماهية ما بداخلها.

عند تصفح سطور الدفتر صرخ بي متسائلًا فحاولت إخباره أنني تعلمت الكتابة لتوي وكنت في أعلى المنزل أستذكر ما تعلمت، فأقسم على قتلي بعد أن يعلم هوية من تجرأ على عصيان أوامره، وحينها فقط علمت أن لا نجاة من سالم إلا بمغادرة الحياة فلا أنا سأكف عن التمني ولا هو سيستمع لما أقول.

حلّ الظلام وتحرك سالم الأهوج بين الخيل وهو يركض خلفي، يجذبني من شعري حيث رقعة تخلو من الأحصنة للنيل مني. أصابها بحالة من الهياج وعلا صهيلها، هل خوفًا أم يحاولون طلب النجدة بعد رحيله؟ لم أعلم! كل ما علمته أنها كادت تدهسني عشرات المرات وهي ترتكز على أقدامها الخلفية وترفع الأمامية مع أجسادها في مشهد تعبيري يجسد حالنا. القوي يدهس الضعيف، يعلو صوته ويمارس قوته لأنه يعلم أن ما يحدث في الخيام لا علم للحضر به، وإن كانت

أسرارنا لا تتعدى حدود القبيلة فسأبقى ذليلة يقوى عليها الضعيف ويمارس سطوته إلى أن تعلو كلمة رجال الحق على صوت الباطل.

صهيل الخيل وجنونها لا يتوقف كقلبي الذي سيغادر موضعه منذ أن غادر سالم متوعدًا لي بليلةٍ لن أنساها مهما حييت! لا مجال للهرب والأمل الوحيد هو الإنقاذ لكن من يستطيع إنقاذي من حالة هياج الخيل؟ وإن فعل، من سيتخطى سالم وأوامره؟

رفعت رأسي أناجي ربي ليهبني الحياة بعيدًا عن بطش سالم، ويدي تتمسك بأعلى عباءتي كي لا يظهر جسدي الذي استباحه وهو يشكك بأخلاقي. كل كلمة تقولها الجدة تُقدر بالذهب والياقوت، لطالما قالت إن بدر سيكون درعًا صلدًا أمام بطش سالم ونصحتني ولم أكترث! وها أنا أقتنع بما قالت في يوم لا ينفع فيه ندم!

سمعت هرجًا ومرجًا في الخارج ففهمت أن أمي باتت على علم بما أَلَمَّ بي وتحاول استرضاء سالم كي يعفو عني. فوجئت بخطواتِ أحدهم تقترب من الإسطبل فصوبت نظراتي نحو الباب الخشبي المتهالك، أترقب عودة سالم واستكمال هجومه الضاري.

أنا زهوة الهارون ومتى ذكر اسمي يُتبَع بكلمة البائسة فيصبح زهوة الهارون البائسة. من بين أُناس الكون كلهم، كان القادم بدر الذي مارست عليه كل سبل التفاخر والكِبر. جاء ليراني مزروبة في إسطبل الخيل كالبهيمة. ذلك ما اعتقدته والذي كذبته أفعاله عندما ألقى عباءته عليَّ وقال وهو يتفحص ملامحي بتوجسٍ:

– أي ذنب اقترفتِ حتى يصل بكِ الحال إلى هذه الحالة المتردية؟

ألقيت العباءة بعيدًا عني وقلت وأنا انزوي في ركنٍ بعيدٍ عن موضع قدم الفرس، أهرب من يد بدرٍ إن جاءت تُكمل ما بدأه ابن عمه:

– الذنوب شيء عضال، قلبي نقي لا يقترفها مطلقًا!

فهم ما يرنو إليه كلامي وقال وهو يزيح الفرس عن طريقه:

– أين نحن من قساة القلوب يا ابنة العم؟ دعي الشرّ جانبًا واستري جسدكِ وهيا إلى مجلس الجدة قبل عودة سالم.

تقوقعت على ذاتي أكثر مغمضة العينين، أطلب الحماية من ربي عند ذكره لسالم وأمر عودته. لاح طيف يده وهي تُرفع على وجهي تاركة بصماتٍ وحده الزمن قادر على إزالتها فانتفض جسدي واختلطت دمائي بحبات العرق المنسابة من جبيني إلى أصابع قدمي.

قلّص المسافة بيننا ودنا مني ثم قال وهو يجذبني من ذراعي:

– تحركي قبل عودة سالم! إن عاد ووجدني هنا ستسيل بركة من الدماء.

نفضت يده بذعرٍ حاولت اخفاؤه، متصنعة الكبرياء. لم يتجرأ من قبل على رفع عينيه عليَّ! ولمسه جسدي بتلك الجرأة أمر غير مقبول حتى وإن كنت أحتضر فقلت:

– إن كنت تخافه فارحل. أنا لم أفعل شيئًا لأهرب منه. إما يسلب روحي أو يصدقني ويعيدني هو إلى المنزل.

قال وهو يعاود جذب ذراعي وهذه المرة بحدةٍ أكثر:

– عنود وستتحكم بكِ كرامتكِ كما قالت الجدة! لا نملك الوقت لهذا الهراء! أنا لا أخاف سالم بل أخاف نفسي. إن جاء وحاول رفع يده عليكِ سيحدث ما لا يحمد عقباه، والكف الذي سيلمس وجنتيكِ سيقابله عشرة من يدي له. خاصمي حظكِ هذه المرة وهيا إلى الجدة! لا تسلمي نفسكِ فريسة إلى اتهامات عمتي بريكة إذا ما لاحظت وجودي هُنا.

– عمتي بريكة؟ إذًا هي من أطلقت الشائعات وأشعلت نيران الشك في قلب سالم!

ذلك ما همستُ به. درت بعينيّ من حولي وفكرت بما سيحدث إن شوهدنا أنا

وبدر بمفردنا في الإسطبل، سيقولون قبض عليهما بالجرم المشهود. الجبهات لا تهاجمني فرادى وإنما تُفتح عليَّ جمعًا، وكعادتي اختار الجبهة الأصعب للحرب كي أتفرغ للبقية في وقتٍ لاحق. قررت السير أمامه طواعية بعد أن التقطت منه العباءة وألقيتها على رأسي لتنسدل على باقي جسدي، تستر ما كشفته يدا سالم.

***

بين ذراعيّ الجدة اختبأت، أحمي صدري وأضلعي المتألمة المتورمة من أي هجوم متوقع حدوثه، على الرغم من أن العقل يقول تخطي سالم أو أي من رجال العائلة حدوده في حضرتها أمر غير وارد حدوثه! لكن أي عقل يفكر بعد أن احتجزت فتاة تحت أقدام الخيل ليلًا وتلقت الركلات الي أن كُسر ضلعها؟

حركت الجدة يدها على كتفي، تعتذر عما بدَرَ من سالم كما يبدو، وما بدَرَ من سالم لا تمحوه اعتذارات ملء السماوات والارض!

جثت أمي على ركبتيها وهي تخفض رأسها، تحاول تفحّص جسدي ووجهي واكتشاف جزء لم تطأه أصابع سالم. باءت محاولتها بالفشل فسالم صال وجال في جسدي وكأنني كنت أتبادل الحب مع أحدهم أعلى المنزل! احتضنت وجهي بكفيها وقالت وقد ذرفت من أجلي ما ذرفته العمة بريكة حين وفاة عليا، ترى هل مِتت لتفعل أم الموت على قيد الحياة أشد ألمًا:

– إلى متى يا بُنيتي؟ إلى متى؟

– إلى أن تكلل حربي عليه بالانتصار. إما أنا أو هو.

أجبتها وقد تلبستني روح المثابرة التي تعدو نحو حلمها دون أن تكل أو تمل، فقالت بنحيبٍ وهي تلكم فخذيها:

– القادم سيء، سيء جدًا! (ارتفعت يدها إلى الأعلى حيث القابع يسارها وتابعت) هذا يخبرني أنكِ لن تهنئي إلا بجانبِ عليا!

ابتسمت، وهل هناك أجمل من مجاورة طيبة الذكر؟ نظرت إليها فرأيت مدى الخوف في عينيها، فقلت محاولة إنهاء الحديث:

– كما أخبرتكم، ذهبت إلى أعلى المنزل كي أكتب ما علمتني إياه هلالة وقبل وصلات العتاب والتعنيف، كان للجدة علم بكل هذا. أنا لا أقدم شرف منصور الهارون لقمة سائغة لقليلات العقل والدين! والآن، دثريني يا جدة إن تأكدتم من صدق حديثي.

– جدتي، ابنة عمي أمانة لديكِ إلى أن أعود وآخذها منكِ على مرمى ومسمع من الجميع أما عن سالم فلي حديث آخر معه، وليشهد علينا كبار عائلة الهارون!

قال بدر بقلقٍ استبينته من نظراته وهو يؤمّنني عند جدتي بعد أن دار بيننا حديث طويل وأنا غافلة عن وجوده، سردت فيه أمي مجيء سالم وإلقاءه الدفتر في وجهها ونعتها بصفات لا يقوى قلمي على ذكرها لتقاعسها عن ممارستها أمومتها، وهل نجح هو بدور الأخ لتفعل أمي؟

لأكون صادقة، تلك كانت مرتي الأولى في تقبل وجود بدر من حولي. هناك شعور اختلج به صدري، رفضته بادئ الأمر لكنني اعترفت به بعد وقت، ولا بأس في الاختباء بين ذراعيّ بدر من سالم وعمي سلطان إن كان سيعطيني ما توسلت إلى سالم سنواتٍ لأجله ورفض.

توسدت رأسي فخذ الجدة بعد أن نهضت أمي لتُحْضِر لي ضمادًا تضمد به جراحي بعد أن ارتأت الجدة عدم بذلي مجهودًا كي تلتحم عظامي سريعًا، وطلبت منها إحضار الملح والتمر لعمل جبيرة مؤقتة ليضعنها على ضلعي المكسور إلى أن يغلبني النعاس ومن ثم سيتم انتزاعها.

عندما شرعت بذلك وكشفت عن صدري وخصري شهقت دليلة التي كانت تراقبنا عن كثبٍ:

– لتُكسر يده، الظالم!

التفتت أمي إليها، ترفع حاجبيها محذرة من غضب الجدة فجدتي بدوية تسري الأصالة في دمائها، لا تمرر الخطأ مطلقًا! وتطاول الزوجة على زوجها عيب لا يُقبل فقالت:

– لينقطع لسانكِ يا دليلة! متى دعت ألسنة فتياتنا على أزواجهن؟

جملتها صريحة، فتياتها وأزواجهن أي دليلة تخصها وسالم صار من الغرباء. ليس سوى زوج لابنتهم! استشففت من كلماتها احتدام الموقف بينها وبين سالم فتنهدت بطمأنينة. إن وقعت الوقيعة بينهما لن تعلو كلمته على كلمة الجدة، وهذا من حسن حظي. عاتبتها دليلة:

– ومتى أصبحت أرواح فتياتكم رخيصة يا جدتي؟ تتركون طاغوتًا كسالم يفعل بهن ما يشاء؟ عليا وماتت، وأنا يعلم ربي إن تكلمت سأحرق أم الرخم ولن تكفي مياهها لإطفاء نيرانها! وزهوة تحول جسدها إلى كتلة من الدماء. إلى متى يا جدة، إلى متى؟ ليكن بعلمكِ، إن فعل ذلك مع ثريا وعليا سأحرق الدنيا وأدخل بهما في قلب النيران كي نتخلص من هذا الجحيم.

انخرطَت في نوبةِ بكاء لم أرها بها إلا يوم وفاة أشقائها ويوم حنائها ثم هربت راكضة للخارج وتركتني أتخبط فيما ذكرَت بخصوص عليا، وعلاقة سالم بموتها.

***

تأخر سالم في العودة لكنه عاد وعودته كانت أملًا جديدًا يترعرع في داخلي، حيث دلف إلى مجلس الجدة مكفهر الملامح عاقد الجبين والحاجبين. جلبابه مازال ملطخ بدمائي. يبدو أنه كان يزن الأمور في خيمته قبل أن يواجه جدتي! ذلك ما لاحظته عندما تظاهرت بالنوم وراقبته من خلف الدِثار.

جلس مع الجدة قبالتي تمامًا ولم يحاول الانقضاض عليَّ والفتك بي كما خشيت. كاد يتحدث فمنعته الجدة وأشارت بيدها محذرة. حملق بها وكاد بؤبؤا عينيه أن ينصهرا من كثرة احمرارهما فتلك التي أطلقها من عينيه لم تكن سوى نيران.

همست الجدة بصوتٍ التقطته أذناي بصعوبةٍ:

– أنا من أحضرت لها الدفاتر وجعلت إحداهن تعلمها القراءة. إن كان لكَ كلمة بعد كلمتي فانطقها وسأترك لكَ البيت، وأجعل اسمكَ يُتَداول بين ألسنة المغرضين قائلين «سالم يتثاقل من أمانة جده الحمد».

تهديد صريح قالته الجدة لتثنيه عن غضبه الذي يجاهد ليكبته لكنه لم يأبه لحديثها وقال:

– كيف تفعل ذلك دون إذني؟

– أخطأت، ولو سمحت لها ووافقت من تلقاء نفسكَ ما فعلت! وخطؤها أصبح أمام خطئكَ رغم فداحة ما رميتها به، لكن سأتغاضى عنه في سبيل ألا ترفع يدكَ عليها مرة أخرى! لو كان منصور هنا لشق الأرض ودفنكَ حيًا!

قال وهو ينهض:

– لو كان أبي هنا لذبحها وتركها للذئاب في الصحراء!

– وأين سأكون لأتركه يفعل ذلك؟ حتى لو لم أكن هنا، نحن لا نترك نساءنا حتى لذئبٍ لا يعرف معنى المروءة. اذهب يا سالم وعد لرشدكَ. سلطان الذي يزرع في قلبكَ كره نساءكَ، ينحني سمعًا وطاعة أمام جميلة. كن حذرًا فزهوة جديدة أكثر خطورة في عرينكَ، تنام كل ليلة بين ذراعيكِ وتتغذى بدماءِ عليا. اسمع نصيحة العجوز لمرةٍ واحدة! أنتَ في خطر متى قررت الانقضاض عليكَ.

نظر لها متعجبًا. يبدو أنه أدرك تحذيرها فيما يخص دليلة! كاد أن يتحدث لكن منعه استئذان العمة بريكة للدخول.

صوتها كان بمثابة جهاز إنزار لاستفاقتي ويقيني أن القادم أَسْوَأُ، ففي الأشهر التي سبقت كشف سالم لِما قمت به، ازدادت أفعالها غرابة وعدوانية مع الجميع بمن فيهم العم سلطان لذا نهضتُ فزعة، أطالعها بتوجسٍ وأراقب تقدمها إلى أن

وصلت قرب الجدة.

وجهت أنظارها نحوي فدعوت ربي ألا تضع الوقود على النيران وتحاول إثارة غضب سالم بما تفوهت به في الأيام الماضية فيما يخص هلالة أو تكون هي من أثارت غضبه وكشفت عن هروبي لسطح المنزل.

«لقد تلبسها الشيطان!» ذلك ما صرخ عقلي به عندما تطلعت بي بتحدٍ وقالت:

– ماذا يا سالم؟ أرى صاحبة الصون والعفاف كاملة، لا يدان انكسرتا ولا رجلان قطعتا!

– ومن يستطيع فعل ذلك؟

قالت الجدة وهي تطلق نيران اللهب من عينيها ومن بين شفتيها كناية عما يُعتمل في صدرها، فأجابتها:

– سالم! وهل يمتلك أحد ما يمتلكه حفيدكِ؟ لكنها العدالة الإلهية. سرق مني أبنائي الثلاثة وسقطت شقيقته صريعة بين يديه وبمحض إرادتها. لنرَ ما سيفعله بها! تُرى هل سيتغاضى عن تلطيخ شرف الهارون بالتراب أو بالهواء الطلق، أيهما يريد أم سيمارس سطوته بسوطه ويديه أو بقدمه كما فعل من قبل؟

انتفض جسد سالم وراح يحدجها بغضبٍ. تملك منه الخوف، ذلك ما لاحظته عندما قبض على يديه بشدة تشي بمحاولته السيطرة على أفعاله. حاولت الجدة التدخل لإنقاذ الموقف الذي خرج عن السيطرة:

– حذرتكِ عشرات المرات يا بريكة لكنك تضربين بكلماتي عرض الحائط لذا آن الأوان لسلطانِ أن يتدخل.

أشاحت بيدها وجلست على طرف المربوعة في حالة من عدم الاحترام سواء للجدة أو لكلماتها، وأفرجت عمّا تضمره لي:

– عندما يعود من عِند الفلاحة أخبريه، لن أمنعكِ! لكن قبل أن تخبريه لنعلم

جميعًا ماذا كانت تفعل حفيدتكِ كل مساء فوق سطح المنزل.

حاولت النهوض للتحدث والمدافعة عن نفسي قبل أن يثار غضب سالم مرة أخرى لكن ضلعي وألمه كبلاني فتأوهت. منعتني الجدة وقامت بتلك المهمة:

– كانت تستذكر دروسها. كما تعلمين، لقد تعملت القراءة والكتابة وأبناء سالم يثيرون الشغب فكانت تهرب من الضجيج إلى الأعلى. لو وجدوا جدة ترعاهم ما صعدت زهوة لأسطح المنازل!

نهضَت بريكة باندفاع أهوج تتقدم منا وسط صمت سالم غير المبرر. خيل لي أنه سيقتنص أول فرصة للهرب خارج المجلس! قالت وهي تشير إليَّ:

– هل كُنت لأرعى أبناء سالم لتتعلم ابنتكم القراءة بينما دفنت ثلاثة من أبنائي أمام عيني؟

– على حد علمي، خسرنا اثنان وليس ثلاثة!

قالت الجدة فتابعت العمة بريكة:

– وهل خسرتم أحدًا؟ أبناؤكم هنا! سالم، زهوة، محبوبة، بدر حتى مؤمن ودواس أما أنا فخسرت كل شيء، والفضل يرجع إلى هذا القاتل. أشارت إلى سالم فاتسعت حدقتاه وراح يرجوها بنظراته ألا تفعل. فهمت ذلك من اتساع بؤبؤي عينيه. صرخت بها الجدة:

– اغربي يا بريكة، وإلا سأفعل ما يؤذيكِ!

– لن أغرب ولن أصمت! لتعرف زهوة أي الرجال هو، إن لم يتخذ قرارًا بوأدها كما فعل مع ابنتيَّ!

اندفع سالم نحوها رافعًا يده. يبدو أنه أراد قمع حريتها! أشارت لها الجدة ليخفي هلعه وأمرته وهي تشير للخارج:

– استدعِ عمكَ سلطان! والله لن تبيت بريكة في منزله طالما أنا فيه!

كاد أن يغادر لكن بريكة منعته وهي تمسك بذراعه. تحول محْجراها إلى ترسانة عسكرية وشرعت في قتله بأسلحته التي صنعها ثم وضعها بين يديها بمحض إرادته. صوبت قذائفها نحوه تصرخ:

– وماذا سيفعل سلطان؟ هل سيضربني بالسوط وأنا أحمل جنينه في أحشائي ويركلني إلى أن ألفظ أنفاسي الأخيرة بين يديه أم سيتزوجني بعدما قتل شقيقتي لكي أعتني بأبنائه؟ استدعِه يا سالم! لن يفعل بي أكثر ما فعلتَ أنتَ بابنتيَّ!

اللعنة على اليوم الذي جئت فيه إلى تلك الأرض! أنه يوم شؤم بحق! يا ليته لم يسامحني! ليته قتلني! ليت الخيول اجتمعت عليَّ ودهستني وغادرتُ تلك الأرض القذرة حيث عليا قبل أن أسمع ما تفوهت به العمة!

هل سالم من قتل عليا؟ هل هذا سبب كرهها له؟ هل تزوجته دليلة لتحول حياته إلى جحيم؟ هل وهل، وأهمهما هل هذه الحياة تستحق فرصة أخرى مني؟

(١٣)

دنيا فارغة يا عاليا، انحنى ظهري من ثقل مرارة الظلم القابعة عليه. أعلم! والله ما وَجَدتِ عِنْدَهُ الْحَنَاءَ يا ابنة القلب المُثْخَنة. نعم، ابنة القلب فالعقل استحى أن يجمع الكلمات في جملةٍ مفادها أنكِ ابنة عم، وآبى اللسان أن يناديكِ بها. بتّت لا أملك الجرأة لأدنس صلة القرابة كوننا ابنتا شقيقين وتسري في عروقنا الدماء نفسها وأنا شقيقة قاتلكِ.

جئت إليكِ محملة بأسئلةٍ، وحده ربي يعلم إجابتها لذا سأتنحّى عن السعي خلفها. لن أسألكِ ماذا فعلتِ وأي ذنب اقترفتِ ليدهسكِ تحت قدميه! وهل عرفت روحكِ الخطايا والآثام لترتكبي جرمًا يجعل سالم يستبيح دمائكِ؟ لكن لي عتاب عليك! لِمَ لم تطلبي العون منا؟ لكنّا جئنا وأنقذناكِ! لكنت عانقتِ صغاركِ ونلتم دفئًا لن ينالوه من بعدكِ، ولم تُمارس عليكم البرودة أقسى الحروب على السرائر وبالخلاء! لو طلبتِ النجدة وسمع عمي سلطان صراخكِ لقطع قدميَّ سالم قبل أن يفتك بأحشائكِ إلى أن تلفظي ابنتكِ قبل الأوان ومن بعدها روحكِ! لكن أخشى يا عليا أن أكون متوهمة وتلك الدماء التي تسري في سالم منبعها في قلب عمي سلطان!

قولي لي، من سيرجع سالم عن بطشه؟ من سيحميني إن رفض بدر احتوائي؟ حتى دواس أدار وجهه عن مساعدتي عندما طلبت منه محبوبة، متحججًا بحُجة نلت منها الويلات، وراح يردد «سالم رجل وطاعة رجال العائلة واجب أصيل لا يمكن الوقوف ضده الند بالند».

عليا، لن أخفيكِ سرًا! الطعام من خير سالم بات كالعلقم لا يمكن بلعه والنوم جافاني بين جدران منزله، خاصة بعد علمي أنكِ قتيلة عشقكِ الدامي، لذا قررت الهرب إلى أي عَرْض أجده أمامي حتى لو كان خيمة في الصحراء وليس منزل عمي خلف!

وافقت على الزواج ببدرٍ بعد انقشاع الستار حول بشاعة مصائرنا إن لم نكن تحت كنف رجل يقف لمفوضي العادات الغابرة، يدًا بيد وكلمة بكلمة وسيفًا بسيف.

موافقتي جاءت مشروطة بشروطٍ، إن وافق عليها كان بها وإن لم يفعل فسأرقد بجانبكِ ونقضي الليل في الغيبة والنميمة على رجال الهارون. حتى أننا يمكن أن نطلق عليهم أرواحنا لتبث في نفوسهم ما لم نستطع بثه ونحن أحياء!

بدر لن يمنعني عن السير في طريق العلم الذي سلكته! سيعطيني كل الوقت لتقبله كزوج. لن يرفع يده عليَّ مطلقًا! ستحظى ابنتي بكل الحقوق التي حرمت منها إن نلنا شرف إنجاب فتاة. لن تستمر خطبتنا سوى شهرٍ واحدٍ فأنا لم أعد أستسيغ فكرة البقاء في منزل سالم أكثر من ذلك.

سيحاول بدر إتمام أمور زواجنا خلال ذلك الشهر، وأنا سأخط أول خط في حلمي بدفترٍ مزركشٍ صنعت غلافه من المشغولات الصوفية الملونة بألوان زاهية تبث الأمل في الحياة كمحتواه. دفتر مذكرات سأضع فيه كل ما نشأت عليه من عادات وتقاليد بدوية تفخر بها النفس. سأوثق تاريخ أجدادي في حروبهم ضد الاحتلال على مر العصور وصولًا إلى احتلال إرادتنا في عصرنا هذا، في حكاياتٍ بطلاتها بدويات أرادت لهن الحياة حياةً لم يردنها! حكايات كُتبت بدماء عليا وزهوة الهارون والكثير من فتيات البادية. دفتر كُتب على غلافه زهوة الأعراف، ولتكن الأعراف شاهده على ما سأكتب داخله!

***

ذهبت إلى قبر عليا لأبحث عن الطمأنينة فقلبي يندد بأسئلةٍ ومشاعر فاضت بها روحي، ويا للخزي! طمأنينتي لم تكن سوى بين جدران القبور! عدت أدراجي إلى المنزل بعد مصاحبة روح عليا لبعض الوقت. أفضيت لها بما يُثقل صدري وشكوت سالم وأفعاله إليها، حتى تلك الندبات التي تركها على جسدي في إشارة منه على ما سيؤول إليه حالي إن حاولت عصيانه مرة أخرى.

في طريق عودتي، تقاطعت طرقاتي مع بدر الذي لم تسعه الفرحة البارحة عندما

أبلغته الجدة بموافقتي وقام بإطلاق الأعيرة النارية ابتهاجًا بالخبر السعيد.

صرفت ناظريّ بعيدًا عنه فعندنا لا تقف الفتاة في الخلاءِ لتتبادل الحديث مع الرجال حتى وإن كان ابن عمها وزوجها المستقبلي! لكنه أهوج تحركه العاطفة! إنه لشيء جيد أن يكون له قلب يسعد لصحبتي وينبض من أجلي لكن تهور قلبه سيقودنا إلى التهلكة إن أبصرتنا الأعين! ولمسه يدي حينها كان أكثر أفعاله تهورًا خاصة ونحن على بعد عدة أمتار من منزل عمي سلطان، وإن رأتنا عمتي بريكة سنصبح لقمة سائغة تلوكها بفمها كما تشاء بالباطل لذا نفضت يده بعيدًا وقلت بلهجة محذرة:

– افعلها مرة أخرى وسأقطعها لكَ!

قال ونظراته تتفحص تقسيمات مُحياي:

– ماذا؟

نظرت إلى يده وقلت بتعالي لم يتناسب مع نظراته الولِهة بي:

– يدكَ يا ابن العم.

تحولت نظرات القلق والوله في عينيه إلى أخرى متوهجة بنيران الغضب وقال:

– هل جننتِ يا زهوة؟ ستصبحين زوجتي عمّا قريب!

قلت بثقة في عهدٍ له مني أن أمنحه ما تشتهيه نفسه إن أصبحت زوجته، أي عندما تتم موافقته على شروطي:

– حينها افعل ما يحلو لكَ! أما الآن فلا يتوجب عليكَ سوى التفكير بما أملته عليكَ الجدة والموافقة عليه، واعطائي كلمة رجال لا رجعة فيها.

***

ليلة مقمرة داعبني قمرها من خلف النافذة. تسلل ضوؤه إلى الغرفة فجعل جدرانها

تتلألأ باللون الأزرق الزاهي فبدا وكأنه يغريني بسحره كي أشاركه الأمسية، وعندما تشبثت بموقفي مُرْغَمةً والتحفت بدِثاري خوفًا من سالم ويده التي لقنت وجهي

أقسى الدروس وقدمه التي كانت سلاحه في الفتك بعليا وجنينها، غاب ضوؤه ليعاقبني على تركي إياه وحيدًا في السماء والبقاء سجينة بين جدران الظلمات والويلات، وويل لكل من تجرد من التَّسرّي في ليل أَلْيَل في جوف الصحراء! لا جعل الله نهايتي وحيدة كالقمر، أستلقي في الخلاء وألتحف السماء!

من سبق له مجاراتي بالعناد وأفلح؟ هو غاب ليعاقبني لكن عندما داعبني طيف الحرية قررت الرشف من رحيقه، والذهاب له في عقر داره والتباهي بجرأتي على الإقدام بفعل ما لم تتجرأ بدوية على فعله من قبل.

حين غزت جيوش الأمل رأسي، استقمت على سريري أفكر كيف أستغل الليلة وأجعلها ليلة لا تُمحى من الذاكرة! قفزت إلى عقلي فكرة من شأنها أن تُخلّدني في التاريخ أو تجيء ليلة الغد وأنا أجاور جسد عليا في قبرها. ابتسمت ونبضات قلبي تعزف معزوفة موسيقية على لحن الأبجدية التي سعيت لتعلمها والآن أستغلها وأدون مَلْحَماتي بها كالتي قرأتها في الكتب الخاصة بالجد عثمان.

التقطت الدفتر والقلم ونقابي ثم تسللت خلسة إلى خارج المنزل عن طريق القفز من النافذة في مشهد مخزي. أي دين وشرع نص على مشروعية خروج الرجال لطلب العلم في وضح النهار وإنفاق الأموال عليهم ببذخ بكل الفخر والاعتزاز، وتسلل الفتيات كاللصوص من النوافذ فجرًا كي لا تلمحهن الأعين المتربصة وكأنهن يخرجن للحانات ليمارسن الفسق؟!

سرت كاللصة أتلفت من حولي لأتأكد من خلو الساحة من المارة في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وعندما التقت عيناي بالقمر ابتسمت له بفخرٍ، أتحداه بصراخ لم يسمعه سوانا. صراخ نابع من قلبي، أحدث فيضًا من المشاعر في داخلي فتحولت إلى حروب وأفراح قرعت لها الطبول.

«أنت تراقصت من حولي تذكرني بالحرية التي لن أحظى برفاهية تجربتها لكنني

عنود ولا بد للمرء أن يحسب خطواته عند مبارزة فتاة لا تملك شيئًا لتخسره سوى أمل في حياة ستهبها لمن سيجِئن من بعدها! هناك آمال غير قابلة للخسارة خلقت لتتحقق، وها أنا أقف أمامك وأتباهي بنفض غبار العادات الظالمة! فكيف حالك الآن؟ أنا حالي رائع جدًا!»

الحرية.. يا له من شعور يعيد إلى القلب نبضه وإلى الجسد روحه! حتى العقل يسمو عندما يتنفس المرء حرية «أنا حرة، أنا حرة!» ذلك ما صرخت به وأنا أدور حول نفسي والأمواج تدغدغ قدميّ.

أرفع طرف جلبابي فيعزف خلخالي مقطوعته المفضلة «أنا حرة! اسمعيني أيتها السماء! كيف تبدو الأرض من الأسفل وأنا أضرب عاداتها بالزلازل والفيضانات والأعاصير فأربكها؟ أدمرها بزلازل أحلامي وتأتي فيضانات وأعاصير إرادتي وتأخذها وتذهب بها إلى حيث لا رجعة. أتشعرين بوقع خطواتي يا رمال؟ وأنت يا أمواج، أتتراقصين فرحًا بما أقدمت على فعله؟ أتدعمينني؟ أتطلبين المزيد؟ أيعجبكِ هذا الدفتر ويستهويكِ ما كُتب فيه؟

توقفت برهة لألتقط أنفاسي. أفكر لِمَ منعت نفسي من خوض تلك المخاطرة الممتعة من قبل؟ لمَ وضعت موافقة سالم على أحلامي حاجزًا أمام تحقيقها؟ كنت أتوق لوطء الشاطئ ليلًا وحدي تحت ضوء القمر ولم أفعل، وتركتها حسرة في قلبي. إن كان الأمر سهلًا لمَ حرّمت على روحي عيشه؟

افترشت الرمال وقلبي يتراقص طربًا وتوترًا في آنٍ واحد من ذلك القابع بين يدي. أخيرًا شاء القدر أن أحقق حلمي! السماء من فوقي والبحر إلى جواري وقلمي بين يدي وعقلي يضج. من يستطيع إيقافي؟

سميت الله وأقسمت أن سيل كلماتي لن ينقطع عن كتابة كل خطأ اقترفه سالم بحقي وحق عليا، وكل ذنب راحت ضحيته بدوية في ريعان شبابها إلا بإرادة رب العالمين! وأن أجعل كل من تقع عيناه على كلماتي يغبطني على نسلي الطيب وأن يتمنى أن تسري في عروقه تلك الدماء التي نلت شرفها. سأكون عادلة! سأذكر عن مجتمعي ماله وما عليه وأترك الحكم لمن يقرأ، والثواب والعقاب لرب العالمين.

تنفست الصعداء ودعوت «اللهم أجعل ما أضمره لعائلتي شفيعًا لي عندما يستبيحون دمائي» ثم قبّلت الدفتر ممتنة له وقلّبت القلم بين يدي مبتسمة. شرعت بكتابة ما لم تتجرأ عليه بدوية من قبل.

***

هنا مرسى مطروح. بين أيديكم كلمات فتاة روعت سماء وصحراء البادية بجرأتها. كيف حالكم؟ أنا حالي كان حالكًا جدًا قبل أن تعيد الأبجدية النبض لقلبٍ كاد يفقد شغفه بالحياة.

أنا زهوة، ابنة شيخ العرب منصور هارون الذي توفي وتركني أصارع الحياة وحدي. حاربت الكون بأكمله. خضت الحرب دون سيف حقيقي وكان سيفي هو قلمي وعزتي التي لم تقبل الهوان والذل والوقود الذي سار بي إلى الشاطئ لأكتب لكم كلمات ليست كالكلمات، موقعةً باسمي دون خوف من لومة لائم أو بطش أيادي لن يروق لها ما كتبت كي أترك لكم ما يجعلكم تقولون مرت بدوية من هنا.

لم أخض تلك الحرب من أجل الحصول على قلم وورقة وكتابة ما يجيش به صدري فقط بل من أجل تغيير مسار مصير فتيات ذنبهن أنهن خلقن بدويات، ويتوجب عليهن العيش كما تمليه عليهن البادية بحلوها الضئيل ومرها الوفير!

لن أرسم الحروف فقط بل ستقرؤون مشاعرًا مرسومة بأنامل فنان أبدع في تصوير ما يحرق روحه كي تسمعوا حسيس من يصرخن بلا صوت، وتلك الدماء التي هرعت منهن هي دموعهن التي يذرفنها بعد كل حلم يحاولن تحقيقه ويراه الأغيار ذنبًا توجب عليهم عقابهن عليه.

لأنني أعلم أن دمائي ستسيل لأجل هذا الحلم عاجلًا أم آجلًا شئت أم أبيت، سأقترفه بنفسٍ راضيةٍ وكما يحلو لي وكأنه آخر ذنب سأقوم به! ولأن النهاية غير معلوم مصيرها وماهيتها غامضة بغموض القدر، ومن الممكن أن يطالني سوءٌ أصعب مما اقتُرف بحقي من قبل، قررت أن تكون البداية زاهية تعطي الأمل الذي سيتلاشى مع ذكري كمّ المآسي التي ألمت بي أنا والكثيرات مِمّن هن بمثل حالي،

ولتكن البداية نجاحي في الحصول على دفتر وورقة وأصابع تجيد رسم الحروف ولسان ينطقها بطلاقة كالبلبل!

انكفأت على دفتري لساعاتٍ لم أعرف عددها، أكتب وأسرد مواقف وحكايات وأحلامًا سرقت مني، وأعين غابت ولم تغب نظراتها عن مخيلتي وظلت محفورة في ذاكرة الأماكن والروح، وعراقيل أخّرت الوصول لتلك اللحظة حتى غفوت بين أحضان القمر ولم أشعر إلا بالشمس وهي تسدل خيوطها على الرمال والمياه لتنال أم الرخم شرف احتواء تلك اللوحة البديعة باحتواء طبيعة ساحرة وبدوية أكثر سحرًا.

فعلت ما لم يتوقعه أو يتقبله عقل! ولأنني تذوقت حلاوة البوح بمكنونات قلبي والتخلص من مرارة الآثام التي ارتُكبت بحقي، لم أغامر بأن يكتشف سالم أو عليّ غيابي أو تلمحني العمة بريكة وأنا أمر من جانب منزلها وتلصق بي تُهَمًا أنا بريئة منها.

نهضت انفض حبات اللؤلؤ العالقة بثيابي وركضت نحو المنزل ثم تسلقت السياج القصير الذي يحيط بالساحة التي تضم منازلنا والحظائر والزرائب وإسطبلات الخيل وبعض بيوت العرب المنصوبة لأمسيات السمر الخاصة برجالنا، دون أن يقبض عليَّ أحد بالجرم المشهود، ولم تعد الأنفاس إلى صدري إلا عندما استلقيت على سريري متظاهرة بالنوم ما إن مر أحد من أمام الغرفة، أحتضن حلمي المزركش الذي بات قاب قوسين أو أدنى من التحقيق وأحمد ربي آلاف المرات على توفيقي لما سعيت لأجله.

***

يومٌ مبهج خاصمت به حظي السيّء، واقتنصت من الحياة فرحة غمرتني ولم يستطع أحد سلبها مني. تنقلت بين جنبات المنزل بخفةٍ كالفراشة، أُنهي الأعمال المنزلية وبين الفينة والأخرى أطمئن على كنزي الثمين المخبأ أسفل وسادتي، وعند الانتهاء قررت إِطْلاع الجدة على إنجازي العظيم.

دسسته تحت ثيابي وذهبت لها كفتاة أنهك قلبَها التعبُ ورقدت لسنواتٍ على أجهزةِ إنعاش القلب، تتطلع للنجاة فأبى الطب أن يهبها إياها، وإذا بملاكٍ هبط من السماء يحمل بجناحيه ترياق الحياة فتجرعته وعاد قلبها ينبض مرة أخرى! وضعتُ الدفتر بين يديها بسعادةٍ، ووقفتُ شامخة افتخر بصنيعتي وأنا أضع يديَّ على جانبي خصري. أخرجت لها لساني وقد تلبستني روح تلك الطفلة التي نجت للتو من الموت المحتم:

– أسمِعيني أجمل مبارك من الممكن أن أسمعها في حياتي على الإطلاق!

قلبت الدفتر بين يديها ورفعت حاجبيها للأعلى غير مصدقة وقالت:

– فعلتِها يا عنود!

وثبت للأعلى أصرخ بصوتٍ لم يتجاوز جدران المجلس، وأنا أصفق في هيئة لا تتماشى مع محتوى الدفتر ثم أخبرتها أنني تركت لمن سيأتون من بعدي إرثًا يفتخرون به. تفقدَت الجدة صفحاته بإعجابٍ. رغم عدم قدرتها على قراءة ما فيه لكن يبدو أن قلبها قرأ حلمي من بين السطور.

جلست بجانبها بعدما باركت لي مؤكدة يقينها المسبق أنني سأفي بالوعد الذي وعدتها إياه. صمتت لبرهةٍ تنظر لي بتفحصٍ. بدت وكأنها تبحث عن شيءٍ أُخفيه في أعماقِ عينيَّ! تحولت لهجتها الفَرِحة فجأة لأخرى قلقة وتابعت:

– ما زلت أقلق حيالكِ وأعلم أن تهورِكِ لن يجلب لكِ سوى المتاعب!

استقمت أقبل يديها وطمأنتها بأنني تعلمت الدرس جيدًا، وقد نويت أن أجلس في مكاني عاقلة طوال الشهر المقبل إلى أن أذهب إلى منزل بدرٍ.

أخفقت في طمأنتها وشيدت طابقًا آخر من قلقها حيالي في قلبها فعبّرت عن رفضها لجوئي إلى منزل بدر كفتاة تهرب من سجن شقيقها لبيت زوجها، وتمنيها ذهابي كزوجة ذهبت لتنشئ حياة سعيدة مع زوجها. حينها كنت أتطلع إلى حياة هانئة مع بدر فأفصحت لها عن مكنونات قلبي تجاهه:

– إن وافق على شروطي سيثبت حسن نواياه، وحينها ستبتسم لنا الحياة وسيكون لي عائلة سعيدة وفتيات يحنو عليهن أبوهن. كما أخبرتكِ من قبل، سأكون امرأة سَرُوءًا وأنجب الكثير من الأبناء! يكفي أن يوافق على معاونتي فيما بدأته.

ربتت على ظهري مبتسمة تخبرني أن بدر كدواس ليس لهما صلة بسالم! مال قلباهما لنا وباتت كلماتنا تلقى استحسانهما حتى وإن رفضها العقل. أدركت أن بدر أبدى رأيه فيما عرضت عليه فسألتها فأجابت بكلمات أربكتني:

– قال لم أنتظرها سبعة عشر عامًا لأعذبها كالجارية في منزلي.

(١٤)

لم أعرف حقيقة تلك المشاعر التي بزغت في قلبي في الأيام التي تلت موافقتي على الزواج من بدر! هل هي اكتشاف لمشاعر ليست وليدة اللحظة وإنما دسستها في جنبات قلبي عندما طغى عليها الغضب، حالي كحال الكثير من بناتِ البادية، كبرنا على استمالة قلب من يقع عليه الدور من أبناء عمومتنا ليصبح المصير المظلم؟ أم أن إنقاذه لي في الليلة المشؤمة كان بمثابة كَوَّة خرقت قلبي لتطل على الواقع فأيقنت أن النجاة ليست سوى بين يديه حين شهدت الخيول على حفل تعذيب لم تنل شرف حضوره فتاة سواي؟ أم هو استسلامي في حربٍ أنا الخصم الضعيف فيها؟

بعد كل تلك التخبطات، أدركت أن تلك السعادة ومشاعر الانتماء نحو بدر لم تكن سوى طمأنينة لوجود رجل يحمي ظهري من غدر سالم!

باتت الحياة معادلة صعبة عليَّ بأضلاعها الثلاث، أنا وأحلامي والعادات متمثلة في سالم وطغيانه، ولم أستطع لسنوات الوصول إلى الناتج الصحيح لها! دائما هناك نقطة غائبة عني. أملك لسانًا بلا صوت، حجة صحيحة بلا عقول تستسيغها، ولا ضير من استغراقي سنوات أخرى كي أدرك أن بدر هو مركز القوة الذي سيقوى ضلعي به، ووجوده سيعادل كفتيّ الميزان! سالم والعادات في كفةٍ، وأنا وبدر في الكفة الأخرى لذا فما أكنه لبدرٍ ليس سوى أنانية مني باستغلال شغفه بالزواج بي لتحقيق أغراضي الخاصة!

أما هو فلم يكن سوى رجل تطلع للحصول على التفاحة التي طالما رآها تتمايل على فرع الشجرة، وعندما شب وطال جذعه خانته سعادته ولم يحسب حساب الغبار الذي يغفلها وسيهلك من سمومه!

إنه المساء حيث عودة الأمسيات بعد توقف نشوب المعارك والحروب في منزلنا، اللهم إلا من بعض المناوشات بين سالم ودليلة والتي كانت تنتهي برضوخ سالم

لغرورها. يبدو أنه يخشى غضب يديه المتمرستين في تعنيف زوجاته، وقدمه التي من شأنها أن تُنهي

حياة دليلة قبل أن تبدأ، وهناك معارك محسومة نتائجها لمحبوبة بفضل دعم دواس لها ضد والدته التي قالت عنها «بور» لم يستطع رحمها إنبات بذرة زوجها.

الجدة كانت قادرة على ردع العمة بريكة ليلة فضحها جرم سالم لكن نحن ما عدنا نكترث لأقوالها وأفعالها فبعد رفع الستار عن حقيقة موت عليا مرت بنوبة صراخ وهذيان بكلماتٍ غير مفهومة، لذا تراجعت الجدة عن عقابها وقالت «لقد جنت بريكة وما تقوله لكم عليكم بإلقائه في البحر! فما تتفوه به ليس سوى سراب في جوف الصحراء، يغازل أعيننا فنلهث إليه لكي نروي ظمأ أرواحنا المتعطشة للمياه وعند البحث لا نجد سوى لا شيء».

أزفت الآزفة وحانت الليلة المنتظرة، ليلة توزيع المهام المعتادة قبل كل عُرس. تحلقنا حول الجدة في رحاب مجلسها، تسكرنا روائح صكّت ملكيتها بصك البادية. روائح الخريف حيث نسمات الهواء الباردة ممتزجة برائحة اليود ورمال الصحراء وتلك الرائحة الزكية المنبعثة من سهرات الرجال في خيمة سالم. مزيج من رائحة الشاي والأدخنة الفواحة لوجبةٍ دسمة من لَحْم الضأن المَشْوِيّ.

تنقلت الجدة بنظراتها بيننا مبتسمة ثم توقفت رحلتها عند عينيّ. طلبت منّا أن نريها صنع أيدينا خلال الشهر المقبل وهي تنظر لي بامتنان، ربما على المثول لرغبتها! لو تعلم أنني جلست بينهن كعروس من أجل آخذ الأمان!

وضعت دليلة يدها على معدتها وتفقدتها بحنوٍ ثم نظرت لي بتعالي. تلك المتحولة لم أعرفها، أصديقة هي أم عدوة حين تعالت عليَّ بحججها الواهية:

– اعفيني يا جدة فمعدتي وصلت لأنفي ولا أستطيع رفع إبرة من موضعها! بارك ربي بمحبوبة وهلالة، تصنعان لزهوة كل جميل.

سريعًا ما أدركت عِلّتها، تلك اللئيمة لم تنس الحوايا التي وضعتها بلا رأفة في

منتصف عينيها كالنصل الحاد. أعدت تصويب سهم كلماتها نحوها وجلست أضع القدم فوق الأخرى حين قلت:

– الجميل لا يأتي إلا من الجميل! حتى أنني لست بحاجة لهداياكن فبدر يحضر لي نجمة من السماء إن أردت!

كادت تتحدث لكن سبقتها نظرات هلالة التي تطلعت بي مشدوهة من فجاجة دلالي ببدرٍ، ومحبوبة التي صاحت:

– ماذا؟ بدر، ويحضر لي! هل أصابني الخرف يا جدة أم أن الشمس شرقت من مغربها لأسمع هذا الحديث من هذه الجنية؟ هل هذه زهوة التي اهترأ لسانها وهي تقسم بألا تصبح زوجة لبدر مطلقًا؟

يبدو أنني تماديت في تفاخري بضعف إرادة بدر أمام مطالبي بعد أن أوزعته هديتي الثمينة عندما قلت نعم مشروطة! استرخيت في جلستي أداعب خصلات شعري المتناثرة على كتفيَّ في هيأتها الفاتنة. نظرت إليهن بثقةٍ جعلت جدتي تدرك أنني بتّت أقف على أرض صلبة فأوضحَتْ:

– ما سمعته آذانكن صحيح. هذه الجنية الصغيرة اقتنعت بأن بدر ملاذها بعد أن جف لساني.

ما هي ردة الفعل المنتظرة عندما نسمع أحدهم يدعو ربه علينا بالهلاك؟ هل نحسبه أمرًا عابرًا أم نقرر الإقدام على إهلاكه قبل أن ينهي كلامه؟ لقد قمت باختيار ردة الفعل التي تليق بي عندما همست عمتي بريكة:

– ليجعل ربي هلاكها على يده!

فقلت وعيناي تطلقان لهيبهما نحو دليلة، أعاقبها على فجاجة لسان والدتها:

– يبدو أن الجدة ستنفذ قسمها هذه المرة، ولن يجمعنا سقف واحد يا عمة!

ربتت على فخذي بغيظٍ واضح للعيان في تهديد صريح منها بهول ما سأراه في

منزلهم وقالت:

– أتوق لرؤية هذا السقف الذي سيجمعنا عمّا قريب يا أخت سالم.

أجفلت من لهجتها المعادية وما ترنو إليه كلماتها لكن ما لم أعتد على حسابه هو تصريح العمة نعمة بعقد بدر العزم على تجهيز غرفتين كانتا مخصصتين لاستقبال الضيوف في الجهة الخلفية من الفناء كمنزل يجمعنا بعد الزواج، وأنه طلب من الجدة الجلوس معي للاتفاق على بعض الأمور. رمقتها ممتنة حين فهمت أنها أرادت التوضيح للعمة بريكة أن بدر لن يقدمني لها فريسة بلا سند.

وافقت الجدة على طلب بدر وأخبرَتها أن يأتي في الغد لنجلس سويًا في حضرتها ثم وجهت حديثها لعمتي سليمه:

– يقولون إن موكب ابنة الشيخ مراجع سيمر من هنا غدًا. هل هناك مخطط للشيخ عثمان ينوي تنفيذه احتفاءً بها؟ أجابت عمتي سليمة:

– لا! الشيخ عثمان ينوي تعليق ذبيحة في عنق الناقة وكفى.

قررت الجدة أننا سنستضيفها في اليوم التالي، في احتفال يليق بالشيخ الحمد هارون والشيخ مراجع. عندنا عادة بدوية أصيلة تخص الزفاف من ضمن المئات من العادات التي توارثناها عن أجدادنا. عندما تتزوج فتاة من أحد النجوع البعيدة ويستغرق وقت الوصول إلى منزل الزوج عدة أيام، يتم الاحتفال بها في كل نجع تمر به. إن كانت ستمكث فستقام الاحتفالات وإن كانت ستمر فقط فسيتم ذبح الذبيحة وتعليقها في عنق الناقة التي تحمل هودجها.

***

في المساء وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال بابنة الشيخ مراجع شييخ قبيلتنا وكبيرنا، جاء بدر إلى مجلس الجدة صافية وجلس بصحبتها لبعضِ الوقت. طالت جلستهما ويبدو أن للجدة حديثًا معه غير مسموح لي المشاركة به!

أرسلت في استدعائي مع ماجد فذهبت إليهما على استحياء. تلك أول مرة أواجه فيها بدر وأنا عروسه المنتظرة! دلفت إلى المحرم وأنا أخفض رأسي بخجل. تبسمت الجدة وقالت وهي تشير نحو بدرٍ:

– جميعكم أحفادي وأفتخر بكم لكن هذا الوحيد الذي فعل أكثر مما توقعت منه! فليرضى ربي عنه!

تجهمت ملامح وجهي لَتَأتُ بدر بسهم نظراتي الحانقة فبادلني أخرى وقورة. مرة أخرى أثبت لي أنه رجل لا يشبه البقية، رجل بقلبِ إنسان بعيد كل البعد عن قلب سالم.

جالت في خاطري ذكرى يد سالم وهي تنهال على جسدي مستبيحة كل جزء فيه مع تصورِ لحالِ عليا وهو يركلها بقدميه غير عابئ بجنينها فقفزت عبرة خائنة من عينيّ لم أرد لها الظهور ضعيفة في حضرته. قلت بعد أن حادت نظراتي هربًا منه:

– وسالم أَيْضًا فعل ما لا يتوقعه أحد منه بل فعل ما لم يتقبله العقل أو القلب أو نخوة الرجال. هل ستدعين ربكِ أن يرضى عنه هو الآخر؟

اتكأت جدتي على طرف المربوعة، تحاول النهوض فعاونها بدر وقالت وهي تعاتبني بنظراتها:

– ما زال لسانكِ يضعكِ في موضع المخطئة رغم أنكِ على صواب! فكري بالكلمة قبل أن يفضحكِ لسانكِ يا ابنة منصور.

انفعلت. أي خطأ أضع نفسي فيه وسالم اعترف بجريمته ورأيته بأم عيني:

– هل خطأ ما أقول؟ ألم يفعل؟!

أجابت:

– فعل وسامحه عمكِ، وليس هناك كلمة تعلو على كلمته.

– عمي سلطان لم يمتلك عليا ليسامح قاتلها! هو فقط والدها. دوره أن يرعاها ويحنو عليها، يثأر لها إن سفكت دمائها غدرًا. حتى وإن سامح في حق عليا الكبيرة من يسامح في حق عليا الصغيرة؟ من سيشاركه ذنبها بسكوته عن الباطل يا جدة؟

كادت تجيب بكلامٍ لاذع، ذلك ما أدركته من تجهم مُحياها لكن ربت بدر على يدها بهيأته المتعقلة التي زادت من الموقف حدة، وتلفظ ببعض الكلمات المتحذلقة مثله:

– تعالى يا جدة! أسئلة زهوة لن تنتهي وإجابة هذا السؤال تحديدًا عِندي أنا.

غادرت جدتي إلى غرفتها وبقيتُ شريدة بين جدران أربع كمن تَرْعَى النُّجوم في ليالي الصَّيْفِ، أرسم في مخيلتي كيف سيتباهى بدر بإجابته، وداخلي يتآكل بفعل الأسئلة التي لا إجابات لها في الواقع.

قرع برفقٍ على الباب في استئذان منه للدخول فجمعت أطراف عباءتي لأفسح له المجال للمرور مع أنني وعباءتي لا نشغل حيزًا سوى ربع المتر من المجلس لكنها ردة فعلي لحيائي منه. جلس بالقرب مني مع مراعاته لترك مسافة بيننا وقال مبتسمًا:

– لسانكِ بلاء لكنه لا يسقط إلا على رأسكِ!

اغتظت منه. لو أن أحدًا غيره حدثني بفجاجةٍ هكذا لأخرجت له لساني كي لا ينعته بالبلاء، وقلت له عقابًا لكَ لن تتذوَّق حلاوة التفاحة التي طالما اشتهيتها، وليصبح لساني بلاءً على رأسكَ بحقٍ! لكن الارتباك من نظراته يزيد الأمر سوءًا فتحليت بالشجاعة وقلت:

– قلت إن الإجابة عندكَ. أرِني إياها!

مد يده لي على حين غرة فانتفض جسدي. «ماذا يريد هذا؟ هل مد يده طالبًا لأيدينا العناق؟ ولِمَ يبتسم ببلاهةٍ هكذا؟ هل وجدني فريسة سهلة سينال مني مع وجود غضبي من أخي في قلبي؟» ذلك ما فكرت به في الجزءِ من الثانية الذي سبق قوله:

– الإجابة بين يديّ أنا. لسانكِ وحده لن يستطيع مجابهة عادات منذ آلاف السنوات! لابد ليديّ من معاونته وهذا لن يتم إلا بعد ثماني وعشرين ليلة! تمهلي يا زهوة!

السير مع بدر يدًا بيد أمر خطير وإن دخلت عرين الأسد فالخروج منه صعب بل مستحيل! أردت الوقوف على أرض صلبة فسألت:

– وهل ستقف الند بالند لسالم، وتطالب بحق بنات عمومتكَ؟ بالطبع لن تفعل! لا تسخر مني يا رجل! لطالما واجَه بدر مَشاكِلَهُ بالتّرِيُّث فبعد استخفافي به تنهد، غضبًا كما أعتقد وقال:

– لأكون صريح معكِ! المطالبة بحقٍ عليا سيكون إهدارًا للوقت والجهد والعلاقات فيما بيننا، لذا لن أفعل ويكفي أن أضمن لكِ ألا يمسكِ أحد بسوءٍ وأن أسير في دربكِ إلى أن يغادر أحدنا هذه الأرض. أعدكِ أن أكون سالم ومنصور وبدر الهارون بقلب رجل واحد، وأن تحصل ابنتنا على ما سعيتِ وحدكِ للحصول عليه لكن كما وافقت على الشروط التي لا يقبلها رجل من قبيلتنا، لدي التماس أرجو موافقتكِ عليه حتى لا أشعر أنني انتظرتكِ سبع عشرة سنة عبثًا، وأنكِ تخليتِ عني في غضون سبع عشرة ثانية.

– قالت لي الجدة أنكَ قلت إنك انتظرتني سبع عشرة سنة. هل لهذا الأمر توضيح أم أنها كلمات عابرة قيلت في سياق الحديث؟

– بالطبع لها مدلول أنوي إخبارك به في وقتٍ لاحق فلعل الدقائق القادمة ستجعل من سببها واهيًا بلا أهمية!

فهمت حينها لمَ امتنع عن الإجابة. يبدو أنه خشي رفضي ما سيطلبه فقلت:

– لديكَ شروطٍ فهاتها يا ابن العم! جلستنا طالت ولا بد لي من الذهاب.

– دعيني أخبركِ أنه رجاء وليس شرطًا! أنا لا أشترط عليكِ أمورًا للزواجِ منكِ!

رفع حاجبيه وحدّق بي مبتسمًا وتابع فزادت بسمة هذا الوسيم السوء سوءًا:

– رجاء ألتمس موافقتكِ عليه.

نقطة أخرى أضيفت إلى رصيد بدر الذي كان ينتقي كلماته بعناية تجعل قلبي يهوى صحبته ثانية بعد أخرى فقلت مبتسمة:

– اعرضه عليَّ إذًا!

– لا تذهبي بقدميكِ حيث النيران، وإن فعلتِ فلا تصرخي من الألم عندما تلتهمكِ!

لم أفهم مقصده! هل يطلب مني عدم التنديد بالألم؟ عاتبته:

– حتى الصراخ عندكم ممنوع!

– زهوة، اسمعي! أمامكِ ثمانية وعشرون يومًا وسبعٌ وعشرون ليلة. تحملي دليلة ومضايقات والدتها! لا تمري من طريق سالم! اجلسي هنا قطيعة اللسان إلى أن آتى وأخذكِ! حينها، إن حاول سالم رفع يده ستسبقها يدي وإن رفع صوته سيجدني في مواجهته.

لا! هذا الرجل يريد أن يحتل قلبي ويعرض عليَّ طرقًا عدة فاحترت أيها أسلك. «إما أن بدر فخ نصبه سالم لي ليتخلص مني ويجعلني أوافق عليه دون حروب أو أنه مصالحة القدر لي! خياران ليس لهما ثالث»، ذلك ما فكرت به وأنا أمعن النظر به كالبلهاء.

– بدر! يبدو أنكَ على علم بما مررت به في السنوات الماضية، لذا لن أجادلكَ! يكفي ألا تجعلني أندم على الثقة التي وهبتكَ إياها.

نهض مبتسمًا وقال:

– أغلقي فمكِ ثم تعالي إلى بيتي وثرثري وتمني كيفما تشائين!

تبعته وهو يسير نحو الباب، أطالب بالمزيد من الحديث. صحبته طيبة لم أرد لها أن تنتهي فنحيت الستار عن مكنونات قلبي وسألته:

– هل سيصبح لي بيت وحدي؟

قلّص المسافة بيننا ثم مال برأسه نحوي وقال جملة كان من شأنها أن تجعلني أعده خير حليف لي:

– لست وحدكِ من تقدمين على فعل أشياء لم يفعلها سواكِ يا زهوة القلب!

***

فراشات قلبي ظلت لليالي تتقافز من حولي، تذكرني أجنحتها بتلك الحياة الوردية التي لم يصفها لي بدر لكن كلماته ووعوده فعلت. مجنونة أنا، أعلم! لكن يبدو أن مسار حياتي هو أكثر ما يدعو للجنون! أنا على أعتاب العشق. قلبي يكاد يتوقف عندما يتم ذكر اسم بدر، نبضاتي تتسارع وتيرتها وتهيئُني لحياة لم أتخيل في لحظةٍ ما أنني سأصبح جزء منها! هل ذلك هو بدر الذي أقسمت ألا أتزوجه وصرخ قلبي رافضًا وجوده؟

الآن لا أنام الليل وأقضيه هاربة على الشاطئ أكتب في الليالي القمرية، وعندما يغيب القمر، أرسم لحظات حدس في داخلي يحذرني من استحالة تحقيقها لكن النتيجة واضحة! زواجي من بدر بكامل إرادتي قاب قوسين أو أدنى من التحقيق، ولا يسعني سوى محو تراكمات وغبار رفضي له لسنوات من قلبي.

ذلك ما حثثت ذاتي على فعله وأنا ذاهبة إلى الشاطئ حيث ذلك الساطع في السماء في أول أيامه، ينتظرني وقد جئت إليه محملة بما سيسره! ولأن القادم أجمل وزاهي كاسمي بلون الورد وعِزَّة البادية، قررت التخلص من كل ما هو قاحل في حياتي. الكثير من الذكريات والمشاعر السيئة، ثياب شهدت على تجاوزات ارتكبت في حقي لا أريدها في خزانتي بعد الآن، خاصة تلك العباءة التي مزقها سالم بيديه حين علم أنني امتلكت بين يدي نبراس العلم والمعرفة بالإضافة إلى عباءات

سوداء تلطخت بذكريات الأيام الغابرة، أرتديتها حدادًا على عليا وسفيان ورائف في أيامنا الغابرة.

التخلص من ذكرياتي السيئة أمر كان لابد منه، فسَيل من أخرى مبهجة سأجد فيها المَسَرَّة ستحتل كياني. تلفتّت من حولي خشية أن يجدني سالم، ليس خوفًا منه فقد كنت على يقين من دفاع رَجُلي المستميت عني ولكن لا أريد أن أنقض عهدي مع بدر، ولتمر الفترة المقبلة بسلام!

وضعت الصُّرَّةُ التي فيها الثياب على الأرض وأخرجت لها لساني في مرح طفولي. تخلصي منها، ووعود بدر لي، وذلك المنزل الذي أشهد على تجهيزه كانت أكبر انتصارات لي على كل ذكرى خبيثة في عقلي.

رفعت العباءة وأحكمت وضع جزء منها أسفل المخزم كي لا تعوق تسلقي السياج ثم التقطت الصُّرَّة مرة أخرى لأزفر. لا أطيق الصبر أكثر! مشتاقة للتخلص من تراكمات أعوام من الحزن. هممت برفع قدمي لأتسلق السياج فشعرت بيدي أحدهم تقبضان على رأسي فجأة فانزلق حجابي ومن بعده قدمي.

صرخت ليس فزعًا من قبضة اليد وإنما مما أَلَمَّ بقدمي. لم أمتلك الجرأة لألتفت كي أعرف هوية قاتلي، فأنا اليوم مقتولة لا محالة! ذلك ما جال في خاطري. الأمر حدث في لحظة وكنت لا أزال أسيرة قبضة جديدة عليّ لم يستطع جسدي التعرف عليها والعمة بريكة تهدر:

– يا ويلي! أخت سالم هاربة وبيدها صُرَّةٌ. ألم أقل لكَ يا سلطان؟ ابنة أخيكَ تقابل أحدهم كل ليلة على الشاطئ لكن لم أتخيل أنها تخطط للهرب معه، وقبل عرسها بأيام. يا للعار الذي طالنا ولن نستطيع محوه إلا بالدم!

(١٥)

مما لا مشاحةَ فيه أن مسار حياتي تبدل في تلك الليلة. بعد أن كنت أهرول نحو جنة الله على الأرض، وجدتني في غمضة عين وانتباهتها أطوف في البرزخ، ويبدو أنني سأعبره إلى حياة أخرى ليس فيها قمر يغريني، وبدر سيتخلى عني! ضمن عائلة اتنحى عن وصفها بكلمات نابية.

كنت ذاهبة لمحو ندبات الظلم العالقة بثنايا روحي في جلسة افتتاحية من معاهدة السلام التي قررت عقدها مع الحياة، وكان مقررًا أن تتبعها جلسات عدة إلى أن أسير نحو الشاطئ يدًا بيد أنا وبدر متى طلبت نفسي ليلًا أو نهارًا، لولا عناد القدر الذي كان له رأي آخر فبدّل تلك الندبات بحفرٍ عميقة لا معاهدات ولا معجزات باستطاعتها محوها! وبت صريعة التفاصيل فمشكّلتي التي قادتني إلى التهلكة كانت تعمّقي بالتفاصيل، أدقق في كلماتِ تقال في منتصف الحديث فتجعلني أصارع عشرة رجال.

ثياب شهدت على حادثة اغتصاب إرادتي فأقرر التخلص منها بمشهد اسطوري على شاطئ البحر، وكان بإمكاني تركها في منزل أبي عند زواجي أو حتى حرقها لكن كيف لزهوة جلابة المصائب أن تهون الحياة على نفسها؟ حتى العمة بريكة حشرت أنفها بتفاصيلي وقدّمني لها تهوري على طبق من ذهب.

جَأَرْتُ إِلى الله لِيسْمَعَ دعائِي، ويَأتي بدر ليُنقذني بينما أحاول التملص من قبضة عمي سلطان حين قبض عليَّ بالجرم المشهود وأنا أعبر السياج إلى خارج سجن الهارون في الجهة الأخرى من الأرض، فكُتب عليَّ في تلك اللحظة أن أصبح سجينة لآخر نفس التقطه في حياتي، عندما التفتت برأسي لأتعرف على صاحب القبضة المهلكة التي انتزعت بصيلات شعري من موضعها.

صدرت عني شهقة تلتها صرخة عندما أبصرته. أفزعتني لطمته الأولى حين هدر بي:

– إلى أين يا باغية برأسِ أفعى؟

باغية! هل ابنة الهارون تنعت بالباغية، وناعتها يتفاخر بسؤالٍ لا تملك الجرأة للإجابة عليه؟ وأي إجابة أعطيه؟ هل إن قلت إنني ذاهبة لأعاهد القمر وأتخلص من ندبات تركتها عاداتكم البالية في روحي سيصدقني أو يعي مقدار معاناتي؟ بالطبع لا! وإن فعل فهل لساني كان سينبس بحرفٍ وكل أعضاء جسدي توقفت عن العمل ذُعرًا من الهلاكِ؟ لكن الكلمة كانت ثقيلة على روحي. لم تتقبلها دمائي الشريفة، وكان لِزاما عليَّ أن أُبْرِأ نفسي لكن كيف وعمي سلطان أمسك بي وأنا أعبر السياج نحو الخلاء والساعة تقارب الثانية فجرًا؟ أي حجج واهية سأقول؟

هز رأسي معنفًا ثم كرر سؤاله. تصلب جسدي وابتلع الخوف لساني ولم تقصر زوجته فأضافت الوقود بسخاءٍ على النيران حين أشارت إلى الصُرَّة قائلة:

– أنظر إلى شقيقة قاتل ابنتكَ العفيفة الشريفة، ماذا تحمل بين يديها.

تلقيت ركلة من قدمه الغاشمة على جانب خصري الأيسر فوضعت يدي على موضعها أصرخ. يبدو أن كبدي تهتك! وبين كل ذلك الخوف والألم تذكرت فلذة كبده، وأيقنت أنها العدالة الإلهية أو انتقام العمة بريكة الذي لم أحسب أنه بتلك السوداوية والدناءة! ذلك كان تفسيري اللحظي لوجودها في ذلك الوقت المتأخر من الليل خارج المنزل.

يا ويلتي! كيف سأفسر وجود الثياب التي في الصُرَّة؟ وددت التحدث ليس للدفاع عن نفسي لكن لطلب النجدة من بدر! هو وعدني وقد حان الوقت لتنفيذ وعده.

«أين أنتَ يا بدر؟ تعال وخذني من أرض يجور بها الباطل! يركض والحق يتعكز على ظهر المظلوم» ذلك ما أراد لساني الصراخ به لكنه عجز ففعل قلبي الذي توسل إلى بدر للمجيء قبل أن يحضر سالم وتصبح اللطمة خنجرًا يقسم قلبي الى شطرين.

تابعت العمة:

– ليأتي سالم ويرى ما تفعله شقيقته بينما هو يسعى خلف أبنائي.

بصقت في وجهي فأشعلت ذرات لعابها التي استقرت على مُحياي النيران بي كما لو أنها وقود تم إلقاؤه في وسطِ النيران. التفتت متوجهة نحو منزلنا فرحت أهز رأسي رافضة سالم وحضوره وإذلالها لي.

توسلت إلى عمي بنظراتي ألا يستبيح دمائي لكن دماء سالم كان منبعها قلب العم كما توقعت. جرني خلفة كالبهيمة النافقة وهو يقبض على خصلات شعري، وما زالت قدمي عالقة بين القضبان الحديدية. يبدو أنها تمسكت بي كما لم يفعل أحد فبتت عالقة بين وحش سيقدمني وجبة سريعة لأبناء قبيلته وقضبان حديدية رأفت بحالي، وفي كل مرة جذبني بها كانت ترفض إطلاق سراحي، تعدني بعدم تخليها عني لكن هناك وعود ضئيلة تتلاشى أمام القوة الغاشمة!

استمر الشد والجذب بين عمي والقضبان الحديدية إلى أن سمعت صوت طقطقة قدمي التي تهشمت فدوت صرختي في سماء البادية. المؤلم ليس تكسر عظامي فقط فتمزق روحي المُهانة تخطى تهشم قدمي العالقة. صراخ منقطع النظير وتوسلات إليه ألا يجرني فالحجارة والحصوات تزيد من ألمي لكن من يسمع ومن يشعر؟!

سار بي عدة أمتار إلى أن تجمعت العائلة من حولنا وأول الحاضرين كان دواس الذي سأله عما يفعل بي، وحذره من موتي بين يديه فأجابه بصوتٍ جهوري اخترق أذني وجعل نبضات قلبي في تدافع، تحاول التوقف من تلقاء نفسها قبل أن تستقر رصاصة غادرة في جنباته:

– ستموت على أية حال. أحضر سلاحي!

اندفع دواس يحاول إِنْقاذِي من بين يديه فعنفته أمه:

– لا تتدخل! إنها فاجرة، أتركه ليقتلها!

انقضت أمي عليهم، تحاول حمايتي من أياديهم التي لم يخلُ مكان في جسدي من بصماتها وصرخت:

– بُنيتي! ابتعدوا عنها! أين كنتِ يا زهوة؟

دفعها عمي سلطان فانكب جسدها على الأرض كمن تلقت رصاصة في قلبها. لم تقوَ على الوقوف وخارت قواها فصرخ بها:

– كانت تنوي الهرب. بارك الله ببريكةٍ! هي من أيقظتني لتنبهني بفعلةِ الحرباء ابنتكِ.

«لعن الله بريكة ولعنني ولعن حظي الذي أوقعني بين أيديكم! جاءت أمي طوق نجاتي، هيا يا أمي اقتلعي ابنتكِ من بين أنيابهم»، ذلك ما صرخت به أو لأقول توسلت به نظراتي إلى أمي لكن كما قالوا عنا، لسان مقطوع وأيدٍ تعمل بوقود لا يحترق! سكتت أمي وابتلعت عمتي نعمة لسانها. احتضنت محبوبة بدور واستمر عمي بجري نحو وجهة لم أعرفها.

«أين سيذهب بي إن كانت العائلة برمتها تحيط بي؟» تساءلت وسرعان ما حصلت على إجابتي حين صرخ:

– دواس! تعجل وأحضر لي سلاحي. أنا في مجلس جدتكَ، وأنتَ يا عليّ، إرفع يدكَ عنها. لا بد وأن نعلم إلى أي نجس كانت ستذهب؟

«يا رب! عصاني لساني لكن قلبي يدعوك فكن معي!» همست بها وأنا أرى طيف سالم يقترب منا، ودليلة تسير من خلفه تهندم حجابها. رغمًا عني التفتت نحو السياج، أتمنى لو تأتي قوة خارقة تحمل جسدي إلى خارجه فتتلقفني الأمواج وأتلاشى فالموت الرحيم في حالتي حلال طالما سأتلقى الويلات على يد سالم.

كان أول ويل هو سؤاله عن سبب الجلبة فوهب عمي سلطان مصيري له وبجانبي خنجر، معطيًا إياه الحرية الكاملة. إن أراد طعني في قلبي فليفعل! وإن أراد تقديمي وجبة للذئاب في الصحراء فالقرار له لكن سالم منفردًا، يفعل ما لا يتوقعه عقل!

أشار للجميع بالصمت ونظر لي دون أن يتحدث. نظراته كانت كفيلة بدبِ الرعب في أوصالي. ملقاة على الأرض، عائلتي من حولي، واثنان انتزعت الرحمة

من قلبيهما يعتقدان أنني ارتكبت ذنبًا لا مغفرة له.

«الجوّ صقيع وكأن السماء أمطرت ثلوجًا فاكتست بها البادية. أين أنتِ يا جدة؟ ليتكِ تدفئينني! وأين أنتَ يا بدر لتحتويني؟»

صرخت روحي فلبت جدتي النداء وصاحت:

– ماذا هناك؟ ليأتي أحدكم كي أتعكز عليه!

ليتني حرة وجئت إليكِ زاحفة! يا لمعاناتي! فسرعان ما اشتقت للحرية وكنت ما أزال في بداية مشوار العبودية، فماذا سأفعل بعد مرور أيام عجاف لا أعلم إلى متى ستطول وما ستؤول إليه أحداثها؟!

راحوا يصرخون ويتدافعون وأنا منشغلة بهمّي. جاءتني الجدة تلهث. حاولت جذب يدي من يد سالم الذي كان متوجهًا بي نحو جهنم حيث الخيول الهائجة والظلام المخيف والكرامة التي تداس تحت الأقدام.

«بدر! أين أنتَ؟ تعال وأثبت لي أنني كنت على صواب حين أعطيتكَ مفتاح قلبي! تفاخرت بيدكَ التي ستسبق يد سالم، تعال فيده الآن تكيل لجسدي ما لا طاقة لي به! قلت إن كلمتكَ أمام كلمته، تعال فقلبي سيتوقف من الخوف! بدر، تعال وخذني من هنا!»

صرخ قلبي مرة أخرى ولبى بدر نداءه كما فعلت الجدة وجاء يهرول من الخارج فطاوعني لساني لأول مرة منذ أن أُمسك بي فقلت متوسلة وسط صمت الجميع سوى من اتهامات العمة بريكة التي لا تنتهي ولو أسكتها أحدهم ما حل بنا ما حل! وسباب سالم الذي طال أجدادي، وصوت اصطدام قدم عمي بعظامي:

– بدر! تعال فيد سالم سبقتكَ، وقدم عملكَ لا ترأف بي! حان وقت الوفاء بالوعود.

أي وعود انتظرتها منه وهو لم يلتفت لِما قلت؟! توجه نحو سالم يسأله فلم يجِب

وطأطأ رأسه يتوعدني. صرخت به دون صوت ألا يحني رأسه. لم أقطع كل هذا الطريق لأحني رأس أخي!

وجدتها العمة بريكة فرصة فزادت من الوقود لتشتعل النيران أكثر:

– تعال يا بدر وأنظر ما فعلته بكَ ابنة عمكَ! وجدناها تهرب وبيدها ثيابها في منتصف الليل.

«لا يا بدر، لا تصدقهم! والله لم أفعل! كنت ذاهبة لأغسل روحي من وسخ الماضي وأهرب من ترسبات الحقد التي تقف في طريق سعادتي معكَ كي آتي إليكَ مبتهجة وقلبي مفعم بالأمل كما أنجبتني أمي» كلمات أراد عقلي قولها لكن أخرستني نظرات بدر التي لن أنساها مهما حييت! وكأنه يستحلفني ألا أصدق على ما قالته! وعندما طال صمته ألقت عمتي على صدره تلك الصُرَّة التي تحملها بين يديها كالكنز منذ أن أُمسك بي، لِمَ لا وهي برهانها على اتهاماتها الباطلة بحقي؟

تفقدها بيدٍ مرتجفة ثم ألقاها عليَّ يهز رأسه رافضًا ما وجده بها، واتضح أن وعود بدر ذهبت مع الريح في أول عاصفة تهب علينا بسببِ بعض الثياب اللعينة.

– نظف شرفكَ يا سالم! انشغلت يدكَ بدماءِ أبنائي وتركت شقيقتكَ للفسق والفجور.

استمر لسان بريكة بالعبث بقدري، وعلى حين غرة مني، انحنى سالم بجذعه نحوي ثم قبض على كتفيَّ ونهض بي. تسللت يده إلى عنقي وأحاطته وراح يصرخ بي وهو يزيد من الضغط بيديه فبات التقاط رئتيَّ للأوكسجين مستحيلًا. حاولت الفرار منه ليس خوفًا من الموت! ليتني مت حينها لكنني أردت الارتماء على الأرض مرة أخرى فآلام قدمي ما عادت تُحتَمل!

توجهت إلى بدر أتوسل إليه «أين ذهبت وعودكَ؟ أين نخوتكَ التي حسبتها فيكَ؟» جملاً أخرى صرخ عقلي بها لكن لساني فقد القدرة على النطق من هول احتشادهم من حولي، إلى أن حصلت على إجابة لتساؤلاتي حين أعطاني ظهره

موليًا، تاركًا خلفه فتاة وضعت كل آمالها بين راحتي يديه فألقاها تحت الأقدام وهرب، وما أبشع هرب الرجال من ساحة الحرب! درس آخر تعلمته، لا كلمة لأحد! الوعود واهية، وهناك رجال يتخلون في أول مفترق.

كنت أصرخ وسالم يجذبني متوجهًا بي حيث أكثر الأماكن ثقلًا على قلبي. عمي ما زال ينهال عليَّ بالركلات، إنه ينتقم لعليا لا محالة! جدتي تحذرهم من التمادي، أمي تصرخ والبقية أصبحوا كأصنام الكفار وآلهة الضلال. ذلك كان حالنا في ليلة غبراء، قبل اندفاع علي ليحاول إنقاذي من يد سالم لكن مؤمن منعه صارخًا:

– ابتعد! أتركه يدخلها! سنُفضَح إن رآنا أحد هنا.

«لعنكم الله جميعًا! أين ألسنتكم؟ أين ضمائركم؟ ألم يشفق أحد على حالي البتة؟ أين عائلتي ويا لعاري إن كنتم أنتم عائلتي!» تلك كانت كلماتي المعاتبة التي لم أنطقها أيضًا، وعلى بعد أقدام من باب الإسطبل، صرخت جدتي:

– أتركها يا سالم! زهوة لا تفعلها! أنا من ربيتها، وأنا لا أنشئ فتاة تحني رأس أخيها!

بصيص أمل يتسرب في العتمة. «أقنعيه يا جدة، قولي المزيد! وأنتِ يا عمة اخرسي! ويا قدم عمي كُفي عن أذيتي! استمع لها يا سالم! هيا يا أوغاد، لينقذني أحدكم! إن دخلت ذلك المكان عرجاء فسأخرج منه محمولة على أربع». توسلات هتف بها قلبي لكن الحقير لساني ما عاد يعرف سوى الصراخ ومحيت الكلمات من ذاكرته!

– أين كنتِ ذاهبة يا نذير الشؤم، يا قدري الأسود؟

قالها سالم وانهال عليَّ مرة أخرى، دون حراك ممن حولي. انتفض جسدي من حدة لهجته وتجهم ملامحه التي كانت تنذر بهلاكي. أدركت أنني إن لم أنطق في تلك اللحظة وأدافع عن نفسي فسأصبح في عداد الأموات. انطقي يا زهوة! قولي كلمة واحدة! حتى إن خسرتِ الحرب فتخسريها وأنت في الميدان تحملين سيفكِ!

حششت لساني على الحديث ثانية بعد أخرى. درت بنظراتي بين الجميع فرأيت خوفهم وفي تلك اللحظة قررت الصراخ. من هم ليحكموا عليَّ بالقتل دون ذنبٍ، دون دفاع، دون حجج؟ كدت أجيب لكنه لم يعطني الفرصة وقبض على مقدمة جلبابي لاكمًا الكدمة التي لم تتعافى بعد في ضلعي وهدر:

– يا خليفة ابليس أنتِ، هل فعلتِها ولطختِ شرفي وشرف ابن عمكِ؟

كدت أدافع عن نفسي لكن لم أستطع فك لجام لساني بعد أن ألجمته كلماته! «هالكة أنا لا محالة» ذلك ما فكرت به وهو يجذبني من ذراعي من بين حصار الجدة لي. خارت قواي، وخان التقدم بالعمر جدتي فانفكت يداها عندما جذبني إليه وسقطت أرضًا.

جثا على ركبتيه بجانبي ووضع يده حول عنقي وحاول خنقي مرة أخرى فصاحت به الجدة:

– ابتعد يا سالم! إلا زهوة!

– والله لم يجلب أحد المصائب إلى رأسي سوى هذه الزهوة!

زحفت الجدة تحاول تخليصي من بين يديه وهي تصرخ:

– قلبي غضبان عليكَ يا سالم وعليكم جميعًا! دماء الحمد بريئة من جفائكم. إلا زهوة، إلا زهوة!

استنجاد الجدة بأهل المنزل مشهد لم يغادر مخيلتي! عندما لم يوليها أحد اهتمامه خشية غضبِ سالم وعمي سلطان الجارف، احتدت لكمات سالم وراح يسدد لي اللطمات وهو يعنفني والجدة تصرخ إلى أن اختفى صوتها شيئًا فشيئًا، وشعرت وكأن أحدهم شق صدري وأفرغ ما به ثم ملأه بالثلوج فاجتاحني الصقيع ثم ألقى داخله المياه الحارقة فجأة فاختنقت بالبخار الملوث بطغيانهم، المنبعث بفعل امتزاج الثلوج بسخونة المياه. التفت استرق النظرات فوجدتها تميل بجسدها على مؤمن ودليلة. صرخت:

– لا يا جدة، لا! إياكِ وتركي بين براثنهم وحدي!

متى سمعت الحياة صوتي، ومتى لبى القدر ندائي ورأف باستغاثتي! أغمضت الجدة عينيها فرثيتها بين جدران الاسطبل، ورجال عائلتي يتناوبون عليَّ واحدًا تلو الآخر.

(١٦)

أسوء ما يفعله المرء لنفسه هو أن يحسب كل من يقولون عنه طيب التُّخوم رجلًا! ها هو بدر! لا أصل كأصله الطيب، ونسله يمتد إلى أشرف الخلق لكنه نقض عهده دون أن يرف له جفن! ليس بدر وحده من تضادت أفعاله مع عِرقه الشريف! عمي سلطان شيخ العرب الحكيم، كبير العائلة وعضو مجلس النواب، اعتدى على ابنة أخيه أيضًا وكال لها الاتهامات.

قرر مصيري ظُلمًا وبُهتانًا بمعاونة رجل لا يفقه شيئًا من شيم الرجال، وألقاني تحت أقدام الأحصِنة كي تدهسني لثلاثةِ أيام ولياليها بلا طعام، اللهم إلا من بعض المياه التي كانت في دلوٍ داخل الإسطبل! أي أن عائلتي رأفت بالخيول وتركتني بِلاها! لم أكن بحاجة للزادِ حينها فمتعة الطعام لا يسعى لها سوى من أقبلت نفسه على مُتع الحياة أما أنا زهدتها وعافتها نفسي.

لقد ماتت عليا وتركتني وحيدة مع القاتل سالم وظلمه، ولحقت بها الجدة وإثم قتلها تقاسمناه جميعًا. كُلنا تشاركنا بقتلها. لو رفع أحد الأيادي السوداء عني ما حزنت الجدة وماتت! لو كف سالم عن طغيانه ما خافت حدّ الموت! منتهى العبث، قلب صافية البدوية لم يتحمل الرعب الذي دبه سالم ببيتنا وأنا ما زلت أحارب ببسالةٍ! لو نفذ بدر ما أقسم عليه ما تكبدت عناء الركض خلفي! لو لم يتحكم بي شغفي بالتفاصيل ما خرجت في منتصف الليل وكنت بلاءً على رأسي، وأصبحت جدتي ضحيتي الثانية في حربي مع الأعراف!

لن أسامحهم! عينا جدتي اللتين أغمضتا تحت الأرض باتتا فوهة بركان فوقها، وإن أرادوا اسكاتي فعليهم بأخذِ روحي لتنتصر العادات ويخسر الأمل كيلا يخرج صوت لأي حلم من بعدِ الآن!

خارت قواي. أصبحت لا أستطيع الصراخ وطلب النجدة من المعزين! لكم وددت فضح سلطان وإذلال رأس سالم وإخبار العالم أجمع أن بدر ليس رجلًا لذا هربت

منه لكنني بلغت من التعب مبلغا فاستحال عليَّ النهوض! أصبحت الرؤية لدي منعدمة فتداخلت أجساد الأحصِنة مع الجدران وبِتت لا أستطيع التفرقة بين الفرس الحمراء والفرس الخضراء ورحت أرى كل شيء حولي كالفرس الزرقاء، مظلمًا بلونِ قلوبهم. ليتهم عاملوني برحمة كفرس حتى لو كانت زرقاء تنذر بالشؤم!

الفَرَسُ قد تجلب حظًا وفألَ خيرٍ لصاحبها لِذا لا نفرّط في خُيُولنا، ومن يُفرّط في فرسه كمن فرّط في عِرضه. تُرى لِمَ فرطت عائلتي فيّ؟ حتى أننا نقول «ثلاثة لا نفرط فيهن، الْمَرَة والفَرَس والبارودة»! وإذا ماتت فرسٌ ندفنها ونمد لها العشاء كما نفعل مع موتانا. الخوف كل الخوف ألا أكرّم كالفرس حين يسترد ربي وديعته! في الحقيقة أن الخيل لاقت من البدو كرمًا لم تحصل عليه نساؤهم لذا تلك المقولة باتت تثير اشمئزازي وحنقي عليهم أكثر!

لأن خيولنا عربية أصيلة كأصحابها جعلنا لها أسماء تميزها عن خيل باقي الأرض فالفرس الخضراء هي الفَرَس ذات اللون الأبيض، وذلك لأننا نحب اللون الأخضر ونتفاءل به لأنه يدلّ على الخصب وتجدد الحياة. أما الفرس الزرقاء فهي الفرس ذات اللون الأسود، ونحن نتشاءم من كل ما هو أسود لأنه يدلّ على الحزن والبين، إضافة إلى أن السواد هو لون الثياب التي نرتديها حداداً على الأموات فالسواد هنا رمز الأسى فكرهنا أن نصفها بالسواد وأتينا لها باسمٍ أخفّ وقعًا على النفس وقلنا عنها زرقاء.

أما الفرس الحمراء فهي ذات اللون البنيّ الداكِن، والدهماء من الخيل والذكر أدهم فهي ذات اللون البنيّ الغامق الذي يضرِب لونه إلى السواد أما ذات اللون البنيّ الفاتح الذي يضرب إلى الصفرة قليلاً فتسمى الشقراء، ويا للعجب! كل تلك الألوان فشلت عيناي في تمييزها، لا أعلم هل بسبب الوهن أم من الحُمرة التي اكتست بها عيناي.

لم يفرق سالم بين عظم ولحم! وأجادت ركلات عمي ما قامت به فأصبح جسدي لوحة تفوق اللوحة التي نقشها سالم في وجهي حين اكتشف أن يدي اتحدت بالقلم.

جلست أستند على الحائط وبدأت بوَصَلة نحيبٍ ورثاء للجدة. كيف لا وقد

خسرت آخر صدر حنون لي في هذه الأرض؟ لم تمت جدتي فقط بل ماتت كل مساعيّ للحصول على الحياة الهنيئة بعد أن أثبتت أمي أن الأمومة كذبة فاضحة على الأقل فيما بيننا، فالأم هي التي تتكالب على قاتل ابنها، تحميه حتى ولو زهقت روحها لا تلك التي توارت خلف ستار احترام الرجال عندما استباحت أيادي لا تعرف الرحمة دماء ابنتها!

مهما حييت، لن أنسى صمتهم أمام صراخي ولا عدم مبالاتهم أمام أوجاعي! لن أنسى أن أُمّي لم تمارس أمومتها معي في أكثر أوقاتي احتياجًا لها! ونتيجة لصمتها المُخزي لم أستطع توديع من كانت خير أمٍّ وخير صديقة وداعمة، كُسر ظهري بموتها! لذا أنا خنجر في ظهورهم، متى تحركوا سيؤلمهم! أما عمتي بريكة فكانت كالنيران الغاشمة التي تلتهم كل ما تصل إليه ثأرًا لابنتها. أحرقت روحي بتربصها بي، حولت حياة محبوبة إلى جحيم، أزالت الغشاوة عن قلبي فيما يخص موت عليا، أي أنهم عبثوا بأمومة نسائهم فحولوا إحداهن إلى كتلة من الشر تسير على الأرض انتقامًا لدماء ابنتها، والأخرى إلى قلب جفّت منه مشاعر الأمومة خوفًا من بطش أياديهم وفجاجة ألسنتهم!

حين وقفت وفاة جدتي حائلًا أمام مبتغى بريكة ولم يقتلني سالم، ارتأت أن رثائها وتركي أبكي عليها بين الخيل كالذليلة، كرمًا منهم لا أستحقه فكان لِزامًا عليها بعد ثلاث ليالي من الجوع والعطش والآلام المبرحة أن تأتي وتجمع رماد روحي.

وقفت قبالتي، تضع يديها في منتصف خصرها وتتطلع بي متفحصة. عن ماذا كانت تبحث؟ هل عن نقطة في وجهي لم يكن بها بصمة لسالم أو لهمجية زوجها؟ أم أنها كانت تتلذذ وتروي عطشها برؤية دمائي كما رأت عليا غارقة بدمائها؟ إنها لمدعاة للسخرية أن تنتقم مِن أكثر مَن حزن على عليا! لكن ماذا أفعل؟ لم يجدوا سوى زهوة اليتيمة وما زالت أمها على قيد الحياة ليمارسوا سطوتهم عليها!

أقسمت على المبارزة في الساحة شامخة، سيفي بيدي وصوتي يدوي في أرجائها، وجلودهم تكتسي بالدماء على إثر طعناتي، فآثرت عدم وضع نفسي بموضع هزلي، ورحم الله امرئ عرف قدر نفسه.

لم أحاول النهوض! لا قدمي ستحملني ولا الدوار الذي يلفني سيسمح لي بالوقوف ثابتة. استندت على الحائط بعزّةٍ، أعقد ذراعيّ أمام صدري قاصدة الاحتماء بهما تحسبًا لأي هجوم. نظراتي الثاقبة أربكتها، وذلك الشيء الوحيد فيّ الذي لم يستطع أحد كسره فارتدت خطوة للخلف وبخّت سمها كعادتها:

– أتساءل بماذا تتميزين عن عليا حتى لا يقطع سالم رأسكِ إلى الآن!

– خطأ ما تقولينه! خطأ، والصواب أن عليا هي من تميزت عني برحيلها عنكم. عليا نقية القلب أما أنتم فلستم سوى أوغاد ووجودي بينكم بسبب حظي السيء!

اقتربت مني بسرعة فأجفلت وقبضت على ثيابي بيدي كيلا أظهر خوفي. ظننت أنها ستنهال عليَّ ضربًا لكنها انحنت وقبضت على ذقني ثم قالت:

– أهذا قتلها الوغد ولم يتركها لي كي أقرّ عيني بأبنائها؟

– وهل لذاتِ السبب افتريتِ عليَّ بُهتانًا وزورًا، وجعلتِني فاسقة في أعينهم؟ كيف لانتقامكِ أن يعمي عينيكِ؟ تعلمين أنني مغدورة على يديّ سالم، الآن أو بعد سنوات. كيف وقفتم تشاهدونني أتوسل إليكم أن ترحموني من غدرهما ولم تولوني رحمتكم أو شفقتكم؟ ألا أستحق؟

– عليا ماتت لأنكِ دسستِ في عقلها أفكاركِ السامة وجعلتِها تردد كلماتكِ كالبلهاء حتى أغضبت زوجها وقتلها، ولم يكتفِ بذلك بل سرق مني ابنتي الأخرى! ثلاثة أمام واحدة ليس عدلًا يا زهوة لكنني راضية! يكفي أن أراكِ محمولة على أربع ومن ثم سأتفرغ للبقية. والله لن أترك لهم فتاة إلا وسالت دماؤها، حتى محبوبة ستموت ولن يزهر رحمها بحفيدي!

ما تفوهت به في بداية الحديث كنت أدركه جيدًا، هي تنتقم وتراني شريكة سالم في جرمه لكن ما لم أستطع استيعابه هو قدرتها على منع إنجاب محبوبة فسألتها:

– تستطيعين الافتراء عليَّ. بتت أعلم ذلك حق العلم لكن كيف لكِ بمنعِ إنجاب

زوجة ابنكِ؟

تبسمت بضغنٍ وقد تحولت عيناها إلى كتلتين ناريتين متوهجتين، وحدثتني بفحيحٍ أغرقني كما يزخر البحر بمائه:

– عشبة بحجم عقلة الإصبع جعلتها أرضًا بورًا لا خير فيها، وعشبة أخرى كان من شأنها ذهابكِ في رحلة لا عودة منها لكن يد سالم ستتلوث بدمائكِ شئتما أم أبيتما، وليحمل ذنبكِ على كتفيه ليسير بين الناس مطأطأ الرأس!

ارتجف جسدي من هول ما سمعت. حملت كلماتها في طياتها حقيقة مريرة غابت عني. العمة أصبحت خطرة للحد الذي جعلها ترى ولدها يتلوى كمن التهمته النيران ووقفت تشاهده وتدس له عشبة تسرق منه أمله في أن يصبح أبًا ذات يوم لكن ما علاقة محبوبة بمقتل عليا؟ وأي ذنب اقترفه دواس لتتركه للحزن ينحت آثاره على ملامح وجهه؟ عاتبتها:

– سقطت صريعة شَرَكُكِ بسببِ اعتقادكِ أنني دسست في عقلِ ابنتكِ وساوسي، وهذا أمر لن أجادلكِ بِه! أنتم أصغر من أن تدركوا ما يجول في عقلي، ولن أتكبد عناء التوضيح لكن محبوبة ودواس، ما ذنبهما؟

– كما وقفتم تشاهدون ابنتي تحترق لسنواتٍ وبأيديكم المياه، سأجعلكم تحترقون! هذه المياه سأبدلها بالوقود، وخاصة أنتِ يا زهوة، ستندلع نيرانكِ أكثر مع صرخاتكِ. كما تعلمين، البدو يريدوننا قطيعات اللسان وأنتِ لسانكِ لا لجام عليه.

قالتها وتلك النيران التي تتحدث عنها تتطاير من عينيها فرأيت فيهما شرارة أخرى غير شرارة الغضب. همست لنفسي «دموع العمة تراودها ولابد أن أستغل ضعفها».

– افعلي ما يحلو لكِ فنجاتي منكم من دواعي سروري! رجائي الوحيد منكِ أن تُعجّلي ولا تقصّري، ولتكملي ما بدأتِ به وأخبريهم أنني سأهرب من هنا متى

سنحت لي الفرصة ولن أكتفي بذلك بل سأرفع الستار عن تجاوزاتكم بحقِ من لا صوت ولا حظ لهن بينكم! لكن تذكري أمر واحدًا، كل قطرة دماء سالت مني نزلت على روحك وتركت فيها وصمة عار انتقامكِ الأهوج، لن تمحوها الأعذار حين يعاتبكِ ضميركِ!

مالت عليَّ وقبضت على خصلات شعري ثم قالت وحبات الرذاذ المتطايرة من لعابها تصطدم بأهدابي مما يشي بفقدانها السيطرة على أفعالها:

– أنا أحترق منذ سنوات. هل سمعتم أنيني؟

دفعتني للخلف في اشمئزازٍ وأطلقت سراح خصلات شعري فالتصقت بالحائط وصدرت عني أنة ألم ثم تابعت:

– لن أكف عن إحراقكِ يا زهوة، لذا خلصي روحكِ واذهبي عنا سريعًا! ما زال أمامي همّ سالم. سأحضّر له نهاية تليق بنذلٍ مثله.

صرخت بها:

– أي ضمير لديكِ؟ ماتت ابنتكِ في ليلة واحدة. ما ذنبي أنا لأموت قطرة قطرة؟

غادرت تاركة خلفها رمادًا جاءت تجمعه لكن بحقدها دبت فيه روحٌ غاشمة وأضرمت نيران وحده الله يعلم ضحاياها ومتى ستتوقف! لكنها دون أن تدرك، فتحت كوّة في غرفةٍ مظلمة بقاعِ سفينة أوشكت على الغرق. كان يسكنها طفل يرتجف خوفًا ويفضل الموت السريع على العيش لأيامٍ في خوفٍ من قطراتِ الماء التي تتسرب من بحر الظلمات فقرر ألا ينتظر قدوم الماء بل أن يذهب إليه! يكفي أن يستطيع الوصول إلى فوهة الكوّة! لقد قررت أن يصبح صراخي آخر قطرات وقود تلقى عليَّ!

(١٧)

كلمة فارس جاءت من الفَرَس فالفارس من يمتطي صهوة الفَرَس، والرجل من يمشي على رجليه، وبدر أثبت أنه لا يمت للرجولةِ أو الفروسية بصلةٍ لذا قررت أن أعاقبه وليحترق بنيراني حتى وإن غادرت الحياة!

تحاملت على نفسي وحاولت الوقوف على قدمي المتورمة الملطّخة بالوحل، جعل الله لرؤوسهم نصيبا منه إحقاقًا لحقي! لكن لأيام دون طعام وشراب وكسر بالقدمِ وكدمات داخلية وخارجية في جسدي، هل روحي المثابرة قادرة على التغلب على كل هذا؟ بالطبع لا!

ظللت لساعاتٍ أحاول النهوض. تارة تخذلني قدمي وتارة أخرى تغلف الغشاوة عيني، وأجدني متسطحة على الأرض منذ وقت لا وقت لا باس به. الأمر الغريب الذي لم أستطع استيعابه هو حنوّ الخيول عليَّ وابتعادهم عني، وكأنهم يدركون ما بي من ألم!

عندما فشلت كل المساعي جالت في ذهني فكرة، وكأن كُل أمر سوء حمدت ربي أنه لم يلم بي، توجب عليّ فعله في تلك الليالي الغابرة! إن كانوا قد انشغلوا بالعزاء عني ولم يخلصوني من عار الوجود بينهم، سأستدعيهم لعقر داري! لكن صراخي لن يفلح وحده في ظل حالة الوهن التي كنت فيها ولا بد له من معين!

أردت أن تكون ضربتي ذات نصل حاد يخترق صدورهم، لذا اخترت أحب المخلوقات على قلوبهم لتكون الشرارة الأولى للمعركة.

«أعتاب وكعَاب ونواصي» مقولة نتفاخر بها في مجالسنا وقد قررت أن أستنبط منها خارطة طريقي قصيرة الأمد. أقسمت أن أجعل من عتبة بيتي الذي لم يتركوني أهنأ به جحيمًا لهم! ومن كعبي الذي كُسر حين أشفقت عليّ قطبان حديدية ولم تفعل قلوبهم، وصمة عار تُصك بها أسماؤهم! ومن نواصي الخيل التي يعتزون بها

سببًا في إنحناء رؤوسهم!

رحت أزحف بجسدي نحو الخيول وأصرخ فيها، وأتذكر أنني فقدت السيطرة على انفعالاتي ولم أتصنع الصراخ، إنما جُسدت هيئة الجدة وأبناء عمومتي يحملونها وسالم يجرني بوحشية، أمام عيني فصرخت روحي قبل لساني، تندد بظلمٍ جائر. صرخات امتزجت مع صهيل الخيول التي هاجت وراحت ترفع أقدامها الأمامية وتحاول القفز لأعلى وكأنها فقدت بصرها وباتت لا تبصر الجدران من الخلاء.

نئيت بنفسي إلى ركن بعيد عن موضع أقدامها وقريب من الباب، أتأهب للهروب متى اندلعت الحرب، بعد أن أيقنت أنها لن تهدأ إلا بعد أن ينهض سكان أم الرخم من نومهم ليسألوا «أي حرب قامت في منزل آل هارون؟» أول من نال شرف الصدام الأول كان بدر. فتح الباب يهدر باسمي مطمئنًا على حالي:

– زهوة هل أنتِ بخير؟

إن كنت تقلق حيالي لِمَ تركتني أُدهس تحت أقدام الخيل لأيام؟ راح يبحث غافلًا عن تلك التي زحفت تهرب من الجحيم وهي تعض على شفتيها كي تتحمل آلام جسدها المبرحة. في ذات اللحظة التي داست بها قدم سالم الإسطبل، كنت أتحرك بصعوبةٍ بالغة وأشعر وكأن قدمي باتت تزن أطنانًا لكن الرمال الناعمة سهلت الأمر عليّ، وسرت متخذة من منزلي الجديد وجهة لي. إما أن أختبئ فيه إلى أن يحدث الله بعد ذلك أمرًا أو يعثرون عليّ وأتخلص من الحياة الغابرة بينهم.

سمعت صوت هتافهم باسمي وصهيل الأحصِنة فأصبحت تلك الجلبة حافزًا لي أن أبتعد أكثر فشهادة الناس على خسارتي في حربي مع سالم هي أكبر انتصار لي.

كان سالم يصرخ:

– أين أنتِ يا نذير الشؤم؟ سأذبحكِ حين أجدكِ!

سلطان كان يلطخ رأسه بالوحل أكثر ويقول:

– دعكم منها! ستلتهمها الذئاب. اجمعوا الخيل والخِراف. إن هرب فرس واحد سأذبحكم!

وهل فرس واحد يا عماه ذو قيمة لديكَ أكثر من أمانة أخيك المتوفى؟

بدر يترجى علنًا وكأن السَّاحَة قَرِعَت:

– زهوة! أين أنتِ؟ تعالي قبل أن يجدكِ سالم!

وهل أنا حمقاء لأصدقكَ يا خائن العهد؟ أمي والبقية يقفن في الشرفات وأمام المنازل يعانقن أنفسهن، وعندما تتجرأ إحداهن على التحرك أو الصراخ ينهال عليها الرجال بوابلٍ من الشتائم، ويا حبذا لو طالتها أيديهم!

ألا أستحق منكِ البحث بين الليل وويلاته يا أمي؟ ألم يسألكِ قلبكِ أين صغيرتكِ؟ ألم يؤنبكِ ضميركِ على دهسكِ أمومتك أسفل قدميكِ من أجل رجال لا يعرفون شِيَم الرجال؟ عليّ ومؤمن ودواس وعمي خلف وعمي سلطان، شغلهم الشاغل كان الخراف والخيل التي شردت في الصحراء.

أما ماجد، وآه من ماجد وعليه! ماجد طيب الشَّرْخ والسِّنْخ فقد ركض صغيري يبحث عني، يبكي ويهتف باسمي ويتعرقل بطرف جلبابه. استنبطت خوفه من اصراره على الإسراع في الركض أملًا في إيجادي قبل الجميع، ورحت أتابعه في حسرة.

آه يا ماجد! لو كنت كبيرًا قليلًا لتعكزت عليكَ حتى البحر وعانقتكَ وتدفأت بكَ! لاستنشقت عطركَ الزاكي إلى أن تنتفخ أوداجي ثم أوصيتكَ خيرًا بمن تركتهن خلفي وخلصتكم من بلائي! آه لو تخلو الساحة من آل هارون وخيالهم وأمشي يدي بيدكَ، نركض ونلعب ونسبح في البحر ونبني حصونًا وقلاعًا من الرمال ثم نختبئ فيها! لو تجلب لي شقيقتيكَ كي أقبل يديهما وجبينهما وأعتذر عن أحلامٍ كنت أنوي تحقيقها معكم!

صوت سالم يقترب، توسلات بدر لا تنقطع! يبدو أن قلب ماجد حنّ وقاده إلى

المنزل! لو لم أكن أختبئ جيدًا لظننت أنه رآني! الشمس شارفت على البزوغ، وها هي الطرق ستمتلئ بالمارة الذاهبين بماشيتهم وأغنامهم إلى الرعي، والرحيل تاركة من خلفي وصمة عار عالقة في جبين آل هارون أكبر انتصار أحصل عليه لذا توجب عليّ الظهور أمامهم في منتصف الطريق على مرئى ومسمع من المارة.

سالم في حالة غضبه لن يتحكم بانفعالاته وسيقطع رأسي دون أن يرف له جفن لكن كيف أرحل تاركة ذكرى دميمة كتلك في خلد صغيري ماجد؟ دعوت ربي أن يلهمه الصواب ويعود إلى المنزل ويتركني أذهب إلى والدته وعيناي مفتوحتين قلقًا عليهم. رحيلي أمر محتم ولو بعد حين لكنني لن أجعل سالم وحشًا في مخيلة ابنه، لذا زحفت كي أختبئ في ركنٍ ما بجنباتِ المنزل، هربًا من سالم.

حاد النظرات كالصقر الذي لاحظ آثار جسدي التي نُقشت على الرمال، سمعته يهدر:

– إنها في الجهة الخلفية، انظروا إلى الآثار على الرمال!

«اللهم غلف أبصارهم بغشاوة تمنع عنهم رؤية الحق! اللهم اجعل قدم سالم لا تخطو صوبي! اللهم هبني خيركَ وامنع عني شرور أنفسهم!»

دعوات ناجيت بها ربي وأنا أسمع واقع أقدام تقترب مني. الأصوات تقترب والأنفاس تنقطع وضربات القلب في تزايد أما ألم الجسد فقد تلاشى. صمت مهيب قطعه صراخ أهوج:

– عمتي! أنتِ هنا وأنا أبحث عنكِ. وجدتها يا عم بدر، وجدتها!

– اللعنة على حظي الذي قادكَ إليَّ!

قلت أنهره ليكف عن الصراخ فارتجف جسده وارتد للخلف. يبدو أن هيئتي المزرية أخافته! حاولت التبسم كي لا يخاف. إن كان موتي محتم فلأمُت ومعي هدية لعليا، ولا أجمل من رائحة صغيرها!

مددت يدي في وهن أعرض عليه عناقًا ملطخًا بآثام عائلته. أمعن النظر في وجهي وتفحص ما آلت إليه حالة جسدي. خفض بصره نحو قدمي ثم شهق وكمّم فاهِه فزدت من ابتسامتي وهمست:

– تعال وأخفض صوتكَ. لا تجعل أحدًا غيركَ يراني!

كيف للحياة أن تصبح عادلة ولا تمارس طغيانها عليّ؟ لا تكون حياة إن لم تفعل وتتلذذ بتعذيبي وتغيير مجرى الأحداث عكس ما تريد نفسي فقبل أن أنهي كلامي انقض عليّ الوحش منزوع القلب والبصر والبصيرة، وجذبني ينتزع بصيلات شعري من موضعها

فصرخت به:

– آه! ليس أمام الصغير! كُن إنسانا ولو مرةٍ واحدة!

– يبدو أنكِ قررتِ الموت! لا تقلقي، ستنالينه والآن!

كلماته لم تعد قادرة على اخافتي، والموت أصبح محتّم. يكفي أن أختار توقيتًا مناسبًا له، وأنا لم أتكبد عناء الهرب والزحف كي أقتل بين جدران المنزل! «لا بد وأن أنتصر عليه أمام المارة بعيدًا عن ماجد!» ذلك ما دار في عقلي وأنا أتطلع إليه بقوةٍ، نافرة من أن تجمعنا الأرض نفسها.

صوبت نظراتي نحو الصغير أتوسل إليه كي يذهب، ويبدو أنه فسر نظراتي على أنها استنجاد فقبض على جلباب والده يصرخ به:

– أتركها، أتركها! ستقتلها كما فعلت مع أمي. أتركها وإلا شكوتكِ لجدي سلطان!

– جدكَ أراد للذئاب إلتهامي. لا تتفوه بكلمات ستخذلكَ من بعد الآن يا صغيري، لآن رجال عائلتكِ لا يعرفون سوى الخذلان!

قُلت ووالله ما ندمت على أمر قمت به قط كتلك الجملة! ففور نطقي بها قبض سالم على تلابيب ماجد وألقى به بعيدًا ثم بدأ بجري إلى خارج المنزل وصراخي

يدوي في سماء أم الرخم وسط تجمع الرجال. لمحت بدر يقترب منا وأمي تركض ومن خلفها البقية فقلت صارخة بهم:

– ها هي الوليمة قد نضجت تمامًا، اجتمعوا لتنهشوها لكن احذروا! أشواكي ستبقى عالقة بين أنيابكم لتؤرقكم!

ألقى بي من أعلى السلم الذي كان يبلغ خمس درجات، قمت بعدها وكل درجة لمست أضلعي قد قسمتهم الواحد تلو الآخر إلى شطرين ثم قال:

– لن تموتي ميتة واحدة! أقسم لكِ، لن يحل مساء الغد إلا وأنتِ جثة هامدة بعد الموت عشرات المرات!

كان هناك سلك كهربائي موضوع أسفل السلم. يبدو أنه من مخلفات البناء، ألقاه أحد العمال كي تنال زهوة عسيرة الحظ منه ما لا تناله امرأة سوى البدوية! انحنى سالم بجسده يلتقطه ثم تقدم نحوي يمسك بيدي مرة أخرى وكأن جسدي كُتب عليه الجر خلف حثالة الرجال! قالت أمي حين أبصرت السلك بين يديه:

– ماذا ستفعل بها يا سالم؟

– سأجعلها عبرة لكل من تسول له نفسه أن يعصي أوامري.

التفتت برأسي نحو صغيري المختبئ خلف عليّ. ابتسمت له في عهد مني أن روحي ستحيط به وترعاه حتى وإن غادرت الدنيا. صرخت قائلة جملة إن أدركها لعاش رجلًا تضج المجالس بطيب ذكره:

– ماجد يا ابن عليا! كن رجلًا ولا تشبههم!

كلماتي كانت كالقشة التي قسمت ظهر البعير، وسمعت شهقات عدة تلتها سبات تعددت الألسنة المتفوهة بها فعندنا مناداة الولد باسم أمه عار عليه وعلى عائلته فإما جاء من خطيئة ورفض والده الاعتراف به أو أن اسم والده خزيٌ أرادوا له أن يتخلص منه فنادوه باسم أمه.

مال سالم نحوي يحاول خنقي. ردّدت الشهادتين بصمتٍ وابتسمت. سأغادر الحياة في الميدان وسيفي بيدي كما قلت لكن للأسف سيشهد ماجد على ذلك، وعزائي الوحيد أن رؤيته طغيان سالم سينشئه عادلًا!

على حين غرة منا أجفل سالم وارتفع جسده ثم سمعت صياح بدر:

– ارفع يدكَ عنها!

التفت إليه يحدجه بحدةٍ ثم عنفه:

– أجننت يا بدر؟ كيف تدافع عنها؟

– أعطيتني كلمة فلا ترجع عنها! زهوة لي، ونحن لا نقبل أن نرى نساءنا تحت يدي أحد!

لعنت حظي السيء ولم أصدق ما أقدمَ على فعله. نفرت النظر إليه رغم تمسكه بالزواج بي بعد كل ما بدر مني. حدق به أخي فأي عقل يصدق ذلك وقال:

– أقتلكَ يا بدر إن دافعت عنها!

– أنا لا أدافع عنها وإنما أخبركَ بالعادات التي لن نتخطاها! زهوة ابنة عمي وأخذتها زوجة لي أمام رجال قبيلتنا من قبل، وأنتَ وافقت. غدًا مساءً سنأتي ونأخذها من منزلكم، وإلى أن يحين ذلك الوقت سأجلس أسفل نافذتها. اليد التي سترفع عليها سأقطعها!

اللعنة عليكَ يا بدر! حتى حين تحكمت بكَ رجولتكَ وقفت أمام مخططي! الانتصار على سالم في هذا الوقت تحديدًا كان أمرا لن أتنازل عنه فرحت أجمع ثيابي لأستر جزءًا ظهر من قدمي التي تفشى بها التقيح وقلت:

– لا تسمع له يا سالم! والله ثم والله، لن ينال بدر نيله مني برضاي حتى ولو بعد حين، وسأهرب متى هيأت لي نفسي! تخلصوا من عاري واذبحوني الآن!

(١٨)

سيل من الانتصارات لا ينتهي يظفر به الطُغَاة في كل مواجهة لنا، فبعد أن زحفت عشرات الأمتار بقدمٍ مكسورة وروح تتساقط أوراقها الجافة، تكللت محاولتي للانتصار عليهم بالفشل حينما جرفتني مشاعر الانتقام إلى ساحات الحرب حيث الغضب يلف المكان ورائحة الدماء تملأه!

العجيب أنني لذت من الهلاك إلى الموت حينما قررت الانتصار، والحال أنهم أنقذوني من الموت ووهبوا لي الهلاك، وهل الموت بلاء توجب على ذلك اللص بدر إنقاذي منه بسرقة كل وجهة أشرع بالسير إليها؟

لقد قررت الهرب وعانيت إلى أن فعلت. آلامي فاقت سكب الحديد المنصهر على الجسد، وتخطت تضحياتي حدود تقبل العقل، وأقدمت على زرع ذكرى دميمة بخلد ماجد. تنازلت ووافقت على إذلالي أمام سلطان ونعمة وبريكة دون ألقاب فقد دُفن احترامي لآلِ هارون مع جسد الجدة تحت التراب! وجاء بدر في النهاية ليقرر مصيري بالهلاك عوضًا عن الراحة بين أحضان الموت.

مشادة كلامية وتراشق بالسباب ورفض للوعود الواهية، تخللتها بعض التجاوزات بحقِ جسدي الدميم، انتهت برفع سالم يده عني ورضوخي بقلةِ حيلة لقراراتهم حين خانني وعيي وسقطت في غفلةٍ عند احتدام الموقف.

بعد وقت لم أحسبه، استيقظت لأجدني على سرير أعرفه جيدًا، وكنت أظن أنني لن أتوسده إلا كجثةٍ هامدة في آخر ليلة في منزلي. ظني كان بمحله فبعد تلك المواجهة لم أعد أمتلك روحا في جسدي. بتّت جثة بقدم تسير نحو هلاكها متمنعة.

تململت وأنا أشعر بجسدٍ لين يحيط بي، وسائل ذو رائحة نفاذة يزكم أنفي أما قدمي فكانت كلوحٍ خشبي يمسك أحدهم بمِنْشَار ويقطعها إربًا إربًا ويا لهولِ الألم الناتج عن تقطيعه ليس هناك حروف تستطيع وصفه،

ولا دوي صرخة قادر على إيصال مدى قسوته! حروف تستطيع وصفه، حاولت تفريق جفنيّ فشعرت وكأن أحدهم ملأ كِيسًا من الرمال الساخنة التي تحرق أقدامنا حين نرعى الغنم في صيف أغسطس ووضعه على جفنيّ فأبيا الافتراق من ثقله لكنهما احترقًا من سخونته.

وجهت إرادتي قليلًا نحو فمي لكن يبدو أن الكيس والمنشار واللوح الخشبي لا يمارسون سطوتهم على عينيَّ وقدمي فقط بل سار تأثيرهم في باقي أنحاء جسدي فطالوا كل عضو فيه! استسلمت للألم واستليقت ساكنة أستخدم عضوي الذي ما زال يعمل جيدًا، واسترقت السمع إلى الحوار الذي يدور من حولي.

– طالت غفوتها يا دليلة، أخشى ألا تستيقظ!

كان صوت أمي. استطعت التعرف عليه لكن لم أستطع التعرف على الخوف الذي يغلفه. جديد عليها القلق حيالي فلطالما تابعت ما يلمّ بي عن كثبٍ بلا صوت. فقط دموع تذرفها ونظرات خائفة، ذلك أقصى ما يمكنها فعله! ورغم كل ذلك البغض حيالها لم أرد لها الحزن وفرحت عندما طمأنتها دليلة:

– لا تقلقي يا أمي، الخالة كلثوم قالت إنها ستستغرق بعض الوقت حتى تستعيد وعيها، وأسابيع لتسرد عافيتها. لا أعلم كيف لبدر أن يتزوجها في الغد؟

– وهل سيتزوجها محبة بها أو إكمالًا لنصف دينه؟ ولدي شهم وسيتزوج ابنة عمه لينقذها من الموت.

قالتها العمة نعمة أو نعمة. لقد دخلت في حيز عدم استحقاق لقب أقدرها به بعد حديثها. دليلة من أنصار الحق، تدافع عن المظلوم وليست متهورة مثلي! تقول الكلمة وهي تعرف أين سيسقط واقعها فقالت:

– ألهذا حملها أمام الجميع وركض بها إلى هنا ثم وقف على رأس الخالة كلثوم وهي تداويها؟ وإلى الآن يجلس عند نافذتها؟

ألجمت جرأة دليلة لسان نعمة فصمتت، وعلى مدار جلستهن دار جدال بينهن فهمت منه أن بدر جاء بمعالجة تتقن تجبير الكسور ومداواة الجروح فعندنا المشافي والأطباء للرجال أما النساء فالقابلة تكفيهن. استمعت لهن في صمت مرغمة إلى أن استطعت بعد معاناة فتح عينيّ وهمست بوهنٍ:

– أخرجوني من هنا، لا أريد منازلكم!

– زهوة! حمدًا لله يا بُنيتي! هل يؤلمكِ شيء؟

تعرفت على صاحبة الجسد الذي يحتويني منذ وقت. هؤلاء إما متحولون أو أنني أتوهم. ألم تقف مكتوفة الأيدي أمام بطش وطغيان سالم؟ أأصبحتُ ابنتها الآن؟ قلت قاصدة إبعادها عني:

– لا تحمدي ربكِ فوجودي بينكم بلاء على رؤوسكم، ادعوا أن تتخلصوا منه سريعًا!

وزعت نظراتي بين الموجودين أتفقدهم. أمي ونعمة ودليلة وثريا وعليا وماجد الذي غفى أسفل قدمي واضعًا رأسه عليها. كل أولئك غير مرحب بهم إلا أبناء عليا فتابعت:

– اتركن لي أبناء عليا واذهبن. لا أريدكن!

وقبل أن تفُه إحداهن بحرفٍ، صوبت جَم غضبي وكرهي نحو نعمة وقلت:

– وأنتِ، أخبري ابنكِ أنه لو أحضر حكماء العالم أجمعين، وجلس سنوات أسفل نافذتي فلن أرضى به! ولن يظفر بخصلة من شعري!

ابتسمت باستهزاءٍ ثم هزت جسدها في غنج وسارت نحو الباب، ومارست أقسى ألاعيبها عليَّ:

– وهل بقي فيكِ شيء ليظفر به؟ أنظري إلى جسدكِ المهترئ وبعدها تحدثي! الله وحده يعلم أي ذنب اقترفتِ حتى تنالي عقابًا كهذا!

مالت برأسها أكثر وحدقت بي وتابعت:

– كلمة القبيلة هي ما تمنعني عن رفضكِ ككنة. غير ذلك، والله ما صرتِ زوجة لشيخ العرب بدر!

نهضت دليلة من خلفها أما أمي فنظرت لي بعتابٍ لا يُسْمِنُ ولَا يُغْنِي مِن جُوعٍ! ليتها لم تتكبد عناؤه، فما عادت مشاعرهم أو كلماتهم تهمني! قلت محاولة التظاهر بالتبسم:

– ثريا! ضعي عليا بجانبي. كنت أود النوم الليلة بجانب الكبيرة، والحال أن النصيب للصغيرة.

جفلت صغيرتي. يبدو أن حالة وجهي المزرية أخافتها فوسعت من عمق ابتسامتي وتجاهلت آلام وجهي في سبيل الهناء بالنوم بجوار أحباب القلب. خفضت رأسها في أسى. يبدو أن أحدهم حذرها من التقرب مني فهمَسْت:

– ثريا! انظري إلى ماجد، يغفو ولم يحدث له شيء! تعالي أنتِ الأخرى. أنا ذاهبة إلى أمكِ، إن أردتِ، أخبرها أي شيء تريدين قوله.

شهقت أمي وهي تضع يدها على فمها، وكأنها لم تكد تفقدني وهي تقف متفرجة في حلبةِ المصارعة على مصارع ذو قوة خارقة وطفلة أقصى ما يمكنها فعله أن تتوسل إليه ألا يجور عليها!

زاغت عينا ثريا بما قلت فزحفت نحوي، واضعة شقيقتها جانبي في الجهة اليسرى، وعلى اليمنى تمددت هي. في تلك اللحظة تحديدًا تمنيت أن أغادر الأرض، ولولا محبتي لهم لتمنيت أن آخذ ابنتي عليا وأرحل فمصيرهما في بيت سالم معلوم! عظام مكسورة وجسد ممزق وعقل غُلَّ عن العيش في منزل طاغوت.

طلبت منها أن تقترب أكثر فرفاهية التحرك بسهولةٍ ما عدت أملكها. استنشقت عبيرها ثم طلبت منها أن تمد يدها نحو فمي كي أتذوق الشهد منها. قبلتها كما لو أنني لن أفعلها مرة أخرى! أغمضت عينيَّ وطلبت منها أن نغفو في آخر ليلة لنا،

وقد عقدت العزم أن ما لم يحدث في الأمس سيحدث في الغد.

أظن أنني أعاني من خطب ما أو أن ركلات سلطان وابن أخيه تجاوزت حد الإصابات الخارجية. غفوت في المساء واستيقظت وإذا بالوقت بعد الظهيرة، ودليلة تربت على كتفي في حدةٍ:

– زهوة، ما بكِ استيقظي! هل أغمي عليكِ مرة أخرى؟

– ما زلت أتنفس، ويا لأسفي!

يا لها من جملة قلتها في صبيحة يوم عُرسي! جملة حالها كحال كل حرف أتلفظ به وكل فعل أقدم على فعله، تشي بأنني لن أمكث هنا طويلًا! قالت وهي تجلس قبالتي:

– معاذ الله يا زهوة!

دليلة من القليلين الذين لم يقسوا عليَّ وأدين لها باعتذار ما فقلت:

– أعتذر منكِ. لو عاد بي الزمان لَلفتكِ بالحوايا ومنعتكِ من الزواج منه!

ابتلعت تلك الغصة التي وقفت في حلقي حين تذكرت حالتها وأنا ألقي بالحوايا بوجهها وتابعت:

– هل أخبركِ أمرًا؟ أقسم لكِ، لو أطاعني قلبي لقتلتكِ قبل أن تتزوجيه، ولم أعاملكِ بجفاء كما فعلت!

ابتسمت تطيب خاطري، أدركت ذلك، ثم قالت:

– أرأيتِ الفرق بيننا؟ جئتِ توبخينني في يوم زفافي، وأنا أجلس بجانبك أقدم لكِ ما لذ وطاب قبل أن يأتي بدر ويأخذكِ.

– هذا لن يحدث! إنها آخر شمس تشرق عليّ على هذه الأرض.

قلتها بعد أن حدت بنظراتي عنها فاحتضنت يدي وقالت:

– زهوة، أفيقي! معكِ رجل حملكِ بين الجميع ولم يسمح لسالم أن يرفع يده عليكِ! كان محكومًا عليكِ بالإعدام لولا بسالة بدر.

قتلتها بنظراتي الغاضبة حين انتفض جسدي وتطلعت إليها، رافضة ما قالت ونهرتها:

– حملني بعد أن فقدت وعيي بسبب منعهم مرور الزاد من حلقي لأيام، بعد أن فقدت القدرة على التحدث من تورم شفتيَّ، بعد أن كسرت عظامي، وتقولين أفيقي؟! أفيقي أنتِ يا دليلة! بدر وسلطان أدركا مخططي وقررا إفشاله أما سالم فغضبه أهوج. لولا بدر لنجحت فيما سعيت لأجله!

نظري لي ببلاهةٍ ثم بعد برهة اتسعت حدقتاها. يبدو أنها أدركت حيلتي فقالت:

– هل كانت عملية اجتذاب إلى خارج الفناء؟

– ويعيشون بوصمة عار قتل ابنتهم طوال العمر، وإن شككوا في شرفي حية، سيدافعون عنه ببسالةٍ وأنا متوفية.

قلت بصوتٍ خفيض متألم، وكل كلمات العتاب لا تكفي لوصف ما يثقل صدري فوضعت يدها على وجهي وقالت:

– بدر يحبكِ.

– بدر رجل وكل الرجال سفاحون، وأنا لن أسلم نفسي لسفاحٍ يمارس سطوته عليَّ ويستبيح جسدي لنفسه، متى أراد التهمني ومتى عافاني ركلني!

– أخاف منكِ. على ماذا تعتزمين يا زهوة؟

قالت بعد أن سالت عبراتها فأجبتها وأنا أمرر يدي على معدتها بشوقٍ لابن أخي المجهول مصيري معه ومصيرها إن كانت فتاة:

– إما أن أمهد لمن سيأتين من بعدي حياة بلا قمع أو أذهب من حياتهم في ملحمة من شأنها أن تجعل الطغاة يفكرون آلاف المرات قبل أن يقدموا على ممارسة طغيانهم على فتاة إن انتفضت ستحول حياتهم إلى جحيم، والآن أزيلي هذا الطعام من أمامي كي أنهض.

نهضت تتفحص ملامح وجهي بخوف لم تستطع إخفاءه وسألتني عن وجهتي فأشرت إلى الصندوق الذي خبأت فيه دفتر مذكراتي وأخبرتها أنني أريد شيئًا داخله. اتجهت نحوه تعرض عليَّ المساعدة فوافقت. صريحة كنت، أواجه نفسي قبل الغير بمقوماتي. جلبته لي فمررت يديّ عليه بشوقٍ كما لو أنه وليدي الذي طال انتظاره، وسالت دمعاتي فرحة باللقاء بعد الشوق وقلت:

– إن حدث ما أسعى إليه فابحثي عن هذا الدفتر وخبئيه إلى أن يكبر ماجد. قولي له أن هذا إرثكَ من عمتكَ فنفذ ما طلبته منكِ، واجعل صوتها يعلو إلى عنان السماء.

وارت وجهها خلف كفيها ثم أجهشت بالبكاء وقالت:

– هذا كثير عليَّ يا زهوة! لم أعد أحتمل! كُلنا نجلس في مكاننا ونعرف قدرنا ولا نتخطى حدودنا. لِمَ أنتِ يا ابنة العم؟ لم تركضين نحو الهاوية؟

همست ونظراتي مسلطة عليها مبتسمة، أنسج لها مستقبلًا ورديًا أدعو ربي أن أهيئه لهن:

– كي أحولها من مقبرة إلى جنة.

– ليخلصنا ربي من سالم! لا جعل الله لابني نصيبًا في العيش تحت كنفه!

صرخت:

– إن مات سالم سيأتي بعده ألف! لو أن العقدة حلها بموته لقتلته! العقدة عادات دميمة ظالمة لا تمارس ظلمها سوى علينا لذا لا بد والانتصار عليها، ولن أفعل

ذلك وقدمي تحيط بها جبيرة!

جثت على ركبتيها ووضعت يدها على وجهي تحتضنه ثم قالت بشفتين مرتجفتين وعينين باتتا تجيدان البكاء:

– حسنًا! انتظري إلى أن تلتئم جراحكِ وكسوركِ وحاربي مرة أخرى. لا تتعجلي الخسارة!

– الخسارة أمامهم مكسب. يكفي أن تُعرف حكايتي من بعدي، ويشهد على خسارتي رجال شيمهم وأفعالهم لا تشبه هؤلاء الطواغيت!

شهقت. يبدو أنني أَغْرَبْت فِي ترويعها فأردت مصالحتها:

– لا تقلقي فقد تراجعت. هناك ما سيكتب في هذا الدفتر بعد.

انتباهي للدفتر، ورغبتي بتركِ إرث متكامل جعلني أعدل عن قراري طالما سنحت لي الفرصة لذلك، ولأنني أعلم أن سالم لن يقبل بي في بيته وقدمي لن تساعدني على الهرب، قررت اللجوء إلى معسكر العدو لأنهي بعض المهام طالبة الجلوس على طاولة المفاوضات المُزَيّفة.

***

سمعت واقع أقدام تقترب منا عندما حل المساء، وإذا ببدر ودواس ووالديهما أتوا ليأخذوني. بعد أن جمعت دليلة ملابسي في صُرَّةٌ، حملها علي إلى بيت ظننته جنة الله على الأرض.

جاءت أمي لتقف أمامي صامتة وقد ابتلع جفاؤها كلماتَها أو أنها أدركت قُبح ذنبها فلم تتجرأ على الحديث. وَضَعَت يدها على رأسي فنفضتها رافضة قربها. أجهشت بالبكاء ثم قالت:

– أعلم سبب غضبكِ مني لكنهم رجال ونحن لا كلمة لنا فوق كلمتهم.

حدقت بها وتوابع الرفض والكره تلتهمها «أي أعذار واهية تختلقين» وقلت:

– لا زوج لكِ بينهم يضربكِ، ممن خفتِ الدفاع عن ابنتكِ؟

جلست بجانبي وقالت:

– نحن لا نخاف رجلًا بعينه. نحن نخافهم جميعًا إنها عادة تسري في أجسادنا كالدماء.

عذر أقبح من ذنب ذلك الذي تفوهت به! صوبت أنظاري نحو أسفل معدتها وتذكرت أنني بقيت هناك تسعة أشهر، حتى أنها الفترة الوحيدة التي كنت بأمانٍ فيها ثم ارتفعت قليلًا حيث نهديها، رمزا العطاء الوحيد بعد الجدة. هنا حصلت على ما أريد، هنا شبعت وابتسمت وتذوقت حنان أمي.

وضعت يدي على موضع رحمي وخيل لي أنني في يومٍ كنت سأصبح أمًّا وسيبقى صغيري في أحشائي لأشهر. سأرضعه حبًا وحنانًا والكثير من الأمان ثم أتركه بين ذئاب بشرية يكسرون عظامة ثم يقطعون جسده فتمنيت الموت ورحت ألكم موضع رحمي وأصرخ:

– لعنة الله عليكم وعلى الأمومة وعليَّ! لو أنني حملت ابنتي تسعة أشهر وربيتها لسنوات وأحبتني كما أحببتكِ لِمَا تخليت عنها وتركتها بين أيادي غاشمة! لو رأيت ابنتي أنقاض فتاة لقطعت يد من فعل بها ذلك! لِمَا تركتها تخرج من منزل أبيها يتيمة ذليلة!

ازدادت حالة هياجي وتعالت صرخاتي فنهضت خائفة تنقل نظراتها بيني وبين الباب وكأنها تخشى سماعهم صوتي، وطالما ذلك يخيفها فما المانع من أن أسبب لهم الجلبة قبل أن أغادر منزلهم؟

راحت تتوسل إليّ ألا أفعل، وأنها ما عادت قادرة على رؤية سالم يضربني ففرحت والحال أنني كنت أنتظر منها كلمة واحدة حانية لأبكي لاجئة إلى ذراعيها كي أختبئ بينهما لكن الحياة ظالمة، دومًا ما تسرق مني ما أريد!

دُقّ الباب ودلفت دليلة تبارك لي قراءة الفاتحة فعندنا الفتاة تغادر بيت أبيها بفاتحة وتعود إليه بولد واثنين بلا شهادة ميلاد. اشمأززت، أي مباركة ودماء الجدة لم تجف بعد؟! قلت وأنا أدور بنظراتي بين جنبات غرفتي التي يعلم الله وحده هل سأدخلها مرة أخرى أم لا:

– الفاتحة الحقيقة لم تقرأ بعد! إن قرأها أحد وقتها فتعالي وباركي لي!

فهمت ما أقول فارتبكت. طلبت منها احضار أبناء عليا لأودعهم.

قبلات وأحضان وسيل دموع لا ينتهي، ذلك ما تلقيته من ثريا وسط متابعة ماجد وهو يقف أمام باب الغرفة. أشرت له أن يدخل ويقترب مني فصعد إلى الفراش. ملت نحوه ثم ابتسمت وأن أمد يدي له، أعتذر منه على التخلي. والله ما أردته لهم لكن رفضتني الحياة وأنا عزيزة لا أقبلها على نفسي! أشرت له ليقترب أكثر.

عانقته فآلمتني أضلعي لكن كل شيء منه خير حتى الألم ثم همست له:

– إياك أن تصبح مثلهم! كن رجلًا بحق! تعلم، وإن رفضوا تعليم شقيقاتكَ علمهن أنتَ! ابتسم بوجههن وكُن لهن أخًا وأبًا وصديقًا! إياك أن تحمل وزر دمعاتهن، وإياك أن تترك يدكَ على أجسادهن بصمة سوى عناق دافئ! وقل لهن كان لنا عمة أرادت أن تجعلها جنة! تركتُ لكَ شيئًا مع خالتكَ دليلة. إياك والتفريط به، ونفذ كل ما طلبته منكَ فيه!

***

استندت على دليلة أحاول السير شامخة، لا أرى أحدًا سوى قبر عليا وجدتي. حاولت قدر المستطاع ألا أنظر صوب الطغاة، وعندما شارفت على الوصول إلى المجلس نهض بدر متوجهًا نحوي. مد يده يساندني فتمسكت بدليلة أكثر وسرت نحو الخارج. لمحت باب المحرم فكانت تلك أكثر مرة تصرخ بها روحي احتياجًا وشوقًا لجدتي! تمزق قلبي بنصل الخيانة. توجهت صوب دليلة وقلت:

– ثريا وعليا أمانتكِ وماجد رسالتكِ، أكمليها على النحو الذي أردت له.

انتهت حدودها عند باب المنزل فأمسك بدر بيدي فنفضتها. نظرت إلى ثريا وقلت:

– أحبي ماجد يا ثريا. إن ظفرتِ بحبه لن يهزمكِ عدو يا بُنيتي! ولا تبذلي قصارى جهدكِ في منزل أبيكِ فمن المؤكد أنك ستخرجين منه ذليلة ودمعاتكِ على وجنتيكِ!

(١٩)

هذا العالم سيء جدًا! وأنا مازلت إلى الآن أجيد إظهار سوآتي، وما حدث ليلة زواجي من بدر هو السوء بذاته حين استلقيت أصرخ من الألم الذي يدك حصون صدري، وسالت عبراتي على خديَّ المتورمين في الظلام، أنعى كرامتي المسلوبة. أسبّ قدمي التي قدمتني ذليلة لرجلٍ لو جمع كنوز الدنيا وأهداني إياها ما شاركته سقف المنزل نفسه!

لكن لماذا ألوم على قدمٍ كُسرت عنوة، واللوم كل اللوم على ذلك الذي جلس قبالتي، يتوكأ على ركبتيه بمرفقيه ويرمقني بغضبٍ وكأنني من تزوجته رغمًا عنه!

للرجل في يومِ زفافه عِندنا مهام تجاه رجولته وعشيرته وعائلة عروسه يتوجب عليه إنهاءها ثم الخروج إلى الناس لإكمال الاحتفال حتى ساعات الصباح الأولى، ولأنني مختلفة كانت ليلة عرسي تشبهني، غابرة تقشعر لها الأبدان.

غادر بدر وتركني وحدي بين جدران منزل حسبته مقبرتي وما زال العرض قائمًا. حاولت لمراتٍ أن اشْرَئب بعنقي كي أتمكن من إبصار قبر جدتي من خلال النافذة التي تطل عليه لكن كدمة في أسفله وقفت حائلًا أمام ذلك فغفوت وفي قلبي حسرة شوقي لها، وعندما انتصف الليل استيقظت على صوت غاضب لوجهٍ مكفهر ترتسم علامات الحزن على مُحياه وكأنه تلقى خبر أحدهم لتوه!

أشحت بوجهي بعيدًا عنه فقال وهو يمد يده لي بقارورة صغيرة باللون البني:

– خذي من هذا جرعتين في الصباح والمساء. أعطتني إياه دليلة لكن وجهكِ الحسن أنساني إياه.

– هل قررتم الخلاص مني بسمٍّ يسلب الروح رويدًا، رويدًا؟ أودِدتَ رؤية وردتكَ تذبل يومًا بعد يوم؟

قلت وأنا أمرر يدي على عنقي لعل تشنجه يرحل عني. هزّ رأسه يتفحص حالة جسدي المزرية وقال:

– منذ خمس ليالي كنتُ أراكِ زهرة أينعت وتوجب عليّ قطفها فلم أوفر جهدي لأرتشف رحيقكِ راضية لكنكِ رعناء تتلونين كالحرباء! كنتِ حالمة بمستقبل مشرق لست جزءًا منه، والحال أنكِ تنومينني مغناطيسيًا مستخدمة سحركِ الجائح كي تتسللين كالسارقة في جوفِ الليل إلى عشيق فأجوب السواحل والأحراش أبحث عنه كل ليلة.

تنهدت براحةٍ. وأخيرًا عرفت أن بدر تنحى عن المشاركة في مراسم عزاء جدتي واختفي في خضم العراك ليلة القبض عليَّ ليبحث عن عشيق حتى وإن كان أمام عينيه فلن يدركه!

لولا طعنه لي في شرفي لأهديته الطمأنينة وأخبرته «إن خصمكَ قمر يا بدر. أنتَ كنت أول الحكاية وودتكَ بطل كل الحكايات لكن حكايتي شهر! والشهر بدايته بدر وأوسطه قمر ونهايته محاق، وأعاهدكَ أنني خنتكَ بصحبةِ قمر وسأفعلها مجددًا! وبطلي محاق يكفي أن أهيئ جَوًّا مَقْرُورا يليق بنهاية رفقة محاق».

قلت أعاقبه على ما بدر منه بحق شرفه وشرف قبيلته فالفتاة ليست سوى شرفًا لعائلتها يسير على الأرض، يتوجب عليهم حمله بين جفونهم ومعاملتها برفق كما لو كانت ماسة، وليس إلصاق تهمةً بها هي بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب:

– من تبحث عنه ليس موجودًا في الأحراش أو السواحل، إنه عالٍ جدًا عليكَ! صعب على يدكَ النيل منه. أقصى ما يمكنكَ فعله هو النظر إليه بحسرةِ سرقة لب وقلب زوجتكِ بينما لم تنل منها سوى كل البغض والكره!

انقض عليّ يقبض على تلابيبي، وجذبني نحوه مقربًا وجهه من وجهي فلفحتني أنفاسه الحارقة. لأول مرة أستشعر لمسة رجل على جسدي بعد سالم وسلطان فصبغ قلبي بالزرقة من هول أثر قبضته. قال يحاول دب الخوف في أوصالي، ولو

أفلح غيره قبله لأفلح هو:

– لا تراهني على غضبي يا زهوة! إن تمكن مني أقسم لكِ أنك ستندمين! أو أخبركِ أمرًا؟ لن تصلي للندم! غضبي ليس أهوجًا كسالم، يخيفكِ ولا ينهي ما بدأه. أقول لكِ من الآن، غضبي ليس له بداية ونهاية، إنها لحظة وينتهي فيها كل شيء!

دفعني للخلف فتأوهت ألعنه. عظامي باتت بحاجةٍ لمن يجمعها في كومة واحدة. غادر الغرفة بعد أن استطاع ترويضي بحقيقة كانت غائبة عني. زهوة الحمد هارون يقتلها زوجها عندما اكتشف فجورها، يا لها من نهاية! لا بد وأن أعد لها العتاد جيدًا كي أضمن انتصارًا محققًا في معركة أبطالها ثلاثة، عادات ظالمة وحلم يحلق في الأفق وحاضر يقاتل من أجل المستقبل.

***

مرت الأيام في رتابة وبؤس. طريحة الفراش كنت، حالمة بيوم الانتصار فسعيت. امتنعت عن التحدث مع بدر وعاملته كما لو كان أحد جدران المنزل لكن كجدار مائل لا يمكن الاستناد عليه أو بابٍ متهالك لا نستطيع الاختفاء خلفه!

لم يكن للنساء حضورًا في حياتي سوى دليلة التي كانت تأتيني خلسة بصحبة ماجد وشقيقتيه أما أمي فانقطعت زيارتها في البداية وبعد ذلك اعتادت على المجيء إليّ كل ليلة، تحضر الطعام فأتناول منه ما يجعلني قادرة على الوقوف بوجه بدر وظهري لسالم. إما يمارس بدر رجولته ويقتلني وجهًا لوجه أو يستمر سالم في نذالته ويطعنني في ظهري.

لا يوجد تغيير طرأ عليَّ سوى بعض التغيرات الجسدية فقط فبتت قادرة على الوقوف على قدمي مرة أخرى، والكدمات التي كانت تصبغ وجهي باللون الأزرق والبنفسجي الداكن تحولت إلى تدريجيًا إلى اللون الأخضر والأصفر.

هناك تغيير مهلك لاحظته فمزق ثنايات روحي، لقد حدث بجذعي الخناء لم أفهم سببه وعندما جاءت الخالة كلثوم قالت إن الكسر الذي في ضلعي التحم بشكل

خاطئ فأحدث اعوجاجًا به.

أردت إنحناء رؤوسهم فانحنى ظهري! غادرت كلثوم فنظرت إلى سقف الغرفة الذي يحجب أشعة صديقتي عني، ودعوت ربي أن يكون هذا آخر انتصار يُكتب في صحيفتهم.

دلف بدر إلى المنزل وغادره عدة مرات في صمت مُطَبِق أثار شكوكي. بات مختلفًا عن ذي قبل، صامتًا يحتقرني ويرفض المرور بالقرب من باب غرفتي. حتى الطعام يتناوله في بيت أمه!

يا له من محظوظ! لديه أم تحتويه عندما تخذله الحياة وأنا لدي أمّ وقفت تشاهدني أُهان. حتى عظامي أهانتني فخذلتني وسأذهب عن أرضي بظهرٍ أعوج! كل ذلك البغض دفعني للسير بلا قلب، لا أكترث لمن هم أسفل قدمي. يكفي أن أنتصر فألم فراق جدتي كالوقود الذي يحرك روح الانتقام داخلي بشكل أسرع! جلست في مكاني عاقلة لأول مرة، أنتظر الخطوة الأولى من بدر فأفعالي الهوجاء ستكون تقدُّما غير محسوبة عواقبه، وإن أقدمت على افتعال المشاكل سيدرك أنني أحاول إغضابه كي يكمل ما بدأه سالم.

راقبته لأيام وبتّت أعرف طباعه، وفي تلك الليلة كان غريبًا ككرة ملغمة إن لمستها ستنفجر في وجهي، وذلك ما قررت فعله! سألمس فيه أكثر جزء قابل للانفجار، كرامته.

شرعت بتنفيذ ما قررت. قبيل آذان الفجر بلحظاتٍ، سرت بتمهلٍ أستند على الجدران والأبواب نحو غرفة تحضير الطعام وأنا أدعو ربي أن أصادفه وقد استجاب! قبض على يدي وأنا أمرّ بجانبه وهمس:

– إلى أين؟

– سأحضر ملعقة أتناول بها دوائي.

قلت ووجهي إلى الأرض كي لا يلحظ تراقص أهدابي كما القشة التي هبت عليها

ريح قوية فسألني باقتضاب:

– ماذا قالت الخالة كلثوم عن صحتكِ؟

– بخير. جراحي الخارجية تلتئم وعظامي التحمت بشكل خاطئ فصرت أسير برأسٍ منحني.

صدرت عنه ضحكة بائسة وقال يحرق روحي ويمهد الطريق لتفحمه بنيران هو من أشعلها:

– إنها العدالة الإلهية! أردتِها لعائلتكِ فعاقبكِ بها ربكِ.

اشمأززت من صحبته لكن لكي أتخلص منه لا بد وأن أقترب أكثر!

ابتعدت أعرج حيث وجهتي فشعرت بيده تقبض على عنقي من الخلف على حين غفلة فصرخت. نهرني يمنعني عن فضحنا في جوف الليل، وهل إن سمعني أحد سيأتي لينقذني؟ قرب وجهه من جانب عنقي وهمس بفحيحٍ يشبه الأفاعي:

– مَن؟

تسارعت أنفاسي بالتزامن مع نبضات قلبي وقبضت بيديَّ على الشرش[١٧] الذي كنت أرتديه من شدة الألم. آخر ما توقعته أن أستشعر الحزن في صوته وينتابني القليل من الندم في خضم حربي معه!

مَن؟.. ذلك سؤال يتكون مِن عشرات الكلمات، يسرد حكايات وأوجاع وأطنان من العتاب. سؤال مفاده مَن ذلك الذي فضلتِه على ابن عمكِ؟ مَن ذلك الذي وهبتِ روحكِ له في سبيل سويعات فاسقة بقربه؟ مَن ذلك الذي قتلتِ آخر أمل لكِ في الحياة مِن أجله؟ مَن ذلك الرجل الذي ساوره شيطانه ليرافق بدوية بجوفِ الليل؟ أسئلة تدور كلها حول عشيق سري تفوق على الجميع في احتلال قلبي.

سألته:

١٧- ثوب من القماش ناعم الملمس باللون الأسود وهو الرداء السائد عند البدو

– أتسأل عن غَرِيمك؟

آهة في صرخةٍ تبعتها رجفة سرت بأوصالي، تلك كانت ردّة فعلي حين ارتفعت يده القابضة على عنقي إلى طرف كتلة في شعري المتشابك حدادًا على حيويته التي فقدها حين هجرته، فاندست أصابعه بين خصلاتها وراح يهزني بوحشية وهو يهدر:

– تراجعت، لن أقتلكِ بطعنة واحدة وإنما سأبدأ بلسانكِ وأنتهي بأصابع قدميكِ!

– هل لأن لساني تحدث لأجله وقدماي ذهبتا إليه؟

قُلت لأضع آخر ذرة ملح على جرحِ بدر، وقدمي على موضع لغمه فإن كان على يقين أن علتي اجتماع عشيق بعشيقته فليحترق بنيران غيرته ونخوته، هذا إن كان يملكها!

جرني خلفه قابضًا على شعري نحو مربوعة في منتصف المجلس. دفعني بحدةٍ فسقطت صارخة. لقد فتك الألم بعظامي المهشمة مسبقًا فكشر عن أنيابه وجثى فوقي يحيط جسدي بركبتيه. قبض على ذقني بقبضته القوية فحاولت التملص منه لكنه كان الأقوى!

لأول مرة أجرب الضعف بين يديه. لطالما كنت العنصر الأقوى في حكايتنا، والحال أنني كنت قوية بمحبته لي والآن، يمارس قوته بكرهه. قال مهددًا:

– أجيبي يا زهوة! مَن ذلك الذي رأتكِ برفقته عمتي بريكة في إسطبل الخيل؟

ألجمتني المفاجأة. هل وصل بها الحال أن تقذفني بتهمة كتلك؟ لكن هذا ليس بغريبٍ عليها بعد أن انتزع سالم من قلبها الرحمة عندما انتزع أبناءها منها!

تنفست بهدوء رغم ثقل جسده عليَّ وفكرت بتروي. إنها اللحظة الحاسمة وكنت أرضى بالقدرِ الذي أصبح عليه الدفتر وما يحتويه من معارك وفتوحات بين بدوية وجمع غفير من رجال لا يحملون شيم البادية، لذا رحيلي لن يكون عائقًا في اكمال المسيرة فأعطيته السكين الذي سيقطع به جسدي وقلت:

– سأجيبكَ! غريمكَ لا يشبهكَ! بينكما اختلاف كاختلاف الليل والنهار. هو صادق بعهده يفي به، له مواعيد ثابتة يلتقيني بها منذ سنوات. والله ما أتذكر أنه خذلني في يومٍ وردّني خائبة! أما أنتَ فرسبت في أول اختبار لوعودكَ لي. هو حنون عطوف يحتوي من تلتجئ إليه وينير لياليها أما أنتَ ففشلت حتى في الدفاع عني! وعندما أقدمت على حمايتي، حولت حياتي إلى جحيم. هو ذو قلب كبير يحول حياة من هم في مملكته إلى جنة أما أنتَ فواقع تحت إمرة سالم وتتحدث بصوته. هو متى نظرتُ إليه تبسّم وسرني، وكثيرًا ما تذوقت حلاوة قربه أما أنتَ فلم أرَ فيكَ سوى انعكاسًا للظلم والقهر! إياك وأن تضع نفسكَ في مقارنة معه لأنكَ خاسر بلا منازع يا ابن العم، ولم تظفر سوى بكرهي وتقزُّزي منكَ.

أنهيت حديثي وأرخيت جسدي أنتظر الطعنة الأولى لكنها الحياة وعادتها، تخالف توقعاتي! وبدلًا عن طعنه لي، راح يهذي بكلمات غير مفهومة التقطت أذناي بعضًا منها «تذوقتِ حلاوة قربه؟ لنرى إن تذوق هو شرفنا؟ حينها سأنتزع كبدكِ من موضعه!

قدم وضلع مكسوران، عينان تجمدتا في محجريهما فلم تبصرا ما يحدث حولهما. ذعر أحدث خللًا في مقاومتي، وضعف خسر أمام قوته فقَيَّد حركتي. صور مختلفة للعجز نتج عنها تجريد بدر لي من ثيابي كاملة، وسط صراخ لا بد وأن سمعته السماوات والأرض والشمس والقمر، في دفاع مستميت عن الشيء الوحيد الذي أملكه! حاولت الزحف مبتعدة عنه لأبحث عن أي شيء أدافع عن نفسي به لكن لم أجد سوى الخذلان وجدار صدّ جسدي عن الهرب.

انقض على طرف قدمي المكسورة مرة أخرى وجذبني نحوه. كنت أستلقي على الأرض، وجهي مقابلًا لها وظهري عاريًا إلى السماء وهو من خلفي. أدار جسدي إليه فإذا به ذئب بعينين مشتعلتين وقد بدأ بالتخلص من ملابسه العلوية.

صرخت باسمه ولأول مرة توسلت إليه، وذلك فعل لم أقدم عليه عندما مارس سالم وحشيته عليّ، والحال أن دناءة بدر فاقت ألم ووحشية سالم. قابل توسلي بجشعٍ وتحذير ووعود بالهلاكِ إن ثبتت صحة ما تناقلته الألسنة في الأيام السابقة.

امرأة أخرى غيري كانت تركته ينال ما يسعى إليه لكنني راحلة وأود تركه يحترق بنيران الشك وعدم الثقة بالنفس فحاولت النجاة. دفعته عني وأحدثت بسائر جسده سحجات وجروحًا غائرة بأظافري، وعندما حاول تكميم فاهي قبضت على يده بأسناني وضغطت عليها إلى أن شعرت بعظامه تتهشم بينها.

يد على فمي والأخرى يكبل بها يديَّ أما قدماي فشلّتا وفقدتا القدرة على حركتهما فاستكنت وإذا بي تلوثت! وقبل أن تسدل الشمس أشعتها صارخة جئت إليكِ يا رفيقة، أقيمت في أم الرخم مراسم تشييع مهيبة لأحلام وانتصارات قضت نحْبها في معركة بين الأمل والماضي والحاضر، والرابح فيها كان ماضيًا لوثته دماء ابنة البادية.

(٢٠)

اتحد بدر بالدناءة فصار واجهتها، يمثلها في كل نَفَس يلتقطه بقربي أما أنا فبتّت ملقفًا لطغيانهم، متى أرادو ممارسته يأتون إليَّ. هذه المرة فاق طغيانهم القدر المتوقع منهم. دناءة بدر جعلته يستبيح لشهواته جسدًا نفر منه وتقزز من لمساته، وسلمتني له عائلتي كمن لا أهل لها رغم صراخي وسماعهم له، وراحوا يتفرجون على الدخان المنبعث من محرقة المنزل النابع من تفحمي كما لو كان أصيص زرع تزهر فيه زهرة تسر أنظارهم!

ليتهم أتوا ورأوا حالتي وهو يجلس قبالتي كالشبح الذي دخل الغرفة من شق في الجدار لم يكن موجودًا من قبل فبث في روحي الرعب من وجوده المخيف! اعترت الصفرة وجهه. عيناه زائغتان محدقتان بي، جسده يرتجف وحبات العرق تكسوه، يلقي جلبابه على نصفه السفلي ويراقبني بلا خجل وكأنه لم يذبحني منذ قليل!

سلطت نظراتي نحو عينيه فكادت تثقبها، ومتى حاد عنها ذهبت خلفه، أتوعده أم أحتقره لا أعلم!

ألقى الشرش عليَّ قاصدًا ستر جسدي فركلته بعيدًا. انتهك روحي فهل بقي للجسد قيمة؟ ليجلس ويشاهد آثامهم تتلون بالدماء على جسد بدوية متهشم كان من المفترض أن تنحني لها الرؤوس تبجيلًا!

هبت عاصفة جديدة على فصل الخريف لم أعتد عليها فيه. يبدو أن الطبيعة انتفضت لأجلي أو أن عشيقي الذي ينير الكون بالتناوب مع الشمس أسدل غضبه على الأرض بعد أن اغتُصِبتُ بها!

للمجلس نافذة خشبية كنت أتركها مفتوحة قليلًا معظم الوقت لأراقب المارة وأنظر إلى قبر عليا وجدتي، وعلى حين غرة منّا فتحت درفتاها فجأة فانتفضنا. أوصلني أزيز الرياح الناتج عن العاصفة إلى حالة من النفور جعلتني أتطلع ببدرٍ

حانقة وقد تولد شعور بالقوة في داخلي، وفي لحظة قلت فيها ما يجيش في صدري، سبقت صمتًا تامًا لم ينكسر سوى الليلة:

– ناولني الشرش، سأقص عليكَ حكاية لا يدركها سوى الرجال وأظنكَ لن تفعل!

زأر بي كما لو كان أسدًا سينقض على فريسته لكن ما انحنى أسد قط سوى لزوجته ولن يُحني أحد رأس هذا البدر سواي! ألقاه بوجهي في حدةٍ فآلمني وآلامه لم تكن جسدية فقد فقدت الشعور بجسدي منذ وقت، وإنما آلام تمزق نياط القلب خزيًا منه.

– زهوة، لا تختبري صبري! يمكن أن أقتلكِ بدمٍ بارد فما عاد هناك شيء أحزن عليه!

ضحكت ويا لهول ضحكتي الممتزجة ببكائي! تأكد من شرف عائلته فبات على استعداد تام لخسارتي فأردت معاقبته على سوء تفكيره وتدبيره فقلت:

– مجنون من أخبركَ أن بضع نقاط من الدماء دليل على شرف الفتاة.

حدق بي مستفهمًا غير مدرك ما أقول، فتابعت أشير إلى بقعة حمراء اللون تصبغ الحوايا وقد اشمأززت من آل هارون أجمعين:

– أوددت التأكد من عدم خيانتي والحفاظ على شرفي في ليلة غابرة ببقعة دماء سالت مني مرغمة، في حين كان من شأنكَ أن تجعلها ليلة كتلك التي يقضيها الصالحون مع الحور العين؟

بصقت على البقعة ثم رمقته مرة أخرى وتابعت:

– هذه الدماء ليست صك شرفي يا بدر! شرفي ليس له صك يدرك بل له دموع ندم وحسرة ستسال عليه العمر كله. تذكر هذا جيدًا!

كاد ينهض وهو يقول:

– ليس بي حال لأسمع ترهاتكِ!

صرخت أحاول الاعتدال في جلستي كي أظهر بمظهر القوية رغم انهياري الداخلي والخارجي:

– اجلس! إياك أن تنهض! دعني أكمل ما بدأته أنتَ. أنتَ اغتصبت روحي وأنا سأغتصب أبغض شيء فيكَ الآن.

ازدردت لعابي لأستجمع القوة، لأبث سمومي في عقله وتابعت:

– حسنًا! بتنا متأكدين أن جسدي لم يطأه قبلكَ رجل، مع العلم أننا لا نستطيع تأكيد ذلك. الشريفة تحافظ على طرف ثوبها بين مئة رجل، والفاسقة تمارس فجورها وإن كانت في منتصف السوق لكن لنقل إنني لم أخنكَ جسديًا! هل تستطيع الجزم بأن قلبي لم يفعل؟ أو عندما استدرجتكم إلى الساحة كي يقتلني سالم وأرحل تاركة وصمة لا يمحوها أحد؟

مال بجذعه نحوي ثم قال وذلك الذئب الذي نهش جسدي منذ قليل عاد يتلبس روحه:

– حسنًا يا زهوة! نعلم أنكِ لا تريدينا ونحن لا نريدكِ من بعد الآن، لكن طالما هذا القلب ينبض (كوّر قبضة يده ولكم صدره عدة مرات) لن أجعلكِ تنالينها! لن تتدنس أيدينا بدمائكِ! اجلسي مكانكِ إلى أن يجيئنا الخلاص جميعًا.

نهض يهرول للاغتسال. أقسم ألا تتندس أيديهم بدمائي بينما اكتسى جسده بها. ترى أي مياه قادرة على محو آثامٍ غرق بها؟!

***

هناك أشياء ثمينة نملكها وملكيتنا لها تضعنا في موضع ضعف دومًا، تجعلنا نتراجع عن الخطوة الأخيرة في كل مرة حتى لا نتجرع مرارة فقدانها، وعندما نفقدها يتبدل مكانها بالقوة الغاشمة التي تلتهم كل ما يقابلها كالنيران.

كان هناك حدًا فاصلًا لحربي معهم وهو المحافظة على شرف أبي. أتقبل كل الاتهامات إلا التهمة التي تلتصق به! وبعد أن خسرته صارت كل الخسارات مباحة.

بعد فعلة بدر المشينة علمت أنه رَجُل مجوَّف، أتوقع منه كل المخاوف فرحت أزحف إلى غرفتي لأختبأ بها، عارية كما ولدتني أمي. الفارق الوحيد أنني بتّت مغتصَبَة بقدم مكسورة وجسد مكشوف التهمه ذئب بشري.

أغلقت الباب من خلفي بيدٍ مرتجفة وجلست أمد قدميَّ أمامي وأستند بظهري عليه، أتذكر الجدة وأبكيها. صرخت أعاتبها، ها هو بدر الذي تغنت لسنوات بعطفه ومحبته، جار على جسدي وكرامتي وشرف عائلتي!

في تلك الليلة تحديدًا فاقت آلامي الروحية آلامي الجسدية رغم ما أَلَمَّ بي من قسوة ضارية من بدر، وأيقنت أن للرحيل وقت لا يسعنا التأخر عنه وإن فوتناه لن ندركه مرة أخرى إلا بعد الغرق بالويلات! غفوت إنكارًا ورفضًا لتفويتي وقتِ رحيلي مرة أخرى.

***

على شاطئ البحر في ليلة قمرها بدري أنا وليس بدرهم هم، استلقيت لتعانق الرمال جسدي. وجهي إلى البدر أمعن النظر فيه مبتسمة. أتنسم بريحٍ خفيفة حملت روحي إلى بساتين زهورها فتيات حققن أحلامهن.

سمعت فتاة تضحك فالتفت ناحية الصوت عندما غلفت رنته الأجواء، وإذا بها عليا في عمر يسبق عمرها الذي تركتنا به بعدة سنوات! ترتدي جلبابًا مزركشًا ترفع طرفه لمستوى ركبتيها، تتمايل وتحجل وكأن عازف مقرونة متمكنًا يعزف مقطوعته المفضلة من أجلها. يتزين كعبها بخلخالي الذي منعه بدر عني من قبل وقد امتزجت رنته مع رنة ضحكتها ففاقت جمال مقطوعة العازف.

أشارت لي أن أنهض فرفضت مشيرة إلى قدمي المكسورة وأنا أنظر إليها، وإذا بي أفاجئ بها وقد شُفيت. حدقت بها مشدوهة. اختفت الجبيرة من عليها وبتّت

قادرة على تحريكها. نقلت نظراتي بين قدمي وعليا غير مصدقة. حدثتني وهي تشير إلى الصخرة الضخمة القابعة في منتصف مياه الشاطئ:

– زال البأس وأنتِ غافية.

نظرت حيث أشارت فوجدت قرص الشمس كما لو كان يقف عليها، وأشعتها البرتقالية تمتزج بالمياه في مشهد قريب من الشفق. شهقت وأنا أنهض غير مصدقة. هل نحن في فقرةِ الساحر؟ لقد نزلت شمسي من أجلي وفي منتصف الليل! قلت أصرخ كي تسمعني:

– ماذا جاء بالشمس إلى هنا؟

– لا أعلم! قالت إن لها أمانة في الأرض وجاءت تستردها.

أشاحت بوجهها عني فنظرت نحو الصخرة فلم أجد الشمس. عدت أتفقد عليا وقد غزت حبات العرق جبيني فوجدت جسدها يتلاشى بين الغيوم وجدتي صافية تسير معها، تمسكان بيدِ فتاة صغيرة يحيط خلالي الذي كانت ترقص به عليا منذ قليل بكاحلها.

كانت رؤيا رأيتها وأنا ألتحف بالخلاء بين جدران منزلي. لم أقصصها على أحد بل دسستها بين أحلام كثيرة لم تتحقق! نبضة من نبضات قلبي مالت لها صارخة «ستتحققين يا بائسة، ستتحققين!»

***

ثلاثون يومًا وليلة قضيتهم بين أربعة جدران وباب موصد من الخارج، ونافذة أُحكم غلقها كي لا أهرب منها فكنت متى سئمت الوحدة أتسلى بالصراخ متى غادر بدر المنزل، أطلب النجدة من المارة وأخبرهم أن بدر يحتجزني بعد أن أرتاب في أخلاقي.

سردت عليهم حكاية عليا التي ماتت ركلًا بالأقدام وصافية التي قتلها الخوف

وزهوة التي ماتت آلاف المرات لكن ما زال قلبها ينبض! لم يطرق أحدهم بابي ليساعدني أو يهمس تحت نافذتي ليؤازرني في مصابي.

ترى هل منعوا على الناس المرور من ساحتهم أم ماذا؟ اتضح أن بدر أشد قسوة وعنادًا من سالم لكن من عاند العنود وربح؟ أقسمَ ألا تتلوث أيديهم بدمائي وقد قررت أن تتشح حياتهم بالأسود فامتنعت عن الطعام أو لأقول زهدته إلى أن تملك مني دوار لا يتركني ليل نهار، واقفة أم جالسة أشعر وكأن الغرفة تدور من حولي وكأنهم صبُّوا لعناتهم على روحي صبًّا!

لاحظ بدر شحوب وجهي فأرسل بطلبٍ القابلة كلثوم كي تأتي وتصف لي بعض الأعشاب لتمدني بالقوة. أراد لي الحياة وهو ينتظر الخلاص مني! وبعد معاينتي وسؤالي عدة أسئلة لا قيمة لها كحياتي، التفتت لبدرٍ تمد يدها قائلة:

– البشارة يا شيخ العرب!

لا أتذكر ماذا حدث بعد ذلك، وجوه مموهة وأصوات لا أستطيع التعرف عليها! غرقت في بحر تملؤه كلمة بشارة، أي بشارة تقصد؟ البشارة لا تُقال عندنا سوى بأخذ المنديل ليلة الزفاف أو المباركة بقدوم مولود للزوجين.

تخطينا أمر المنديل في ليلة غابرة تشبه الليلة. إذًا هل تقصد أن في رحمي فتاة ستأتي على هذه الأرض وتنال منهم ما نلته أو صبي الدماء التي تسري فيه منبعها بدرٍ؟

– لا والله هذا لن يحدث! لن يحدث!

ظللت أرددها وأنا ألكم سائر جسدي، أرفض أن تلوثه قطعة من بدر.

– لا والله لن يحدث! لن أجلب فتاة تنقشون الآثام على روحها! لن أزيدكم برجلٍ يقتل زوجته ويؤذي شقيقته! ابتعد، ابعتد! لا أريدك، اذهب عني لا أريدك!

كبل بدر يديّ ومنعني من الصياح وصرخ بي:

– اسمعيني يا زهوة! بتتِ تحملين قطعة مني. لن أرفع يدي عليكِ مرة أخرى

فاجلسي عاقلة.

قالها ثم قاد جسدي برفقٍ إلى السرير وغادر. جلست أذرف أنهرًا من العبرات الحارقة. والله ما رفضت شيئًا في حياتي إلا ذلك الذي يستكين رحمي! يحتمي بي وكأنني ملجأه الوحيد ولا يعلم أن الأم عندنا تترك ولدها تحت أقدام الوحوش.

فكرت بوسيلة تنال شرف مغادرتي الأرض كي لا أقف وأشاهد ابنتي تُقتل بدمٍ بارد. هل أهرب إلى البحر؟ أم سكين صغير سينهي الموضوع؟ أم أسأل بريكة عن العشبة التي ستذهب بي حيث حياة خالية من الأحياء؟

بعد تفكير ليس بطويلٍ قررت كيف ستكون النهاية، عود ثقاب سيكون قادرًا على محو أثر زهوة وذلك القابع في أحشائها ومنزل شهد على حياة مربرة لفتاة مورِست عليها أقسى سبل التعذيب.

وقفت أمام النافذة ابتسم لقبر جدتي وأرجو أن يعثروا على بقايا جسدي بعد الحريق كي أستريح بدفئها، والحال أنني بعد وفاتي مستراح ومستريح منها. التقطت علبة الكبريت بيدٍ مرتجفة بعد أن نثرت الوقود في كل رقعة بالمنزل.

طأطأت رأسي ابتسم. لا مجال للاعتذار لفتاة أخلصها من حمل لقب آل هارون يوما. همست:

– ماجد، ليجعلكَ ربي نبراس أمل لشقيقتيكَ يا ابن الغالية!

كل شيء انتهى بلحظة واحدة، وأصبح المنزل كومة من الرماد كما رجوت. محوت أثر أيام سوداء قضيتها داخله وبقي أثرها حاضرًا في مخيلتي لكن الفارق الوحيد أنني شاهدته يشتعل وأنا خارجه، محمولة بين ذراعيّ، عليّ ومؤمن يعاونه على الابتعاد بي قدر المستطاع.

تجمع مهيب من الناس يحاولون إطفاء النيران لكن أي مياه قادرة على إطفاء النيران في قلبي؟ في كل مرة أتخلص منهم تعيدني الحياة إليهم. تُرَاه لم يحن وقتي بعد؟

نجح الرجال في إخماد النيران في المنزل لكن ظلت النيران التي تندلع داخلي تشتعل أكثر وأكثر، خاصة عندما قرر بدر بقاءنا في منزل أبيه، أي المنزل الذي يتشاركه سلطان مع خلف.

رفضت في البداية فجرني خلفه كالبهيمة التي لا كرامة لها. كل محاولاتي باءت بالفشل! نفذت حلولي فجلست أنتظر حلول السماء. رفضت المبيت بجانبه فذلك أمر لا تقبله نفسي فتوسلت إليه أن أغفو على الوسادة التي كانت تتوسدها عليا قبل زواجها.

عندما أشعلت عود الثقاب كنت أود الاحتماء بدفء عليا، وللمرة الثانية أخطو خطوة تجاه الاستلقاء بجانبها والنصيب يكون لأثرٍ منها وقد كان! تركني أتدثر بدِثار قالوا إنه لها.

حمدت ربي أنني كنت أضع الدفتر داخل ثيابي. تذكرته وكدت أخرجه كي أكمل السرد لكنني لمحت طيف رجل يدخل الغرفة دون استئذان فأجفلت عندما استبينت هويته. إنه سلطان رأس الأفعى. اعتدلت في جلستي ووجدتني أضع يدي أسفل معدتي. حدس في داخلي أخبرني أنه جاء يؤذي صغيري.

أحمي نطفة لم تدب بها الروح بعد بينما تركتني أمي لأشهر دون أن تطمئن عليّ، ومنذ بضع ساعات أشعلت النيران كي ألوذ بالفرار به بعيدًا عنهم! قال وهو يضع كوب من الحليب بالقرب مني:

– أعدته بدور وأخذته منها عند الباب.

– لا أريد منكم شيئًا، خاصة منكَ.

قلت أنظر له ناقمة فمدها ليتحدث بلهجة جديدة عليه:

– سأعرض عليكِ عرضًا، إن أعجبكِ تتناولين الحليب وتنامين وإن شاء الله غدًا ستتبدل حياتنا جميعًا.

هل حدث وتقافزت ذئاب من أعين المرء نحو فريستها؟ التهمتها ثم عادت واستكانت بالأعين مرة أخرى؟ ذلك كان حال نظراتي وأنا أحدق به. أكره الهواء الذي أشاركه معه. سألته:

– أي عرض ستتكرم عليَّ به يا عماه؟

جلس براحة وحرية كما لو أنني صغيرته في سنِ الخامسة وسيقص عليها حكاية من الأساطير تجعلها تخلد إلى النوم مطمئنة:

– سنعيد بناء منزلكِ مرة أخرى، وبدر سيطلقكِ ولن يقترب منكِ. ستعيشين لابنكِ دون فضائح وحرائق. سأخسر مكانتي في مجلس النواب إن سمع الناس بما تفعلين!

ضحكت أسخر منه. فعلت ما فعلت وأحدثت الحرائق وطال الخراب كل مكان حتى أنه حول قلبي إلى جحيم كي يسمع الناس ما يحدث. قلت:

– وهل تراني سأقلق حيالكَ؟

نظر إليّ متحديًا، رافعًا حاجبيه يبدي استنكاره لفجاجتي كما أَعتقِد، وتابع عرضًا من شأنه أن يهب الراحة لروحي:

– حسنًا! للعرض بقية. اجلسي في منزلكِ وسأعطيكِ أبناء سالم لتقومي بتربيتهم، ولن يؤذيكم أحد!

– لو أعطيتني الدنيا بين يدي فلن أوافق!

قلت وأنا أحدق به بنظرات ثاقبة ليتها ثقبت قلبه وشطرته نصفين! فَاضَ نَهْر صبره حيال تكبري، ذلك ما استشعرته بعروضه التي تنهال عليّ ببزخ عندما تابع بصوت خفيض يتسم بالهدوء الذي سيحيط بحياتي إن وافقت:

– لن أقول سأقتلكِ يا زهوة بل سأخيركِ بين خيارين إما تعيشي مع أبناء عليا بسعادةٍ بعد أن أسمح لهم بالذهاب للمدرسة هم ومولودكِ سواء إن كان صبيًا أم

فتاة..

تحولت لهجته إلى حادة قاتلة كوعوده التي أملاها عليَّ:

– أو تنتهي هدنتنا، وأنا بنفسي سأسجنكِ حتى موعد ولادتكِ وبعدها أخذ منكِ ولدكِ ثم أقتلكِ، وأنتِ تعلمين ما سيحدث له بعدكِ.

– هذا ليس بتهديدٍ يا عماه! حاولت مرارًا التخلص منكم لكن لم يحن الوقت بعد، وإن فعلتها أنتَ فستنال يدكَ شرف انتصاري عليكم.

– وتغادرين تاركة ثريا وعليا تعانيان ما عنيتِ. ألن تشعري بالذنب عندما ترفضين العيش معهما وتعلمينهما القراءة كما تعلمتِ؟

قال وقد صوب كلماته على المرمى الصحيح فشعرت أن قلبي مال إلى تصديقه لكنني توجست أن ينقض عهده:

– وما الذي يضمن لي ما تقول؟

تهللت أساريره ولمعت عيناه بوميض الانتصار لكنه لم يعرف أنني من رفعت راية الانتصار فرضوخهم لمطالبي وتهيئة حياة كريمة للفتيات أكبر انتصار كالموت لاصقة بهم عاري بالضبط.

– أقسم لكِ بشرفي يا ابنة منصور، إن وافقتِ سآخذكِ من يدكِ صباح الغد وأعلن للجميع العفو عنكِ.

لامست كلماته قلبي راسمة السعادة على جدرانه فقلت بصوت

تتراقص به الفرحة:

– كلمة رجال؟

وضع يديه على ركبتيَّ واستند عليهما لينهض ثم قال بعد أن لمحت في عينيه نظرة لم استسِغها:

– كلمة رجال. تستطع عليكِ الشمس وسأخبر الجميع باتفاقنا.

غادر تاركًا خلفه حلمًا دبت به الروح من جديد. يحاول النهوض من تحت الركام، يزحف نحو فتاة اتحدت مع الأعراف وبدأت بتعلم السير على قدميها المكسورة مرة أخرى كي تذهب للقمر فترقص معه لتحتفل بانتصارٍ لم يكن سهلًا!

لكن كما أن لكل شيء وجهان أبيض وأسود، خير وشر كان للبادية سيئات تساوت مع حسناتها حين نظر الجلاد لابنة الأعراف بعين الحق، ويبدو أنها ستقف على الأعراف وتقشعر أبدانها من حال أهل النار وتلقي السلام والتمني يرهف صدورها لأهل الجنة، وسنكون من القوم الذين يسيرون وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها.

رسمت في مخيلتي مشهد عليا وهي تضع حقيبتها المدرسية على ظهرها، تمسك بيد ماجد وثريا وتصرخ بهما كي يتعجلا ليلحقوا بموعد المدرسة وأنا أحمل صغيري ونلوح لهم راجين لهم يومًا دراسيًا مثمرًا.

طأطأت رأسي وهمست:

– يبدو أننا أخفناهم يا صغيري، ولا بأس من التجربة! أهلا بكَ في عالمي الصغير تحت مظلة شمس حالمة وقمر صادق.

مددت يدي أرتشف من كوب الحليب الذي كان طيب المذاق. شعرت براحة عارمة بعدها وكأن بدور دست فيه ترياق الحياة! أمسكت قلمي ورحت أسرد في دفتري الفصل الأخير من حرب بدوية انتصرت على الأعراف ورضخ أمامها أعتى الرجال، منتظرة بشغفٍ حلول الصباح كي أرى وجه سالم وقد نلت منه وأسمع بدر يعطيني حريتي رغمًا عنه.

شعرت بالنعاس بعد وقت وبالبرودة تداعب جسدي، وبيد أحدهم تحاول نزع قلبي

من موضعه وتسلب روحي. صدرت عني تنهيدة وكأن جبالًا جثمت على صدري فقررت الاستلقاء براحةٍ لأول مرة منذ سنوات. خُيّل لي أن طيف عليا مر من جانبي وكأنها جاءت تهنئني على انتصاري عليهم والثأر لها فابتسمت وقررت كتابة آخر جملة في دفتري. لطالما حلمت باللحظة التي سأدونها به!

«الأعراف ليست تلك المعتقدات الظالمة التي نرثها عن أجدادنا! الأعراف ميثاق شرف لا يسير على نهجه سوى كل شريف!»

المنتقمة

(٢١)

أغمضت عينيَّ رفضًا للسلام المنبعث من الصفحات رغم الحروب المندلعة في داخلها، رفضًا لأن تصبح زهوة حكاية تُقرأ بين سطور دفتر كُتب ما فيه في الخفاء كما لو كانت حكايتها جريمة يمنع عنا كتابتها وقراءتها! شعرت أن رؤيته وقراءة ما كُتب فيه دليل على صدق ما رُوي في داخله، وكأنني لم أعشه منذ عشرة خريفٍ لا ربيع يقابلها! أغمضتها رفضًا للحروف والكلمات وتبًا للأبجدية التي استكانت روح زهوة بين حروفها!

أغلقت الدفتر على مهلٍ جاعلة قبضتي خفيفة عليه كقبضتي على يدها في ذلك الصباح الغابر، قبل أن يُصدر الفرمان بذهابنا جميعًا إلى منزل عمي منصور رحمة الله عليه. لو كان بيننا ما فَطست ابنته وحيدة كمن لا أهل لها فقد عدنا في المساء وإذا بمنزلنا خاوي من البشر، من الروح، من زهوة!

وضعته على حبات الرمل وأزلت مثيلاتها من حبات اللؤلؤ المتساقطة من أعين الصغار. كشرت عن أنيابي رافضة التي تنهمر من أعين ماجد وعليّ كقطرات المطر التي تنساب على سطح الزجاج بهدوء، لا صوت لها لكن واقع اصطدامها مؤلم كألم مغيب زهوة بصمتٍ!

وكأنها أخفقت في تحقيق كل أحلامها سوى حلم واحد وهو أن تصبح كما الشمس التي تمنت بغِبْطةٍ لا تتماشى مع مصير أحلامها أن تذوق حلاوة شعورها في أولى فصول حكايتها ورحلت مثلها في الأخير منها! حارقة، مؤذية، مجهدة نفسها ومن حولها. متعجرفة تنظر بتعالي لمن هم أسفل منها.

كم وددت معاتبتها لانطلاء خديعة سيادة النائب عليها لكن لا يسعني سوى إكمال ما بدأته ولم يمهلها آباؤنا الفرصة لتتمه كما رجت!

تنهدت مثقلة بالهموم. على عاتقي مسؤولية تجاه أموات وأحياء وأطفال ومستقبل أجيال قادمة، ولا مجال للضعف أو رثاء من لا يكفيها رثاء أهل الأرض لها!

نظرت بجمودٍ لماجد. لَمْ أكن أعمل على تنشأته رجلًا صلدًا قوي البنيان، حاد الطباع رحيم القلب، ليجلس كي يبكي عمته كالنساء فقلت:

– سنلوح براية النصر غدًا. لا مكان للدموع بيننا!

– لو ماتت وسيفها بيدها كما رجت، لما حزنت عليها!

قال ماجد وانعكاس صورة زهوة يلمع في عينيه وقد تلبست روحها المثابرة صوته. أما الحزن عليها فأصبح كهالة من الأسى والجزع تحيط به وتجذبه لقاعِ اليأس فخشيت عليه الغرق وأعدته إلى ما أنشأته عليه:

– وهل وفاتها على سرير أملكَ سعيدة بانجازها ليس انتصارًا بالسيف الذي حملته لآخر نفس لها على أرضنا ببسالةٍ وشرف، أجبرت قاتلها ألا يتحلى به حين مارس عليها أقذر الحيل؟

أشرت إلى الجمع المشارك في جلستنا وتابعت:

– أنظر حولكَ وستفهم أن عمتكَ انتصرت.

– وهل اجتماعنا ونحن نستمع إلى ملحمتها المأساوية منكِ، انتصار نفرح له؟

أفرج عن الغصة التي تؤرقه ففهمت علته. إنه استنكر أن تموت عمته وحيدة دون أن يشهد على انتصارها أحد لذا وكما أكملت مسيرتها بتنشأة ماجد والصغار من بعدها كيفما ارتأت، كان لزامًا عليَّ أن أعيده إلى صوابه فذكرته بانجازاتنا على مدار عشرة أعوام. وقوفه كالأسد بوجه كل من حاول المساس بشقيقاته، واصطحابه الصغيرات كل يوم بعد العودة من المدرسة بحجة رعي الأغنام وتدريسهن ما تلقاه في المدرسة.

ذكرته وذكرت نفسي بملابسات زواجي من عمه عليّ، عندما صدرت الأوامر

بالزواج بعد أن دقّ الخطابون بابي وكانت الإجابة «رد مشور» لعل أحدًا من أبناء عمومتي

يريدني! أتذكر أنني رفضته حينها، ليس لسوءٍ به وإنما على غرار رفض كل ما قالت له زهوة لا!

في تلك الأيام تلقيت من بدر الأهوال كما تلقتها زهوة وأكثر لكن حظي الجيد أنني رزقت رجلًا يعلم كيف يقدم على حمايتي حتى وإن قلت له لا! حينها ظهر صوتي لأول مرة منذ صرخت باسم زهوة عندما رأيت قطرات الحليب تسيل من بين شفتيها.

عقاب كلمة «لا» كان صفعة واثنان وعشر انتهت بطَّسْت من الألمونيوم مملوء بالمياه الباردة في ليل نوفمبر وسلك كهربائي منزوعة منه الطبقة البلاستيكية، وجسدي الذي لا حول له ولا قوة له يقف فيه، وقلب ينبض بالجمود لا يعرف الشفقة.

الصعق بالكهرباء شعور لا يمكن وصفه أو حتى تذكره. يكفي القول إنني ذهبت إلى زهوة عدة مرات في تلك الليلة وعدت إلى قبضة بدر، وحين أيقن أنني عدت قطيعة اللسان كما ولدت ألقاني على الأرض مع أمر بعدم مغادرتي المنزل تحت أي ظرف أي ولادة حكاية زهوة وبدر جديدة مع فروق جذرية، لا عليّ كبدر ولا بدور متهورة كزهوة!

لبدر زوجة أخرى ساعدتني في الوصول إلى ماجد وطلب الدعم منه. تزوج بدر بعد وفاة زهوة بعدة سنوات من ابنة أحد شيوخ قبيلتنا وأنجب منها ثلاثة صبية. تدعى كريمة وقد كانت كريمة بالفعل! أتذكر أنها أمسكت بيدِ ماجد وجاءت به إليَّ وتركتنا نفكر كيف يكون الخلاص من مصير أشبه بالبارحة.

رغم رفضي وتعنتي الصريح تجاه عليّ لكن كان لماجد نظرة أخرى للأمور وأصر على كونه داعمًا وحليفًا ذو علم ونخوة وهدف، ونيران حزنه على شقيقته لم تنطفئ بعد! قال لي:

– لنخبره بمخاوفكِ وما فعله بدر بكِ.

فأجبته:

– إنني أرفضه فكيف أسعى لنيل شفقته؟

قال:

– شتان بين ما نطلبه والشفقة! نحن نعد العتاد لنكمل مسيرة عمتي.

وقد كان ووافقته فذهب لعليّ وأخبره بما صار بي حين رفضت الزواج لكونه فقط ابن عم، بعد أن رسخوا في عقولنا أن الزواج من ابن العم شيء عضال لا يقوى القلب على قبوله.

مرت الأيام والتزمت الصمت. كنت أفر من أمام بدر عندما أتذكر صوت صَرِيرُ أسناني وارتطام ركبتيَّ من هول الصعق بالكهرباء. تزوجت عليّ وكان ذلك أفضل ما قمت به. أتممت على يده ما بدأته مع ماجد، وصار الرجال طوال اليوم يجمعون المال والنساء يتعلمن القراءة والكتابة دون علمهم.

ذكرتني وذكرت ماجد أن زهوة انتصرت منذ زمن وما نفعله تكليلًا لذلك الانتصار، وإطلاق الضوء الأحمر بخطورة ممارسة القمع والمنع على الفتيات. حالنا كحال كل المجتمعات المغلقة عندما تسجن الفتاة بين أربعة جدران يكتب عليها «لا رأي لكِ نضعه بعين الاعتبار، ولا فرصة لقدمكِ بتخطي الأسلاك الشائكة التي زُرعت أمامكِ» ستبدأ فكرة الرغبة في تجربة الممنوع تسوقها إلى وجهات لن تجلب لها سوى المصاعب ولعائلتها وصمات عار كانوا في غنى عنها!

صرنا في مطلع الألفية الثانية وهناك سبل عدة تنتهجها الفتاة كي تنفذ ما تهفو إليه روحها بعيدًا عن مرمى متابعة الأهل، وإن أدرك من يمارس القمع ذلك فسيعرف أنه هو من قدم لسجينته السكين كي تطعن شرفه به.

حتى سالم، إن فهم أن احتواء الفتاة وتعليمها أمور دينها يجعلها تتيقن أن ما

سيصدر من عائلتها بحق مصيرها في الحياة سيكون بمصلحتها ولن تسير خطوة إلا بموافقتهم، ما مارس سطوته وظلمه على زهوة التي أثبتت بجدارةٍ شرفها وعفتها رغم الظلم الجائر الذي طالها، بالمقارنة بالأفعال المشينة التي تصدر الآن عن بعض الفتيات!

لن أنسى حالة الخزي التي احتلت قريتنا كاملة حين شاعت في زاوية أم الرخم حكاية ابنة أحد أقربائنا التي انْسَلَّت من أسرتها وهم يرعون الإبل وذهبت لتلتقي بعشيقها

في المقابر فأمسك بهما والدها، وقد قاده تهوره لارتكاب جريمة قتل بحقهما ولم يستطع العيش بوصمة عار هو من زرع بذرتها فتوفي بعد عدة أشهر.

سبقتها حكايات عدة لم تصل لحد القتل أو الثأر بل ظلت حكايات تتناقلها ألسنة النسوة، هناك من تستنكرها ومن تراها كوّة فُتحت في محبسها تطل على عالم طالما حاولت تنفس هوائه لكن كان لرجالها كلمة أخرى!

هناك من تظاهرت بالمرض كي تلتقي بمن تواعده في المستشفى، وهناك من قبض عليها تتحدث خفية مع محصل فواتير الكهرباء، وهناك من تترك بابها مفتوحًا قليلًا أمام كل من يطرقه لكن تبقى تلك الأفعال تصدر عن القلة. حمدًا لله أنها ليست نهجًا تسير عليه فتياتنا!

حين فرغت رأيت في عينيه الرضا فغصت بذاكرتي مرة أخرى إلى يوم نهاية وبداية كل شيء، حين جاءت دليلة تطمئن على زهوة بعد خروج الرجال لطلبِ الرزق.

دلفت إلى الغرفة سعيدة لأنها وأخيرًا ستبقى في منزلنا، ستكف عن الصراخ وحدها! وإن جاءتها نوبات الصراخ التي قال عنها بدر أنها تجيئها بسبب البقاء بمفردها في الإسطبل في الظلام، سأذهب لها وأعانقها إلى أن أدب الطمأنينة في روحها.

ما زال الشعور بالذنب ينهش صدورنا عندما نتذكر أننا تركناها ما يقارب الشهر ونصف، تصرخ دون استجابة منا أو رحمة من رجالنا لكن ماذا نفعل؟ في غيابهم

كانت تصرخ لينجدها أحد من أياديهم وتسرد حكايات لا يصدقها عقل، وأمامهم تمارس كل حيل القوة والشجاعة!

دلفت إلى الغرفة على استحياء. كانت مظلمة، هادئة رائحتها غريبة بعض الشيء تزكم الأنف بالخوف والريبة. زهوة تنام على فراشها وتتدثر جيدًا. يبدو أنها شعرت بالبرد ليلً. وضعت دليلة ما تحمل بين يديها من طعام على الأرض وذهبت لتفتح النافذة لعل هواءً جيدًا يبدل الطاقة السيئة التي لفت المكان! ذلك ما قالته حينما أمرتني أن أوقظ زهوة.

ذهبت ووالله ما طاوعتني قدمي إلا عندما جررتها خلفي وكأنني ذاهبة للمجهول.

صحيح أن زهوة لم تكن صديقتي المقربة لكنني كنت أتابعها بشغفٍ، حتى أنفاسها لكم وددت أن تلتقطها بسعادةٍ لمرة واحدة! إن نظرنا لما أنا عليه فهي نجحت أن تنشأ من بعدها زهوة الأعراف جديدة.

افترشت الأرض قربها وملت لمستوى وجهها. رفعت الدثار عنها فكانت هادئة المُحيا، مطمئنة تبتسم بصفاءٍ. تسيل من بين شفتيها قطرات بيضاء اللون تشبه قطرات الحليب التي تسيل من فم منصور بعد أن يترك ثديي عندما يغط بالنوم. هكذا رأيتها، رضيعة حصلت على ما يدفئ صدرها ويشبع جوعها فقررت النوم بسلامٍ لتنعم بالطمأنينة بين جنبات حلمها كما ينعم رضيعي بين لمساتي الحانية.

وضعت يدي على وجنتها أمررها بحنوٍ فأجفلت من برودتها الموحية بأن خطبًا ما قد حدث. ارتد جسدي للخلف وسقطت جالسة أمامها. انحنيت مرة أخرى نحو وجهها فشهقت وناديت برجفة تتغلغل بين كلماتي:

– زهوة يا دليلة!

قبضت على يدها بهدوءٍ وقلة حيلة لم أعرف لهما سببًا! كل ما أعرفه أنني رأيت ملامح الجدة بها واستشعرت البرودة التي كانت عليها بعد أن سقطت في الساحة بوجنتها. جاءت دليلة ومن بعد صراخها تحولت الغرفة إلى كتلة من النساء يلطمن

وجوههن ويقفزن للأعلى وكأن زهوة تقبع في سقف الغرفة ويحاولن جذبها لهن!

جاء ماجد وانقض على جسدها. حاول افاقتها والصراخ بها. كان صغيرًا على إدراكه الموت لكن له تجارب سابقة قريبة من تلك الحادثة، جعلته يدرك أن زهوة وأخيرًا غفت بسلامٍ في المكانِ الذي طالما تطلعت إليه.

دقائق وحضر الرجال واحدًا تلو الآخر. الأوامر كانت صارمة وبقينا في منزل عمي منصور إلى أن حل المساء، وعدنا كما لو أن شيئًا لم يحدث! لا مراسم دفن ولا عزاء. لا صراخ ولا أسود نتشح به حدادًا عليها. قالوا إنها دفنت بجانب عليا لكن ماجد جزم بأن قبر أمه لم يفتح وأنا صدقته، وما زلنا إلى الآن نبحث عن قبر ضمّ زهوة البادية.

***

– بدور! اجمعي خرافكِ الصغار وهيا إلى المنزل. ستذبحكِ دليلة!

قال عليّ وتبع حديثه بقهقهة أعرف سببها جيدًا. لقد تحولت دليلة إلى عشرينية شمطاء بهيئة أربعينية تحمل مقصًا وتحاول قطع لسان كل من لا يأتي حديثه على خاطرها فعاتبته:

– تأدب يا ابن العم! إنها تحمل بيتنا كُله فوق كتفيها، ألا يحق لها القليل من الصراخ؟

– القليل؟

قالها وهو يحملق بي مستنكرًا استصغاري حالة هياج دليلة المستمرة. نهضت أضع منصور بين يديه ثم جذبت أخته صافية لتسير جانبي، وسار ماجد وسط أشقائه ثريا وعليا وخليل والصغيرة زهوة، والتي رفض أبوها مناداتها بذلك الاسم مطلقًا وأسماها فاطمة لكن فيما بيننا هي زهوة ابنة دليلة التي تقف لسالم الند بالند.

إنها ليلة باردة ممطرة، المطر فيها ليس على أوجه! خفيف ولا يعيق السير وتفاءل

به الرجال. قالوا إن الأرض استعدت لتمييز وتقريع الخيل. أسوء ما فيه كان صوت ارتطامه بالأرض فهو يزيد من توتري.

كنت قلقة بعض الشيء فيما ستسير عليه الأمور غدًا، وكيف سيقف ماجد ليسرد حكايات تدمي القلوب ويرفضها العرف، ويثقلها بحجج من دربتنا، دربة أولاد علي. منصور لا يكف عن البكاء ويبدو عليه القلق من أجل عمته أما ماجد فغادر بعد تناوله العشاء وقال إنه ذاهب بفرسه إلى الشاطئ.

***

صوت جدال دليلة وسالم لا ينتهي، وارتفاعه يدل على احتدام الموقف برفضها لتعنته بالتعامل مع ثريا. ينظر لها كما لو كانت في عمر خالتها. منع عنها حتى الخروج من المنزل! يقول «لن أربي زهوة جديدة تحت كنفي!» كما لو كانت زهوة عارًا توجب عليهم الحرص منه لكن من ستقبل هذا؟ دليلة؟ بالطبع لا! إنها تمارس عليه كل سبل التعنيف والمراوغة وتطلب منه ما يبتغون هي وأبناءها وحين يرفض تقول «إنك تستغل غياب أمهم وتمنع عنهم الحياة». يفعلن ما يحلو لهن في غيابه وعند هجومه عليهن تذكره بقدمه التي قتلت شقيقتها. سمعته يصرخ:

– ماذا تريدين؟

– أحسن إليهما كما تُحسن إلى عليا!

قالتها بصوتٍ خفيض فيه شيء من الغنج ذو تأثير مفرط على رجل كسالم، أدركته عندما استرقت السمع لهما فأجابها والظلم يقطر من فمه:

– وأين هما وأين عليا؟ شتان يا دليلة! ثريا تربية زهوة والأخرى تربيتكِ أنتِ.

شهقت فدوى صوت شهقتها في الغرفة، مستنكرة حديثه وأوضحت له:

– لكن أنا من ربيت الجميع. حتى عليا ذهبت عنها أمها دون أن تراها. صحيح أنني لم أرضعها من ثديي لكنها ترعرت بحبي وعنايتي، وثريا أيضًا تركتها أمها ابنة

أربع سنوات وزهوة لم تبقَ في الحياة بعدها، كما أنها تحمل اسم أمكَ. ألا يلين قلبكَ لها مطلقًا؟

– من قال ذلك؟ هي فرحتي الأولى لكنها وصلت إلى عمرٍ توجب عليَّ أخذ الحيطة منه لذا ممنوع عليها المرور من جانب الشرفة، وإياكِ مرةً أخرى أن تستغلي ما حدث فيما مضى لتأثري عليَّ! أهل الأرض جميعًا لا يحركون شعرة من رأسي، ضعي هذا في رأسكِ السميك الذي خيل له أنني أخافكِ أو أخاف أحدًا! والآن، أزيلي عنكِ ما ترتدين. أمور البيت والعائلة لا تمر من باب غرفتي مرة أخرى وإلا جئت بمن تُحَسِّن مزاجي ولا تعكره، وتعرف كيف ترتدي لزوجها ما يسره.

– وهل تملأ بيتي بالبهجة والسرور في النهار لترى مني ما يسرك في الليل؟

قالت دليلة وأظنها لم تحسب إلى أي مدى ستصل كلماتها فرد عليها أو ردّها عما قالت:

– جئت بكِ إلى بيتي لخدمة أبنائي نهارًا، وخدمة مزاجي ليلًا وفعل كل ما تؤمرين به، وإن كان يصعب عليكِ إزالة ثوْبكِ المُهَلْهَل فإنه لأمر محبب لي!

سمعت صوت شق ثيابها، ورفضها تجرأه عليها وإهانتها ثم صوت لطمة عاقبها بها فاستكانت ورضخت، وذلك ما نجيده!

***

– نامي يا بدور! استيقاظكِ لن يغير من الأمر شيئًا!

قال على في حدة لا تتناسب مع صوته الرخيم فقلت أسأله أن يُطَمْئِن قلبي:

– ماذا إن لم ننجح غدًا؟

–هذا يتوقف على مفهوم النجاح عندكِ. إن فكرتِ أن ارتفاع صوت ماجد وسرده ما حدث وحصوله على استحسان وقبول البعض، وإعطاء عمتي سليمة حقها في إرث أبيها فهذا نجاح! أما إن فكرتِ بالقصاص لعليا وزهوة فهذا نجاح

تموتين ولا تحصلين عليه!

تشابكت أصابعي في رحلة عنيفة من الفرك، وقلت أراقب سقف الغرفة:

– أخشى ألا تقبل القبيلة بإهانة رجالها!

– كوني متأكدة من أن القبيلة لن تقبل بإهانة نسائها. نحن رجال البادية تسيرنا الأعراف، والأعراف ما ظلمت امرأة قط!

الخاتمة

تركت كل ما أملك خلفي، أبنائي ومصيري وحياة عليّ وماجد إن لم تسر الأمور كما خططت لها. اسم عائلتي وكرامة أهل منزلي وشرف قبيلتي إن قوبل ما سعيت له بالرفض من رجالها، وجئت إلى أرض وادي ماجد، مهد انتصارنا الأول لأطالب بتكليل انتصار آخر يضاف إلى لائحة شرف البادية، بصحبة مستقبل سعت زهوة ليصبح أفضل فمهّدت لهما الطريق ليسيرا بشموخ بين الرجال بعد أن ينفضا عن يديهما دمائها التي علقت بهما عنوة عندما صمتاً مرغمين عن انتهاكات أهلهما بحقها.

احتفالات العيد القومي لمحافظتنا والتي تقام يوم ذكرى موقعة وادي ماجد في الخامس عشر من شهر ديسمبر من كل عام، لها طقوس معينة أهمها الخيل وما يمارسه الرجال احتفالًا وتقديرًا لذكرى انتصار أجدادنا على الانجليز، ومن أجل هذا اليوم استعد ماجد لركوب فرسه. روضها ودربها كي تكون شريكته في استعراض مهاراته أمام جمع غفير من شيوخ القبائل وعدد من رجال المحافظة والمسئولين.

رأيته يسير بين الرجال تغطي الشنة [١٨] رأسه، يرتدي المَلِف [١٩] بني اللون فزادت ألوانه من طابع البادية الذي لفّ الأجواء. يسدل الجرد الجريدي أبيض اللون على سائر جسده ويعقد عقدة في آخره. يلفه على الكتف اليسرى ومرة أخرى من تحت إبطه الأيمن وتسمى تلك الطريقة في ارتداء الجرد بالتشميل.

كل مرة تدب قدمه الأرض تزلزلها وكأنه يقول «أنا بدوي وسأثبت لكم أن البدوية لا تطلق على كل من يعيش في بيت عرب في الصحراء».

١٨- الشنة طاقية من الصوف حمراء اللون، يقال إنها مقتبسة من الطربوش التركي لكن ليس فيها أشرطة

١٩- المَلِف عبارة عن قطعتين من الصوف المطرز يدويًا، يتكون من سروال واسع وصدرية بلا أكمام أو أزار

أصابعه تعانق لجام فرسه كما لو أنه امتلك الدنيا بين راحة يده. يتطلع إلى نقطة معينة في صدر مجلس الشيوخ وعيناه لا تحيدان عنها، لوحة لفرسٍ ترفع قدميها الأماميتين وكأنها ستفتك بمن يقابلها!

وعود علي كانت واضحة للغاية، سعى للوفاء بها منذ صباحنا الأول، وقد اكتشفت وبالمصادفة أن ما وعدني بتنفيذه اشترطته أخته على بدر كي تقبل الزواج منه، أي أن شروط زهوة للزواج من بدر كانت أن يكون رجلًا ويعاملها كامرأة لها الحق بالحياة، وقد خان الوعد وأخل بالاتفاق معها.

من بين تلك الوعود كان وعده على إعانتي في الثأر لدماءِ زهوة، وأن يضمن للنساء من بعدها حياة كريمة لا يشوبها قمع، وها هو يفي بوعده وهيّأ لي مكانا أستطيع من خلاله متابعة آخر قسم في الاحتفالات قبل غروب الشمس.

تستعرض الخيل مهارتها عِندنا هي ومن يمتطيها بحركتين، إما «تميز» تجري بسرعة فائقة بخطٍ مستقيم أو «تَقَرع» أي تجري بنفس السرعة ولكن وهي تدور بحركاتٍ دائرية.

التمييز حركة يقوم بها معظم الفرسان أما التقريع فلا يفعلها سوى القلة القليلة ومن بين تلك القلة ماجد. راح يقرع بفرسه حول الجمع والفرسان كما سيقرع حول الأعراف بعد قليل. تابعته بنفسٍ مبتهجة وروح تتطلع للكمال بأخذ كلمة شرف من أشراف هذه الأرض، وبعدَ الانتهاء من الاحتفال تحلق الجميع حول شيخ قبيلتنا وكبيرها الشيخ مراجع، الآمر الناهي والذي لا تتبع كلمته كلمة.

تجاذب مع الحضور أطراف الحديث، وبعد الترحاب وواجب الضيافة، نهض الشيخ عثمان ليطلب الإذن في عرض أمر هام. دار بؤبؤا سيادة النائب في عينيهِ بفزعٍ وراح بدر يتلفت من حوله وكأنه يستبين عدد الحضور ومكانتهم الاجتماعية! يبدو أنه يخشى افتضاح أمرهم!

أما سالم فلم يستطع إِضْمار وجومه ونهض يجمع طرف جرده ويهم بالذهابِ. وقف الشيخ عثمان في مكانه ودار بنظراته بين الجميع. ليته علم بنقطة تمركزي

وصوّب نظراته حلوة الهيئة واثقة الخطى نحوي لكن يكفيني ما سأراه وأسمعه بعد قليل!

نظر نحو عمي سلطان فلاحت شبه ابتسامة متشفية على ثغره. هزّ رأسه مرتين وقال:

– أعلم أن هذا ليس وقته لكن نحن أهل العزة والشرف لا نقبل أن يجور الظلم في أرضنا، وقد وقع ظلم بَيِّن في البادية والظالم أهلها. إن كان ذلك يرضيكم فسآخذ أهلي وأرحل عنها يا مشايخ العرب.

الجاني دومًا ما يترك خلفه دليلًا، والجناة رغم أنهم أزالوا آثار جرمهم إلا أعلنوا عنه فور التصريح به فهدر سالم بعد أن وقف دواس إلى جانبه:

– لا المكان ولا الزمان يسمحان بمناقشة أمر كهذا يا شيخ عثمان. إن كان لكَ حق ستأخذه.

ضرب الشيخ عثمان كفا بكفٍ ومرر نظراته بين الجميع ثم هزّ رأسه بنفاذ صبر وأجابه:

– وما الأمر الذي لا يسمح مكان يوجد به كبارنا مناقشته يا سالم؟

–عثمان! لا تطلب عداوتنا من أجل حفنة من قروش!

قال سيادة النائب وهو يتقدم نحوه إلى أن وقف بجانب ولده وابن أخيه، فتبقى بدر وتكتمل صورة الذئاب البشرية التي تعيش بيننا. قال الشيخ عثمان وهو يمد ذراعيه على مصراعيهما:

– ومن قال إن الأمر يخصني أو حتى له علاقة بالقروش يا شيخ سلطان؟ لو أن الأمر يشترى بالمال ما طلبت الحكم من عرفنا!

هبّ سالم من مكانه نحو الشيخ عثمان فقيد دواس حركته، وهرع نحوهم بدر. نظرت إلى الموجودين فوجدت الدهشة تعلو وجوههم من تبادل الشيخ مع عائلتي

أحاديثا مبهمة حسبما أعتقد.

صفق الشيخ مراجع بيديه وسألهم بصوت جهور فيه من الحدة ما جعل الجميع ينظرون بترقبٍ نحو الشيخ عثمان عن سبب العراك في خضم الاحتفالات ثم تطلع نحو عمي سلطان وتابع:

– ألم تُنهِ أمر الإرث بعد يا شيخ سلطان؟

ألجمت مفاجأة معرفة كبير قبيلتنا بأمر الخلاف الدائر حول كيفية حصول عمتي سليمة على إرثها الحضور، وأولهم سالم الذي أناب عن عمه بالإجابة وقال:

– نحن لم نمنع عنه قرشًا واحدًا يا شيخنا. وفاة عمي خلف عرقلت الأمر قليلًا، وقد عرضنا عليه أكثر من مرة أن يأخذ ماله فرفض.

أصبح الغضب جليّا على وجه الشيخ عثمان. أعتقد أنه ودّ التحدث عن الأمر وعرض مطالبه للبتّ بها لكن ما جئنا من أجله اليوم ليس إرث عمتي سليمة بل النصيب الأكبر من المواجهة يخص ماجد فأخبره أنه لم يأتِ كي يطالب بأراضي وأموالٍ وإنما لأمرٍ أشد ظلمًا فسأله الشيخ عنه.

تدخل ماجد بالحديث بحنكةٍ مدروسة ودِدت أن أذهب إليه وأقبل جبينه من أجلها:

– جاء ليمهد لي الطريق كي أطالب بالقصاص. ألدى أحدكم اعتراض؟

سار بتمهلٍ إلى وسط المجلس ووقف بشموخٍ يجول بنظراته بين الحضور وكأنه يخبرهم «أنا هنا من بعد الآن! لا صوت سيعلو علَى صوتي!».

رؤية الرعب يتجلى في أعين القتلة، طالما انتظرته لسنوات! وها أنا أتجرعه حد الثمالة حين أرضيت غروري وانتقامي برؤية نظرات الخوف والهلع مما هو قادم في أعين رجال عائلتي!

سأل الشيخ مراجع ماجد التوضيح ففعل وأخبره بأنه وقعت عليه مظلمة من أبيه

وأجداده يود تحكيم العرف فيها فهرع نحوه سالم، يحاول منعه عن الحديث وجره إلى الخارج بمعاونة البقية لكن ماجد رجل والرجال لا تقطع ألسنتهم فأمر الشيخ مراجع الحضور بالصمت، وسمح له بسرد مظلمته ليتم البتّ بها.

– أطالب بحق أمي التي قُتلت تحت أقدام أبي، وعمتي التي تناوب ثلاثة رجال على تعذيبها لأشهر في إسطبل الخيل بمهانة لا تتناسب مع كرامة البادية.

استهل ماجد حديثة بتلك الكلمات ثم تبعها بسرد تفاصيل موت أمه، وخلافات زهوة مع أبيه ثم تعذيبها وإرغامها على الزواج من بدر، وأنهاه باتهامه لجده سلطان بقتلها هي وجنينها ومطالبته بالإفصاح عن مكان قبرها، وتوقيع العقوبات العادلة بما ينصه عرفنا.

قاطعه سالم مرات عدة، وتلقى عشرات السُبّات من جده سلطان وسط ذهول دواس من هول المفاجأة وصمت بدر مطأطأ الرأس وقد عاد لما كان عليه منذ عشر سنوات، هادئ المُحيا يتابع ما يدور حوله باهتمام لكن تحول هدوءه إلى غضب أهوج حين وصل حديث ماجد إلى نقطة قتل جده سلطان زهوة وجنينها فهدر:

– أجننت يا ماجد؟ عن أي قتل تتحدث! زهوة ماتت بسبب سوء تغذيتها.

– عمتي ماتت بسمٍ دسّ لها في كوبِ حليب، وأنتَ تعلم ذلك جيدًا.

أجابه ماجد وهو يتوجه نحوه، غير عابئ بمن يحيطون بهما أو النيران المتقافزة من عيني سالم. احتدم الجدال فيما بينهم بين إلقاء التهم ونفيها وطلب ماجد شهادة مؤمن ودواس فأنهاه صوت الشيخ مراجع وهو يطلب منهم الصمت، موجهًا سؤاله إلى سالم بحقيقة وفاة زهوة فلم يستطع الإنكار وأقرّ أنها ماتت منذ عشر سنوات.

ولأول مرة أرى كلماته تقطر ذلًا، فتابع الشيخ استجوابه:

– وهل أقمت لها العزاء؟

إن قال نعم فسيشهد الجميع بكذب حديثه وإن قال لا فسيثبت صحة إدعاءات

ماجد. صمت ونظر لعمه كي ينقذه من الغرق في بِرَكَةِ الخزي التي أوقعه بها حين سقاه الجفاء وقسوة القلب.

تقدم مؤمن من ماجد ووقف جانبه فتبعه عليّ الذي ربت على كتفه وطلب منه الجلوس في علامة منه أن ما يقع عليهم قاما به والقادم ما هو إلا قول كلمة حق بلسانِ الأعراف.

لم يتجرأ سالم على الإجابة لكن أعلن مؤمن عن مساندته في ردّ حق ابنة عمه وشقيقته حين قال:

– لا يا شيخ، والله ما أقمنا لها العزاء! حتى أننا لم نحضّر لها مراسم دفن. ارتأيت أن أجيبكَ بالنيابة عن أبي الذي يصمت الآن عن مناصرة ابن أخيه؟

– مؤمن!

بصوتٍ جهوري هزّ جدران الخيمة بقوته، صدرت عن عمي سلطان، تبعها ذهاب دواس لمؤمن ليلقي عليه كلمات لاذعة من العتاب لم يكن لها قيمة في حضرة الكبار. تقوَّضَ جسد سالم على الأرض حين قال بدر يوجه سؤاله لعمه:

– أيعني هذا الحديث أنكَ قتلت ابني عن عمد يا عماه؟

كيف لبدرٍ أن يسأل ويستنكر قتل ابنه بينما يصمت سالم عن حق شقيقته؟ وينظر دواس بذهول وكأنه لأول مرة يعرف أن عليا ماتت تحت أقدام سالم؟ واصل سيادة النائب تخليه عن نخوته وقال:

– وما يدريكَ أن ما يقوله هذا الفاسق صحيح؟

هرول ماجد نحو الشيخ مراجع وأعطاه دفترًا مزركشًا بالزهور الصوفية، يحمل صكّ البادية على غلافه وشرف دمائها بين حروفه، وأقسم أنه ما تفوه بحرفٍ كذب قط! والدليل على صدق كلامه ما روته زهوة في دفترها وشهادة عليّ ومؤمن

ودواس، إن لم يسكتوا عن الحق في مواجهة صدام ضاري بين الحق والتمسك بعادات بالية.

صمت الشيخ مراجع آثار حفيظتي، وجعل الخوف من نصرة الظالم يدك حصون

يقيني بالنصر لكن توجه أنامله للصفحة الأخيرة من الدفتر دبّ الأمل فيّ من جديد، وما هي إلا لحظات من الصمت وأعلن عن قول الحق:

– قالت حفيدة الشيخ حمد أن أعرافنا ميثاق شرف لا يسير على نهجها سوى كل شريف!

ونحن سنُحَكّم أعرافنا وشرفنا فيما يخصها. والآن، لا كلمة تقال سوى الإجابة عن سؤالي.

نظر نحو سالم وعمّق النظر بإليه لدرجة شعرت معها أنه شيئًا هلاميًا سيتلاشى أمامه ثم تابع حديثه بسؤالٍ انتفضت من أجله رمال الصحراء:

– هل ما رواه ولدكَ صحيح؟

طأطأ رأسه، والجواب ظهر من نظرة الانكسار التي وجهها صوب موضع قدميه فطلب الشيخ مراجع من أبناء عمومتي الشهادة مع تذكرتهم بأن كلمة الرجال بألف قسم وميثاق.

لم يقصر عليّ وصدق على كل حرف قاله ماجد، وأضاف مؤمن أن زهوة دُفنت خارج نطاق أم الرخم أسفل شجرة زيتون زرعها بدر في اليومِ التالي للدفنِ. أما دواس فاكتفى بالصمت. لم ينفِ أو يؤكد الاتهامات، مع تبريره لذلك بأن الابن لا

يحق له بمسّ اسم أبيه بسوءٍ، لائمًا ماجد على طلب القصاص من والده.

سأل سالم مرة أخرى سؤالًا سبقه باعتذار سالت على إثره عبراتي وقال:

– إن كانت خاطئة فسوف تنفض جلستنا ويذهب كل منا إلى بيته بوصمة عار جلبتها لنا ابنتنا، وإن لم تكن فلنسمع تبريركم يا آل هارون على ما اقترفتموه في حق ابنتكم وولد بدر.

تحول المجلس إلى حالة من الهرج والمرج، والحال أن من مارسوا على زهوة كل سبل

القمع والتعذيب تكالبوا لتبرئتها الآن من تهم مشينة كالتي ألقاها الشيخ عليهم، واكتمل المشهد المثير للإعجاب بصمتِ ماجد عن الدفاع عنها وكأنه يرضي فضوله برؤيتهم يزيحون عن اسمها عارًا جلبوه لها بتخليهم عن نخوتهم، وذلك أول انتصار حصلت زهوة عليه اليوم!

أجبر الحضور رجال عائلتي على الصمت فقال الشيخ مراجع موجهًا حديثه إلى كل من بدر وسالم وعمهما:

– إن لم تكن مخطئة فلماذا تلقت منكم كل ذلك الإذلال؟

– كانت حالمة صوتها عالٍ، تتطلع لأن تقف قبالتنا رأسًا برأس. تبخ سمّها في عقول نسائنا، وقالت لا للزواج من ابن عمها. هل كنا لنتركها تعيث في بيوتنا فسادًا؟

قالها سالم يعلن عن قبح عذره الذي يفوق قبح ذنبه، ماحيًا أي ذرة شفقة في قلبِ الموجودين. لم يُعقب الشيخ مراجع على ما قيل وسأل عمي سلطان سؤالًا آخر بنفسِ الصيغة:

– وأنتَ يا سيادة النائب، ماذا رأيت منها؟

– أمسكت بها وهي تهرب في منتصفِ الليل قبل زواجها من ابن أخي بأيام، هل تقبل من ابنتكَ هذا؟

– لو تلقت الضرب والتعذيب منكم فأبسط شيء تفعله هو أن تهرب من جحيمكم! هذا ليس سببًا كما أنها تزوجته، ولو لم تصبح قاتلها لأنجبت ابنه!

تدخل بدر المتابع للحديث بصمتٍ وعاد يسأل عمه:

– هل يقولون الآن أنكَ قتلت زهوة وأنتَ تعلم أن ابني في أحشائها؟

– هل حزنتم من أجل نقطة دماء لم تصبح طفلًا بعد، وتقبلتم قتل عليا أم الثلاثة أبناء؟

قال عمي سلطان ليزيل الستار عن خبث نواياه فعقب سالم على حديثه:

– أي واحدة أمام واحدة يا عماه!

– واحدة أمام واحدة يا سالم. لقد سعيتُ لتفعلها أنتَ، وعندما أخفقتَ شمرتُ عن ساعديَّ.

لذلك الحد ما عدت أستطيع السماع أكثر. صوتهم أثار اشمئزازي، وعيناي رفضتا رؤيتهم فدعوت ربي أن ينتهي هذا الفصل المعروض من الدناءة وقد استجاب ربي دعائي، ومنع الشيخ مراجع عنهم الحديث ووجه حديثه إلى ماجد:

– ما طلبكَ يا شيخ العرب؟

وقف بشموخ، ينظر بتعالي يتخلله الانتصار وقال:

– القصاص.

صمت الشيخ لبعضِ الوقت فشعرت أنه في موقف صعب. يبحث عن كلمات يكوّن بها جملة ترضي ماجد وتعيد لزهوة حقها.

– لتعلم يا ولدي أن قلبي ويدي وعشيرتي وكل ما أطاله معكَ، والأعراف كما قالت عمتكَ تسير بشرف، والشرف يحتم علينا القصاص لكن القتيلة امرأة! وعندنا المرأة ليست بعظمٍ يقتص لها روحًا أمام روح أو دية تدفع كالتي تدفع للرجل أو حتى تنزل قبيلة قاتلها على قبيلة أخرى إلا أن يتم أخذ الحق، رغم أن روح عمتكَ تقابلها عشرة من قاتليها! ولو كانت رجلًا ما تنفس أعمامكَ وجدكَ هواءنا مرة أخرى بعدما اقترفوه بحقها، وأنتَ تعلم كل العلم أن ثمن الدم عندنا باهظ نسدده بأرواح لا حصر لها، ويترك الرجال منازلهم ونساؤهم يبحثون عن الحماية حتى يتدخل أهل الخير وتقوم النزالة[٢٠] بدورها ويتم الصفح ودفع الدية! ولأن

عمتكَ امرأة أقف أمام ما تستحق منا مكتوف الأيدي لكن..

٢٠- «النزالة عادة بدوية تهدف لفضّ المنازعات في حالات القتل العمد أو الخطأ، والقتل عند البدو جريمة لا تؤثر على القاتل منفردًا بل على قبيلته كاملة، وهي نزول قبيلة القاتل أي القبيلة النازلة على قبيلة ثالثة تسمى المنزول عليها وهي التي تسعى للصلح.
قبيلة القاتل لها الحق في رفضها أو اختيار قبيلة دون غيرها، وللنزيل حقوق على المنزول عليه أقرتها الدربة، ومدة النزالة عام كامل ولا بد أن تكون المسافة بين قبيلة القاتل والمنزول عليه ستون كيلو متر، وفي دربة أولاد عليّ لا تتم النزالة إلا على قبيلة تابعة لقبائل أولاد عليّ، وقد تقل النزالة لمدة ثلاثة أشهر إن تم الثأر ويسمى ذلك بالسلاك، أي سداد الدين! ولا بد أن يتم هذا الأمر قبل النزول على القبيلة المنزول عليها وإن حدث غير ذلك يسمى خرقًا للدربة ويُحكم على القبيلة الخارقة لقانون دربة أولاد عليّ بالنبذِ والخروج من المنظومة مدة يحددها حسن سير القبيلة، ويظل الخرق نقطة سوداء في تاريخها، وعند انقضاء المدة المحددة للسلاك أو النزالة يتم الاتفاق على يوم محدد تذبح فيه الذبائح وتقد الولائم وتجتمع قبيلتيّ القاتل والمقتول مع المنزول عليهم ومندوبين عن القبائل الأخرى وممثلين عن الحكومة، مدير الأمن أو من ينوب عنه، ورجال الدين للوعظ ثم تدفع الدية سواء كانت مالًا أو إبلًا مقدرة بمئة ناقة أو فيما يعادلها من الجنيهات الذهبية. بعد ذلك يؤخذ العهد بالصلح»

دوت في المجلس كلمات تستنكر ما قاله فهدر بالرجال رافضًا التأثير على حكمه

بالكلماتِ المنددة له وطلب منهم الصمت أو المغادرة ليتابع، أي أن كلامه نافذ حتى وإن رفضه البعض:

– ولأنهم تجرأوا على تحريف عاداتنا واِستَحَلَّوا دماء ابنتنا، يُمنع عليهم العيش على أرضنا ومشاركتنا هواءها، وقد نُزع منهم شرف البادية هم ومن يسمع عنه مؤازرتهم. لهم الحق بأخذ نسائهم معهم أو تركهم لنا فنضعهم تاجًا فوق رؤوسنا. عار علينا ليومِ الدين أن رجلًا منا ركل أمانة تركها عنده والدها حتى لفظت أنفاسها تحت قدميه! وقبل كل هذا سيصطحبنا سيادة النائب إلى أشرف بقاع الأرض حيث دفنت ابنه أخيه، ومن اليوم وحتى نهاية الشهر سيقام سرادق تلقي العزاء في فقيدتنا مقامًا بأرض وادي ماجد.

***

– يا عمة، يا زهوة الأعراف! لقد جئت. أترين راية الحرية التي ترفرف من فوقكِ؟ سعيتِ ليكون لكِ بصمة فارقة كالشمس. من بعد الآن لن يجور أخٌ على حق ضعيفة! لن يرفع زوجٌ يده على قطيعة لسان! لن يفرض أبٌ رجلًا على ابنته! ستتذوق الفتيات حلاوة كتابة وقراءة أسماءهن بنهمٍ بفضل دوركِ العظيم! ابتسمي يا حفيدة صافية فقد سُحِب منهم شرف البادية، وتعروا من جرد أجدادي! متّتِ وحيدة دون أهل ودفنتِ وحيدة دون شاهد على قبركِ، وها أنا جئت بعشيرتنا كاملة لنتلقى العزاء بكِ، وننصب الخيام والسرادق ليس حزنًا عليكِ وإنما فخرًا باسمكِ وصنيعتكِ! نامي يا عمة فقد تركتِ خلفكِ رجلًا سيعيش ليرد الحقوق إلى أصحابها من بعدكِ.

قال ذلك ماجد بصوت جهوري. لم يُخفِ على أحد ما وعدها وبشرها به وسط

صمت مهيب من الكبار إلى الصغار! وعلى مرئى ومسمع مني فبعد أن دلّهم سالم على مكان قبرها في الصحراء أسفل شجرة الزيتون، جاء بي عليّ كي يكمل الوفاء بوعوده.

تابعتُ يد ماجد الممدودة لتلقي التعازي في وفاتها والتهنئات بحسن خلُقه فعلمت أنني كتبت الفقرة الأخيرة في ملحمة بنت البادية بنجاح. وددت الذهاب إليهم وتقبيل حفنة تراب من قبرها شوقًا وفخرًا بسيرتها العطرة لكن لا بأس! زهوة معنا حتى وإن رحلت عنا. همست:

– وعدت ووفيت يا ابنة العم. أنشأته رجلًا يصارع الرجال. تمنيتِ أن ينصفكِ رجلًا واحدًا فجاء لكِ بمئاتٍ يقولون انتصرت ابنة البادية، فكيف حالكِ الآن؟ أنا حالي رائع جدًا!

تمت بحمد الله

المراجع

*كتاب الأمراء من أهل برقة والصحراء تأليف:

مفتاح خليل السنيني.

*كتاب قبائل لها تاريخ من أجل مصر تأليف:

صلاح الدين أحمد هزاع.

* مقالات عن المجتمع البدوي بقلم: صالح زيادنة.

* مقالات تحضيرية من موقع واحة الأحيوات.

* مقالات من صحف عدة كالأهرام، والرأي، والمصري اليوم وفيتو.

* بعض المعلومات والوقائع أُخذت عن لسان أهل البدو من الرجال والنساء، نتقدم لهم بخالص الشكر.